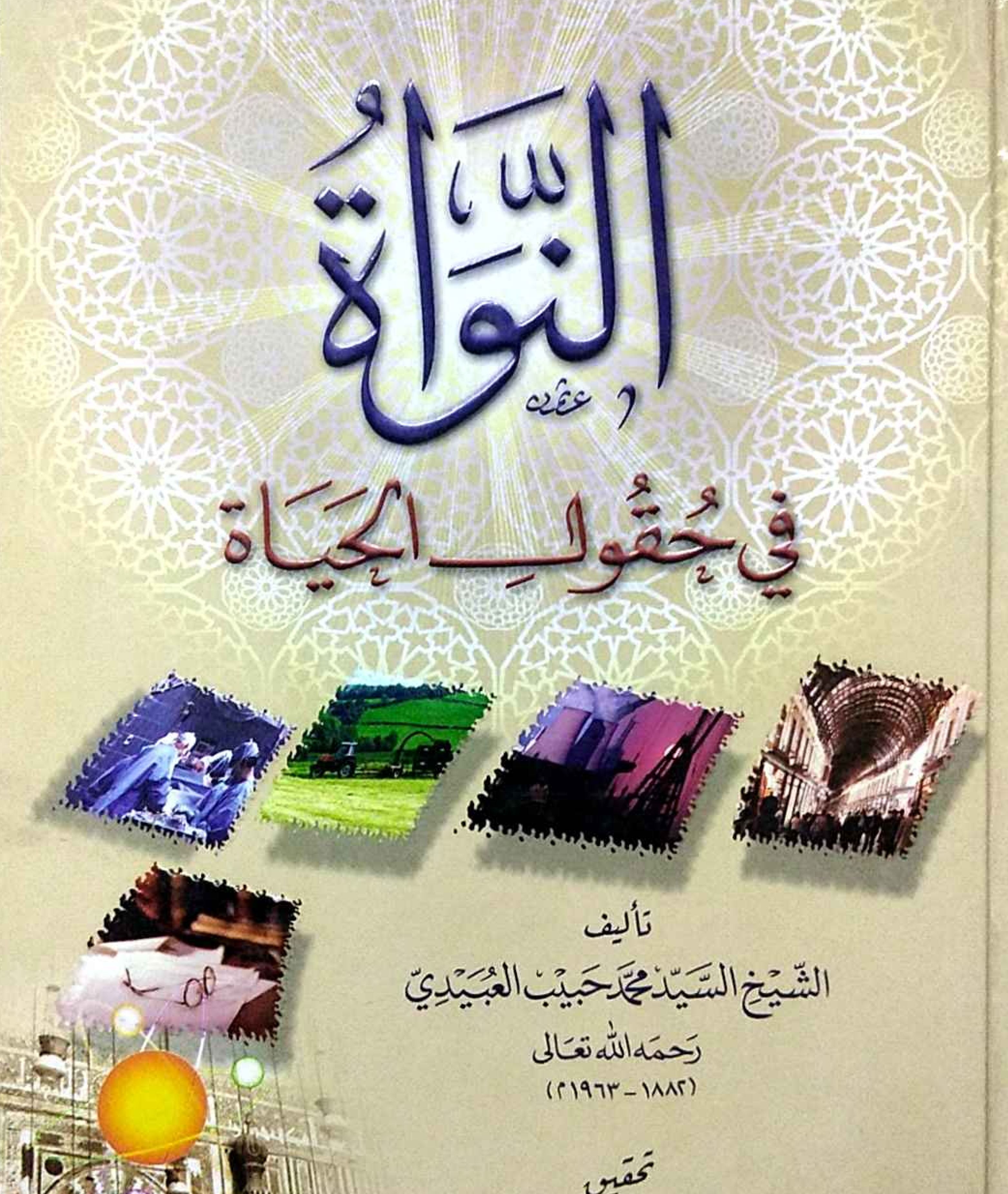


النواة في حقول الحياة

تأليف

الشيخ السيد محمد حبيب العبيدي

رحمه الله تعالى

(١٨٨٢ - ١٩٦٣م)

تحقيق

عبد الوهاب محمود الكحلة

دار المنهاج

النَّوَاةُ

في حُقُولِ الحَيَاةِ



النواة في حقول الحياة

تأليف

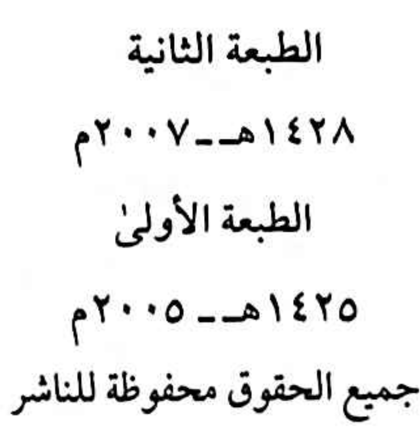
الشيخ السيد محمد حبيب العبيدي
رحمه الله تعالى
(١٨٨٢ - ١٩٦٣هـ)

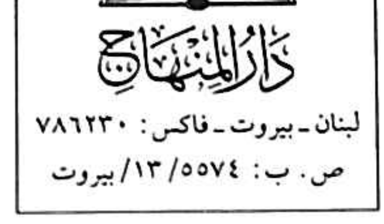
تحقيق

عبد الوهاب محمود الكحلة

دار المنهاج







دار المنهاج

لبنان ـ بيروت ـ فاكس : ٧٨٦٢٣٠

ص . ب : ٥٥٧٤ / ١٣ / بيروت

الطبعة الثانية

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

الطبعة الأولىٰ

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م

دار المنهاج للنشر والتوزيع

لصاحبها عمر سالم باجخيف

وفقه الله تعالىٰ

جدة ـ هاتف رئيسي ٦٣٢٦٦٦٦ ـ فاكس ٦٣٢٠٣٩٢

الإدارة ٦٣١١٧١٠ ـ المكتبة ٦٣٢٢٤٧١

www.alminhaj.com

E-mail: info@alminhaj.com

بين يدي الكتاب

(أ)

لولا أن الأصلَ أولىٰ بتسمية فرعه ، كما أن الجارَ أحقُّ بصقبه . . . لسميت هذا الكتاب المنعوت بـ« النواة » بتسمية أخرىٰ تشفّ عن كنه سموه ، وترفع الستار عن أمجاد محتده ، بيد أَن محبِّره ممن لبس ثوبي التواضع ووأد حظ النفس من الترفع ، وذلك شأن المصلحين ، وسمتُ العباقرة ، وهديُ أولي القرون الخيّرة .

لم يشأ هذا الألمعي العبيدي أن ينحت التسمية من صخر التزكية ، ولا أن يسكب في عنوان الكتاب من روح العظمة العلمية التي تترقرق أمواجها في لهوات يراعته ؛ لأن هذه فلسفة لا يتعشقها إلا المهرولون إلى الشهرة ولو تقاصرت معارفهم عن الوصول إلى أدنى رتب أهل الفضل ، وصاحب « النواة » ليس من هذا الطراز ، ولا يعلق بجبينه غبار التعاظم ، ولقد صدق حين قال : (لا تخدعنك ضخامة الألقاب علىٰ ظهر الكتاب ، فربما كانت من إعلانات التجار وأصحاب الشركات) .

(ب)

ولو كان في كتب القوم محكم ومتشابه . . فإن هذا السفر أولىٰ بأن ينعت بأنه محكم الحِكَم ، لا بل حِكَمُ المحكم ، أفرغ فيه ناسجه تجاربه وأدبه ، وتوجيهه وحسَّه الديني المتمطي ، تشعر به من خلال أسلوبه المتميز يتدفق أسىً وألماً علىٰ ما أحاط بعالمه الإسلامي من تشرذم واختلاف ، ووهن وسوء تدبير ، ولاسيما بعدما غدا جسم الخلافة مقطع الأوصال ، واهن القوىٰ ،

مرتجف الفكر ، فكيف لو عايش كاتبنا ما تصطلي به الآن الأمةُ الإسلامية عموماً والعربية خصوصاً ، والمآسي المفزعة التي تنخر في كيان الشعب العراقي بدون استثناء؟! ويوم أن استمسك المسلمون بالعروة الوثقىٰ ، واعتصموا بالله . . دانت لهم كل الأمم ، وتسلموا مفاتيح كنوز الأرض ، وكما قال المؤلف سقى اللهُ جدثه وابل الرحمات :

سلبوا الأملاك ثوبَيْ عزها دوَّخوا الأقطار في عشرين عاما
كلَّ أرض وطئت أقدامُهم أنبتت عزاً وملكاً واحتشاما

(جـ)

وإني لأعتبر هذا الكتاب من الكنوز الأدبية ، التي ضمت فقه الحكماء ، وفكر النبلاء ، وحصافة أهل التقى ، وإلهام أولي الزهد ، وتوجيهات المصلحين .

إن هذه النعوت مجتمعة لتتراءىٰ أضواؤها في جمله وَكَلِمِه بذلك الأسلوب المعرق في البيان ، المستمد من بنت عدنان ، المتدفق من نهر الفصاحة ، الضارب بجذوره في تخوم البلاغة ، الممتزج بفكر الحكيم ، وخيال الشاعر ، وحكمة الفيلسوف .

إنها مواضيع شتىٰ ، وعناوين متعددة ، ينقش صورَها بريشة الإبداع ، وإبداعُ الموهوبين من المتأدبين نتاج يشنف المسامع ويطرب القلوب ، ويقود الأحاسيس إلىٰ أي جهة شاء ؛ إذ يلوي أعناق المشاعر ليّاً منكراً ، فإذا هي مسحورة بجمال الإبداع وروعة التعبير ، وإن من البيان لسحراً .

(د)

إن هذه الحقول رياض نضرة ، دانية الجنى ، شريفة المحتوى ، فارعة الطول ، مشرقة المحيّا ، نبوية المنهج ، صادقة اللهجة ، متنوعة المقصاد ،

من تمعّن في بنائها وتبيانها . . أدرك أن الغاية الكبرى التي سعى المؤلف لإحرازها هي صلاح أمته وعزتها ، وتلمُّسُ أدوائها وآلامها ، وإيجاد الدواء الناجع لحسم آلامها ، وإراحَتها من أوجاعها ؛ لتتناغَمَ مع الطفرة الحضارية المعاصرة ، وترتدي زيّ العزة ، وحلية الكرامة في سماء المجد .

(هـ)

وإن دارنا **دار المنهاج** لتفخر بإعادة طبع هذا الكنز الثمين ؛ مساهمة منها في نشر لغة الضاد ، ورغبة في تشبع قراء العربية من أساليب أساطين الأدباء ، إن هذه الأساليب المتميزة التي تملأ الروح الذواقة غبطة وعلماً لنفتقد هذه الأيام كتابة ما يدانيها كأنما هرمت الأقلام بتأخر الأزمان ، والأدهى الأمرُ أن جمهرة الشباب لم يعد بينه وبين الكتاب العربي تلك الألفة المعهودة ، بل إن هناك جفاءً بيناً بينهما ، مما أدى إلى ضيق الحوصلة العلمية عند هؤلاء ، حتىٰ ضجَّ أولو الأحلام والنهىٰ من ضحالة الفقه اللغوي عند هؤلاء .

وترىٰ أن نشر مثل هذا الكتاب يعد لبنة في صرح الأسلوب الأدبي ، مياساً في حلل الأناقة والجودة ، في مظهر جذاب ، ومخبرٍ خلاّب ، وحسن تنسيق ، وجمال في فن الطبع ، والله الموفق .

الناشر

مقدمة التحقيق

الحمد لوليِّ الحمد ، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .

(النواة في حقول الحياة) كتاب اخترته لتحقيقه وإعادة نشره بعد ما مضىٰ عليه ما يزيد عن سبعين سنة من طبعته الأولىٰ ، وما اختيار كتاب وتحقيقه وتدقيقه بأقلَّ قيمةً من صنعة مثله ، ولربَّ كتاب مُعادٍ نشرُهُ بمظهر جميل ، وطراز أنيق ، وضبط دقيق هو من موات . . هو أشبه بكتاب جديد ، بله استدراك ما فات الطبعة الأولىٰ ، وقد اخترته وفاءً لما في الذمة من عهد له ولمؤلفه وديوانه .

أما مؤلفه . . فهو شيخنا الجليل السيد محمد حبيب العُبَيْدي (١٨٨٢-١٩٦٣) كان مفتي الموصل ، وقد عاصر أحداث الفترة التي عاشها بمصائبها وويلاتها المتلاحقة ، فكان لها أثرها في نفسه ، وقد أكثر من الأَسفار إلىٰ إسطنبول ومصر وبلاد الشام ، واطلع على المكائد التي تُحاك ضد المسلمين من وراء الستار ، وعز عليه أن يرى العرب متفرقين أشتاتاً يستظلون تحت ظلال المستعمر المتلفع ببرقع الحليف ، يمنح لهم استقلالاً يشف عما وراءه من الذل والعبودية ، فأسف على الإسلام أن تذلَّ حماتُه ، وتلين قناته ، فأحاط كل ذلك بهواجسه وخشيته من سوء المصير ، فراح يوقظ من رقاد الأمة ، ويستنهضها إلى الاتحاد والجهاد ، وكان يبعث بكتابه لينشر ؛ لكي تصل دعواته إلىٰ حيث يرجو ، وكان يأنف من أن يأخذ موافقة من الجهات المسؤولة علىٰ طبع ما يكتبه ، فلا يكاد ينشر منه كراسة أو كراستين وتعلم به الجهات المختصة حتىٰ تمنعه وتصادره ، وبذلك ضاعت أكثر آثاره ، وظل

يجهر بدعوته بكل ما أوتي من وسيلة ، إلا أَنَّ ذلك لم يُرض العدو وهم يرقبونه عن كثب ، فكمنوا له ـ وكان يومذاك في بيروت ـ فقبضوا عليه ، وأخذوه أسيراً إلىٰ معسكرات الاعتقال في مصر ، ولما أفرج عنه وعاد من مُعتقله إلىٰ مَعقِله في بلدته الموصل . . سكن فيها سكون اليائس المغضب ، حتىٰ كانت بوادر الثورة على الإنكليز قد لاحت نذرها في الآفاق ، فأيقظت فيه الحماس ، وأذكت ما خبا من عواطفه وآماله في الاستقلال ، وأثارت في نفسه فكرة قيام خلافة إسلامية جامعة ، ودفعه ذلك إلى الاستجابة لحضور (مؤتمر الخلافة) الذي انعقد في القاهرة عام ١٩٢٦ .

وكان يعرف أن الخلاف في شكل الخلافة قديم ، ولكنه كان يعلل النفس بالآمال ، إلا أن المؤتمر انتهىٰ ولم ينته إلىٰ شيء ، بل انتهىٰ إلىٰ غير شيء ، فخابت في نفسه آماله وأمانيه ، ولكنها غدت منبعاً لآرائه وفلسفته في هذي الحياة ، صبَّها في كتابه هذا (النواة في حقول الحياة) .

وأما ديوانه . . فعهدي به منذ ما يقرب من أربعين عاماً وأنا أجمع شتاته ، وألمُّ فتاته من هنا وهناك ، وما أنسىٰ لا أنسىٰ قصيدته النونية الكبرىٰ ، وهي أشبه بسجلٍّ للحوادث التي تكهن بوقوعها مما أثبتته الأيام علىٰ صفحاتها من بعد موته ، وقد وصفها بأنَّها وديعة الذمة ، ومرآة العبر ، ومحصول العمر ، وثمرة تجاربه في الحياة .

وكان قد نشر أبياتاً منها علىٰ صفحات الجرائد العراقية والمصرية منذ عام ١٩١٣م . زرته يوماً في أخريات حياته فعرض لي من نونيته هذه شيئاً ، وكان قد جعلها تحت وسادته في غرفة نومه ، وسألته أن يمن بها عليَّ لأنسخها وأضمَّها إلىٰ أخواتها من ديوانه الذي جمعته يومذاك ، وكان يعتز بها ويعزُّ بها علىٰ أصحابه ؛ إذ كان يراها لم تصل إلىٰ تمامها وكمالها ، ولولا أدب الزيارة . . لألحفتُ عليه في السؤال ، ولم يكن بيني وبينها إلا ذراع ، وإذن لحفِظتُها من الضياع الذي كنت أخشاه عليها ، وحال بيننا الزمان ، فقد خرجت

من عنده علىٰ أن أعود إليه ، ولكني خرجتُ ولم أعد ، فقد طوَّحت بي الأسفار ، وابتعدت عن الديار ، وتركت الآثار يعلوها الغبار ، ثم علمت بوفاته من بعيد ، واحتضنتُ ما جمعت من ديوانه ؛ إذ لم يزل مخطوطاً لديَّ ، ومرت الأيام ، فطرق سمعي أن ديوانه قيد التحقيق وعلىٰ وشك النشر ، فعجلت لأدرك الفرصة قبل ضياعها ، فأرسلت بالمخطوطة إلىٰ من تولى التحقيق ؛ ليستدرك به ما قد فات من شعره ، وكذلك فعل ، فقد استدرك ما فاته ، وشكر لي هذا المعروف في آخر الملحق من الديوان ، وشعرت بلذة الوفاء بالعهد ، إلا أني كنت أحس أنْ لا يزالَ له في الذمة عهد ، فاخترت إعادة نشر (النواة في حقول الحياة) ، فإنَّ لي مع هذا الكتاب صحبةً تزيدُ عن خمسين سنة ، حيث كنت أحضر مجلساً لشيخ جليل من علماء الموصل ، وكان رجلاً ضريراً يترقب خلو مجلسه فيقدِّم لي كتاب « النواة » فأقرؤه عليه ، فتشربت النفس بأسلوبه وآرائه فأحببته ، وصرت أحتضن الكتاب ، وأضنُّ به على الآخرين خشية الضياع ، وكنتُ أختاره من بين الأسفار التي أصطحبُها في أسفاري ، واصطحبته إلى اليمن فإذا هو نادر ، لم أسمع بأحد سمع به في هذي البلاد ، فرأيت الخيرَ في إعادة نشره ، وما تحقيقه وتدقيقه بأقلَّ قيمة من صنعة مثله ، وقد بذلت الجهد في تقويم رسمه وهفوات طبعه ، وتوثيق نصوصه مما ورد فيه من الآيات وضبط المفردات التي توهم الناظر فيه ، وأرجو أن أكون قد وفَّيت بعض ما في الذمة من عهد ، وأسألُ المولىٰ عز وجل إتمامَ العمل ، وقبول خالص العمل ، ثم الحمد لله .

عبد الوهاب محمود الكحلة

مقدمة المؤلف

الحَمْدُ للهِ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على النَّبيِّ العَرَبيِّ ، سيِّدنا ومَوْلانا مُحَمَّدِ بْنِ عبْدِ اللهِ ، صَفْوةِ الخَلْقِ ، وخاتَمِ الأَنْبياءِ ، وعلىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ ، السَّادَةِ القادةِ ، أَئِمَّةِ الهُدَى ، وأَبْطَالِ المَغَامِعِ .

ابتَسَمَتْ عن ثغرِ الرَّبيعِ سَنَةُ تِسْعٍ وثلاثين من القَرْنِ الرَّابعَ عَشَرَ لِلهجْرةِ ، وفَوْقَ بِساطهِ الأَخْضرِ ، وتَحتَ سمائهِ الزَّرْقَاءِ شرقيَّ (دجلةَ) خَيْمةٌ بيضاءُ ، في بِطانةٍ حمراءَ ، تحكي مِمَّنْ أَظَلَّتْ جبيناً زاهِياً ، وقَلباً دامِياً ، ومِن حولهما جمالُ الطَّبيعةِ في ابتساماتِ أَزهارِها ، وتغاريدِ أَطيارِها ، والمَرْبَعُ خِلْوٌ ، والصَّمْتُ عَميقٌ ، والنَّسيمُ طَلْقٌ .

قد استبدَلْتُ هذا بِيَراعِ جَفْوَتُهُ ، وكتابِ هَجَرْتُهُ ، وسِجِلٍّ طويتُهُ .

لماذا . . ؟

لأَنَّ الطَّبيبَ هكذا أَراد .

وجاءت إِرادةُ الطَّبيب لجُرْحِ السِّياسةِ مَرْهماً .

هناك علىٰ ذاكَ البِساط في تلكَ الحُقول خلالَ هاتيكَ الأَزْهار نَبَتَت (النَّواةُ في حقول الحياة) .

هي سَوَانِحُ وبَوَارِحُ ، وشَوَارِدُ وأَوَابِدُ ، كانَ يُقَيِّدُهَا وَحيُ الفِكْرِ مُتنَزِّلاً مِن سماءِ الخيالِ مِن دونِ تَحَدٍّ وعلىٰ غَيْرِ عَمْدٍ .

حتَّىٰ إِذا شابَتْ لِمَّةُ الرَّبيع ، وانطوىٰ بِساطُه السُّنْدُسِيُّ ، وذوىٰ زَهْرُهُ النَّضِيرُ . طَوَيْتُ مَا نَشَرْتُ ، وذكَرْتُ ما يُسمِّيهِ الأَديبُ (مراعاةَ النَّظير) .

بعدَ ثلاثةِ أَعوام تمثَّلتِ الرِّوايةُ غَرْبيَّ (دجلة) بكلِّ ما حَوَتْ من فُصول أَو

فُصول ، فلَعَنْتُ السِّنين فنبشْتُ تُرابَ النِّسيان عن (النَّواة) أتَّخذُ منها أنيسَ وَحْدَةٍ ، ومَنْقعَ غُلَّةٍ ، وقُرَّةَ عينٍ .

والآنَ قد جمعْتُ مِن شَمْلِها الشَّتيتِ ما عسىٰ أَنْ يكونَ باقةَ زَهْرٍ يُقدِّمُها النَّشْءُ الجديدُ في الحاضرِ إلى النَّشْءِ السَّعيدِ في القَابِل إذا نبتَتْ من ربيعِ شَبابهِ في حُقولٍ يَقظَةٍ وانتباهٍ .

إنَّ أَقْصَىٰ أمانيَّ أَنْ لا تَخيسَ (النَّواةُ في حقولِ الحيَاةِ) وما توفيقي إلاَّ باللهِ .

وإمَّا خانَ التَّأْليفُ حُسنَ التَّنسيقِ والتَّبويبِ . . فكَذلِكَ كانتْ أَزهارُ الطَّبيعةِ علىٰ بِساطها الزَّبرجَديِّ غيرَ متناسبةِ الوَضْع والتَّرتيبِ ، كأنَّها شَعْرٌ منثورٌ ، فَشَقائِقُ في جَنْبِ أُقْحُوان ، وخُزامَىٰ إلى جانبِ مَنْثور .

مِن أَفضلِ بَواعِثِ الحَياةِ لأَزهارِ الرَّبيعِ نَسَماتُ الأَسْحارِ ، وقطَراتُ النَّدَىٰ ، وابْتِساماتُ ذُكاءَ .

واللهَ أَسأَلُ أَن يُمثِّلَهُنَّ عهدُ صاحبِ الجَلالةِ مَلِكِ العِراقِ (فَيْصَلٍ) الأوَّل ، وفَّق اللهُ الشَّعبَ الغيورَ وإيَّاه لإِحياءِ مَجْدِ العَرَبِ والإسلامِ في عَاصمةِ المَنْصورِ دارِ السَّلامِ .

❋ ❋ ❋

الحقل الأول
الكائنات ـ ومبدع الكائنات

الحقل الأول

الكائنات ـ ومبدع الكائنات

* * *

تعالى الله المعبود ، واجب الوجود

الوُجودُ بين واجبٍ وممتنعٍ ومُمْكن .

فالواجبُ : ما اقتضَتْ ذاتُه وُجودَه .

والممتنع : ما اقتضت ذاتُه عَدَمَه .

والممكن : ما خلا من هذا الاقْتِضاء وذاك .

إنَّ العللَ الأَرْبَعَ[1] استلزمَتْ وجودَ مَبْدأٍ فَيَّاضٍ ، ولئلا يُفْضِيَ الأَمْرُ إلى

---

(١) العلل الأربع هي : المادة ، والصورة ، والفاعلية ، والغائية .

وكل (موجود) لا يخلو عن وجودها ، كالسرير مثلاً : فإن (مادته) الخشب والمسمار .

و(صورته) تلك الهيئة التي تظهر فيه بعد صنع النجار .

والنجار هو العلة (الفاعلية) التي لولاها لما اكتسبت (المادة) تلك (الصورة) .

والعلة (الغائية) من وجود السرير هي الجلوس عليه ، وهكذا العجلة ودواليبها ، والإبرة والثوب مثلاً .

أجَلْ ؛ حتَّى الإبرةُ ما اكتسبت مادتُها تلك (الصورة) فكانت إبرةً إلاَّ بصُنعِ صانعٍ ، وماذا عسىٰ أن يكون شأن الإبرة بالنسبة إلىٰ عظمة الأكوان ، أو بدائع التكوين ؟!

فإذا ما تعذَّر وجودُ الإبرة من غير صانعٍ . . فهل من المنطق أن يتيسَّر من دونه ما نشهده من جلائل التكوين ، ونظامِ الكائنات البديع ؟ أم نحكم على الأمور بمبلغِ البصر لا البصيرة ، فنقرُّ بضرورة العلَّة (الفاعلية) لتكوين الإبرة ، ونعترف بوجود الصانع لها ؛ لأننا نشاهد ذلك بأبصارنا ، وننكرُ أن يكون لهذه الكائناتِ البديعةِ الآثار صانعٌ لعجز أبصارنا عن إدراكه ؟ =

المُحال من (دَوْرٍ) أو (تَسَلْسُل) . . وجبَ أن يكونَ ذاتُه اقتضَتْ وُجودَه ، وأن يكونَ قديماً .

ومن هنا وهناك قلنا في الشَّريكِ : اقتضتْ ذاتُه عدمَه ، وإلاَّ . . آلَ الأَمرُ إلىٰ مُحالٍ آخرَ ، إلىٰ جمعِ النَّقيضَينِ ؛ لأنَّ القِدَمَ لا يكونُ نصيبَ اثنين .

الإِمكان

ـ تختلفُ مراتبُ الإِمكان باختلافِ الهِمَمِ والأَفكار .

ـ فرُبَّ (ممكنٍ عِندَ بعيدِ الهِمَّةِ) (مُحالٌ عِند قَصيرِها) .

ـ ورُبَّ (مُحالٍ عند بسيط الفِكرِ) (مُمكنٌ عِند واسعِ الخيالِ) .

ـ أَما أَصل الممكن : فهو ما استوىٰ وجودُه وعدمُه وكان مَظْهَراً للعللِ الأَربعِ .

لا شَيْءَ أَوْسَعُ مِن دَائرةِ الإِمكانِ لولاَ عواملُ حقٍّ وباطلٍ غادَرْنها أَضْيَقُ مِن مَفْحَصِ قَطاةٍ .

لاَ تنسَ ما فعلَتْ شَرائعُ السَّماءِ ، ودَساتِيرُ العُقلاءِ ، وبِدَعُ ذوِي الأَهواءِ ،

= وحينئذٍ نقول : فأين تبقىٰ دلالة الأثر على المؤثِّر ؟

إنَّا لنستثير أعماقَ الثرىٰ فنرىٰ من الآثارِ القديمةِ أحجاراً مكتوبةً ، وتماثيلَ منصوبةً ، وأنقاضَ صُروحٍ مندرسةٍ ، فنحكم فوراً بأنها آثارُ أقوامٍ غابرين ، ولم تشهد أبصارُنا كاتبَ الأحجارِ ، ولا ناصبَ التَّماثيلِ ، ولا بانيَ الصُّروح ، وإنما تهدينا إلىٰ ذلك بصائرُنا ، ونقضي بصحَّةِ ذلك الاستدلال من طريق المنطق .

فليتَ شعري إنَّ المنطق الذي وسع معنا الاستدلال علىٰ وجود (البَنَّاء) بأنقاض الصَّرْح المندرس من قبيل دلالة الأثر على المؤثِّر ما بالُه يضيقُ بنا ذرعاً عن الاستدلال ببدائع الكائنات علىٰ وجود مبدعها من ذاك القبيل ؟! مع أنَّه في الثَّانيةِ أوضحُ بياناً ، وأقوىٰ برهاناً . وهذا معنىٰ قولهم :

وفـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــة ... تـــدلُّ علـــى أنَّـــه واحـــد

وخُرافاتُ الجُهلاءِ ، أَربعةُ عَواملَ هدمَتْ أَربعةَ أَركانِ الإِمكانِ ، وعادَتْ قيوداً في أَربعةِ أَشلاءِ الإِنسانِ ، كُلَّما هَدَمَ عاملٌ ركناً . . غلَّ شِلواً حتَّىٰ كان كثيرٌ من النَّاسِ حَجَراً مُلْقاةً في مَفْحَصِ قَطاةٍ ، فَمزِّقْ سِتارَ الوَهْمِ ، وحطِّمْ بعضَ القُيودِ ، وقُلْ مَعي إِنْ شئتَ :

أَدِينُ بما أَوحَى الإِلٰه وما قضَىٰ ... بهِ العَقْلُ ممَّا لم يكنْ أَمْرُه إِمرا
وما سَنَّتِ الأَهْواءُ عِندِيَ بِدْعةٌ ... وما وَضعَ الجُهالُ أَعرِفهُ نُكرا[1]

يقولون : (ليس في الإِمكان أَبدعُ مما كانَ) .

ولعلَّهُم مُخْطِئون فيما يقولون : إِنَّ صَدْرَ الغَيْبِ رَحْبٌ ، وقُدْرَةَ اللهِ لا تَنْفَدُ ، واللهُ أَعلمُ بما سَيَكون .

المُحال

المُحال : ما رآهُ العَقلُ كذَلكَ ، كاجتماعِ (النَّقيضَيْنِ) وارتفاعهما ، والجَمْعِ بَيْنَ (الضِّدَّينِ) ، وما سِوىٰ أَمثالِ ذلكَ فإِنَّهُ (مُمْكِنٌ) ، فَلا يَكْبَحَنَّ مِن جِماحِ عَزْمِكَ وَهْمٌ فِي مَيادينِ العَمَلِ ، ومُعْتَرَكِ الحياةِ ، إِمَّا اقْتَعَدْتَ غَارباً . . فذَلِك منْ مَخايلِ الجُبَناءِ أَو الجُهَلاءِ .

مَن رجا (المُستحِيلَ) . . فَلْيَتَّهِمْ عَقْلَهُ .

ومن أَعْجَزَهُ (المُمْكِنُ) . . فَلْيَتَّهِمْ عَزْمَهُ (إِلاَّ مَا تَقْضِي بهِ الحَوائقُ)[2] .

كُلُّ ما خالفَ العادةَ عَدَّهُ الجَاهلُ مُحالاً ، (فما أَكثرَ المُسْتَحيلاتِ عندَ أُسَراءِ العَاداتِ !) .

---

(١) من قصيدة للمؤلف قد ضاع أكثر أبياتها ، ينظر ديوانه « ذكرىٰ حبيب » (ص٩٧) .

(٢) الحوائق : لعلها جمع حيق ، وهو : ما يشتمل على الإنسان من مكروه ، والمعنىٰ : الغلبة والقهر .

العدم والوجود

(العَدَمُ) : حَلْقَةٌ مُفْرَغَةٌ ، إليها تَنتهي سِلْسِلَةُ الوُجودِ .

إذا خمدَتْ جَمْرَةُ (الوُجود) . . استحالَتْ رَماداً ، كَذلِك أيُّما مَوْجودٍ نَفَذَ سَهْمُه مِن قَوْسِ العَدَم فإنما يَعودُ إلىٰ مَنْزَعِهِ بصورةٍ أُخرىٰ ، ولكِنَّه لا يكُونُ عَدَماً مَحْضاً .

رُبَّ (موجودٍ) أثقَلَ كَاهِلَه حَمْلُ الوجود ، فحَنَّ إلى العَدَم ، إلىٰ موطنِهِ الأَوَّلِ ، (وما حَمْلُ الوُجودِ بخَفِيفٍ!) .

مَنْ ظَنَّ هذا الوُجودَ خالِياً عَنْ حِكمةِ الإيجادِ . . فقَدْ حَقَّرَ عَظيماً ، واستَصْغَرَ جَسيماً .

لَـوْ مَلَكْـتُ الخِيـارَ لاختَـرْتُ أنِّـي   لَمْ أكُنْ قَدْ خُلِقْتُ أو لَسْتُ أعْقِل

إذا حَدَّثوكَ عَنْ بَحرٍ لا يَجِفُّ ماؤهُ ، ولا يُدرَكُ قَعْرُهُ ، ولا يَحُدُّهُ ساحِلٌ . . فقُلْ : (ذاكَ العَدَمُ) .

وإذا حدَّثوكَ عَنْ مِثْلِهِ . . فقُلْ : (ذاكَ الوُجودُ) ، ثم اتلُ قولَه تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ .

قُلْ لمنْ شبَّه الوُجودَ بالعَجَلَةِ ذاتِ الدَّوالِيبِ : لا تَجعلْ بناءَ الكَائناتِ أقلَّ مِن صُنْعِ العَجَلةِ ، وقُلْ في المُشَبَّهِ مَا قُلتَ في المشبَّهِ بهِ ، إنَّ كِلَيْهِما مُنطَوٍ على العِلَلِ الأَرْبَعِ .

إنَّ هـذا الـوُجـودَ أعظـمُ شَـأْنـاً   أنْ يُعَـرَّىٰ عَـنْ حِكْمَـةِ الإيجـادِ

الكائنات

ـ عَجبتُ لِمَنْ يَجْهَلُ كِتاباً هُوَ بَعْضُ سُطورِهِ ، ذَلك مَثَلُنا ومَثَلُ الكَائناتِ .

ـ الكَائناتُ كِتابٌ مُقَدَّسٌ ، مِلْؤهُ رُموزٌ وأَلغازٌ ، وإنمَا يفقهُهُ أُولُو الأَلْبابِ .

ـ كُلُّ ما خَطَّتْ يَمينٌ مِن كتابٍ لم يَخرُجْ عَن كَونِهِ فَصْلاً مِن كتابِ الكَائناتِ .

ـ ومن الغبَاوةِ أن يَمَسَّنا طائِفُ الجهْلِ وَأَمامَنا هذَا الكِتابُ العظيمُ .

ـ من الغَباوةِ والغُرورِ إذا خَيَّلَتْ إلَيْنَا أَنْفُسُنا أنا قد أَنهينَا درسَ كتابِ الكَائناتِ ، إننَا لم نُنه بعدُ حروفَ هِجائِهِ .

ـ كلُّ ذَرَّةٍ مِن هذِه الكَائناتِ لِسانُ خَطيبٍ مِصْقَعٍ ، أَو مُفكِّرٍ حَكيمٍ ، وناقِدٍ بصيرٍ ، فكمْ عَلِمْنا من كلِّ ذلكَ ؟! وكمْ جَهِلْنا ؟!

ـ لوْلا أَنَّ أَبْصارَنا قد اعْتادَتْ مَشْهَدَ نِظام الكَائناتِ قَبلَ أَنْ يكونَ لَنا مِن البَصائرِ ما يُؤَهِّلُنا لإِكبارِ ذاكَ المَشْهَدِ الرَّائع ، والنِّظام البَديعِ . . لَنالَنَا مِن الدَّهْشَةِ مِنْهما ما تَجْمُدُ مَعهُ القَرائحُ ، وتَخْمُدُ جَمْرةُ التَّصوُّر ، إكباراً للأَمْرِ وإِعْظاماً .

ـ لَو لَم تكنِ الكَائناتُ كتابَ نُورٍ وهُدىً . . لَما أَكْثَرَ كتابُ اللهِ من شَحْذِ غِرارِ النَّظَرِ في ملكوتِ السَّماواتِ والأَرْضِ ، وحَثِّ مَطايا الفكْرِ في هاتِيكَ المَجاهل ، ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ .

وفيهِ ممَّا يَصْدُرُ عن مِثل وِرْدِها ما يُعَدُّ سَبْعَ مئةٍ وخمسينَ آيةً[(1)] .

---

(١) والعهدة في هذا على العلامة الكبير الأخ في الله طنطاوي جوهري ، أفادنيه خلال بحث بيننا (حلو المذاق ومره ، في داء المسلم ودوائه) وذلك في صفر سنة (١٣٤٥هـ) إذ كنتُ مصطافاً في الإسكندرية بعد عودتي من مؤتمر الخلافة المنعقد في العاشر من ذي القعدة سنة (١٣٤٤هـ) في القاهرة ، والذي دعيتُ إليه فحضرته مندوباً عن العراق من قبل وزارة الأوقاف العراقية .

ولو لم يكن في سفري هذا غيرُ التَّعرُّفِ بذلك الدِّماغ الممتلىء تفكيراً ، والقلب الطافح غيرةً وحميَّةً . . لكفىٰ بها غنيمةً .

=

العوالم

- العَوالمُ آثارُ قُدْرةِ اللهِ ، وقُدْرَةُ اللهِ لا تَقِفُ عِندَ حَدٍّ ، فكَذلكَ آثارهُ .

- إذا ظَننتَ نِطاقَ الإمكانِ مَحدوداً . . فَقَدْ نَظَرْتَ إليهِ بمرآةِ فِكْرِكَ ، (إنَّ في خِزانةِ التَّكْوينِ عَوالمَ شَتَّىٰ وبدائِعَ أُخرىٰ وراءَ ما تقعُ عَلَيهِ حَواسُّك ، ويتصوَّرُه وَهْمُك) .

- ما تَعَدَّدَتِ العَوالمُ إلا لاختلاف ما خَصَّتْهُ فيهنَّ القُوَّةُ الفاطِرةُ من بدائعِ التَّكوينِ ، فَلا تُنْكِرْ إذا سَمِعْتَ عن عالَمٍ ما يخالفُ خَصائصَ عالَمك ، تَتَّخِذْ عالَمكَ مِقياساً لِما سِواهُ ، فربَّما كانَ قِياساً معَ الفارِقِ .

- اعتبرْ بالأَسْماكِ الَّتي تعيشُ في الماءِ ، وتموتُ في الهَواءِ ، علىٰ عكسِ ما أَنْتَ عَليهِ ، فلَعلَّك كنتَ تنكرُ ذلكَ لَو لَم يكنْ عالَمُ الماءِ مُجاوراً لعالَمِ الهوَاءِ ، تشهدُه بِعَيْنَيْ رأسِك ، أَلا وإِنَّ مُنْكِرَ أَخْبارِ البَعْثِ وأَحوالِ الآخرةِ أولىٰ بهَذا الِاعتبارِ .

يـــا خليلـــيَّ والعَـــوالـــمُ شتَّـــىٰ	ليت شِعري من ذا الَّذي أَحْصاها
رُبَّ شمسٍ من فوقِ رأسكَ تجرِي	تحتَ رِجليْكَ قدْ غَدا مَجْراها[1]

= وقد قرأ لي شيئاً من تفسيره ، واستأذنني في تعليقِ شرحٍ على (النواة) يفصِّل مجمله ، ويكشف عن رموزه ، فشكرتُ له عنايته ، وإذا سُقِيَتْ هذه (النواة) بمداد يراعه . . فحدِّث عن عَمَّتِنا النخلةِ ما شئت من نَضْرَةٍ ورُواءٍ وفروعٍ باسقاتٍ تساقط عليك رطباً جنياً .

(١) من قصيدة للمؤلف ، وقد آثرنا إثباتها هنا بتمامها في هذا الحقل لما بينهما من المناسبة التامة :

هـــي دار تـــدور فينـــا رحـــاهـــا	كيـف يـرجى الخلاص من بُـرَحـاها
إنمـــا هـــذه الحيـــاة صـــروف	ألبستنـــا أيـــدي الغـــرور كســـاهـــا
كـــلُّ عيـــشٍ إلـــىٰ نفـــاد وإن طـــا	ل كمـــا يصحـــب الجفـــونَ كَـــراهـــا
صـــاحِ جنِّـــب هـــذي المضـــاجـــع جنبـــاً	ليـــس يقـــوىٰ تجـــافيـــاً عـــن جَفـــاهـــا
وتيقـــظْ مـــن رَقـــدةِ الجهـــلِ حينـــاً	أتـــرَىٰ مقلـــةً تـــودُّ عَمـــاهـــا=

الطَّبيعة والنَّواميس

ـ إنَّ لِلطَّبيعةِ نِظاماً ، وإنَّ للهِ في سَيْرِها أَحكاماً ، فاخْضَعْ لأَحْكامِ اللهِ ولا تخلَّ النِّظام .

ـ إنَّ في قولهِ تَعالىٰ : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ ، وقولهِ : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ ما يوقظ الأَفكارَ لحلِّ مُشكلةِ القَدَرِ لِقومٍ يتَدبَّرونَ .

ـ ما في الفَوْضَىٰ صَلاحٌ ، فكان شأْنُ الخليقةِ التَّقْييدَ ، وللهِ حَضيرةُ الإِطلاقِ ، وتلكَ القُيودُ تُسمَّىٰ بالنَّواميسِ .

ـ الطَّبيعةُ لا تخطِىءُ ، وإِنَّما يأْتِي الخطأُ من وِجْهة إِخلالِنا بنظامِها .

استودَعَ اللهُ الطَّبيعةَ أَسراراً ، فإِذا أَفشَىٰ إِليك بعضَ أَسرارها . . فقد أَدلىٰ بالحُجَّةِ عَلَيْك لا لَك ، فاحذرْ مِن تَدْليسِ إِليك ، أَو تلبيسِ عَلَيْك .

ـ ما أَشبهَ الطَّبيعةَ والنَّواميسَ بالسَّفينةِ وآلاتِها ، ولكنْ ما وُجِدَتْ مِن غيرِ صانع ، ولا يستَقيمُ سَيْرُها من دُونِ رُبَّانٍ ، ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

= إنمــا الكـــائنـــاتُ أثقـــال هِيـــمِ ۝ ابتـــلاء حـــلَّ القضـــاء عُـــراهـــا
كـــلُّ مـــا فـــي الـــوجـــود ممـــا تـــراه ۝ عِبـــرٌ تستفـــزُّ طـــرفـــاً رعـــاهـــا
يـــا خليلـــيَّ والعـــوالـــمُ شتَّـــىٰ ۝ ليت شعـري مـن ذا الـذي أحصـاهـا
قلِّـب الطـرف أعمـلِ الفكـر مـن أو ۝ ج الثـريـا إلـىٰ حضيـض ثـراهـا
دون هـذا النظـام مـن سـاحـة الأو ۝ هـام مـا لـم تعلـق بـه كفَّـاهـا
فتـق رتـق بـه يـد الـدهـر نـالـت ۝ رتـق فتـق فـي كـل أمـر عنـاهـا
ربَّ شمـس مـن فـوق رأسـك تجـري ۝ تحـت رجليـك قـد غـدا مجـراهـا
مـــا أرى الأرضَ والسمـــاوات إلا ۝ قـــائمـــاتِ بمـــن أقـــام بِنـــاهـــا
مـــا تـــراهـــا مسخـــراتِ وفـــي الأر ۝ ضِ نسيـجٌ مـن غـزل كـفّ سمـاهـا
عـــزَّ صنـــعُ الأفـــلاكِ عـــن دَرَك الإد ۝ راك فهمـاً فكيـف مَـنْ قـد بـراهـا

ينظر ديوانه « ذكرىٰ حبيب » (ص٢٠٧) .

ـ لَولا النَّواميسُ . . لأَعْوَزَ الضَّابطَ الَّذي لا يَتِمُّ الاستِنباطُ بدونهِ ، فبقيتْ مجهولةً أَسرارُ الكَائناتِ .

ـ ضَلَّ اثنانِ ، خيرٌ مِنهُما ثَالثُهما ، الأَوَّلُ لا يُريدُ أَنْ يعرفَ النَّواميسَ ، والثَّاني يُريدُ أنْ لا يَعْرِفَ سِواها ، (فيا قاتلَ اللهُ الإِفراطَ والتَّفريطَ !) .

المواليد الثَّلاثة

الجماد ـ النَّبات ـ الحيوان

ـ شاءَ اللهُ فكانَ كُلُّ ما في الإِمكانِ ، مِن ذلكَ المواليدُ الثَّلاثةُ : (الجماد ، والنبات ، والحيوان) أُصولٌ يرجعُ إِليها كلُّ ما لديْنا من الفُروعِ ، هذَا مبلَغُ عالِمنا مِن العِلْمِ ، ولَعَلَّ في عَوالمَ أُخرىٰ أُصولاً أُخرىٰ .

ـ تَحْقِرُ (الجَمادَ) وهو مادة الحياة ، منه نَبْدأُ ، وإِليهِ نَعودُ ، فتعالَى اللهُ مُبْدعُ الكَائناتِ .

ـ تَختلفُ الفواعِلُ على (النَّباتِ) ، فنراهُ بَيْنَ نَضْرةٍ وذُبولٍ ، ما أَشبهَهُما بالكآبةِ والنَّشاطِ في (الحيوانِ) مُنْفَعِلاً عن بواعثِهما ، ثم نزوي الإِحساسَ عنِ النَّباتِ ، فلا تأْخذُنا به رأْفةٌ ، ولا نُبالي بمشهدِ هاتيكَ الانفعالاتِ .

ـ ما أَدري لَعَلَّ الإِحساسَ علىٰ ضُروبٍ ، ولَعَلَّ الجَذْبَ المِغْناطيسيَّ نتيجةُ ضَرْبٍ من الإِحساسِ في (الجمادِ) .

ـ مَهَّدَ اللهُ سُبُلَ السَّعادةِ للحيوانِ في النَّباتِ والجمادِ ، فضَلَّ سَبيلَ الاستِفادةِ مِنهُما كثيرٌ من بَني الإِنسانِ .

ـ إِنَّ الإِنسانَ الَّذي لا يستفيدُ مِن الجَمادِ أَحطُّ مَرْتبةً من الجَمادِ .

ـ يتلو المسلمُ فيما أُنزِلَ علىٰ نبيِّهِ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ، ويَرىٰ فِيما استَنبطَ رجالُ دينِه مِن هذِه الآيةِ : أَنَّ الأَصلَ في الأَشياءِ الإِباحةُ ، ثُم يَقِفُ مكتوفَ الأَيْدي تُجاهَ ما أَوْدَعَته (المَواليدُ الثَّلاثةُ)

من روائعِ الأسْرارِ ، وبدائعِ الآثارِ ، حتَّىٰ إذا اسْتُبيحَ شيءٌ مِن هذا الحِمَىٰ ، وطَبَعَ لهُ أَعداؤُه القيودَ والأَغلالَ . . لوَىٰ عُنُق الأَسيرِ ، وتلفَّتَ نحوَها عن محاجِرِ المُعْجَبِ المَفْتونِ ، والعاجزِ المحْرومِ ، كَأَنَّمَا قَدْ خُلِقَتْ لغيرِهِ ، أَو هي مُحرَّمةٌ عليهِ .

ـ فليتَ شِعري متىٰ يَغارُ المُسْلِمُ لنفسه فيُغيرَ علىٰ حِمَى الحديدِ والبُخارِ والكهْرباءِ والكِيمياءِ ، ويُحطِّمَ الأغلالَ ، ويَفُكَّ عنهُ القيودَ ؟!

ـ في (المواليدِ الثَّلاثةِ) مَصابيحُ عِلْم تَهْدي إلىٰ نعيمِ الدَّارينِ ، وأَجدرُ النَّاسِ بأَن يَخْشَى اللهَ مَنْ مَشَىٰ علىٰ ضوءِ هاتيكَ المصابيحِ .

ـ إن كنتَ في رَيْبٍ مِن هذهِ الحقيقةِ الزَّهْراءِ . . فتدبَّرْ قولَ فاطرِ الأَرضِ والسَّماءِ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

العناصر الأَربعة

التُّراب ـ الماء ـ النَّار ـ الهواء

ـ يَطْعَنُ المتأَخِّرونَ في قولِ المتقدِّمينَ : (العناصِرُ أَرْبَعةٌ : التُّرابُ ، والماءُ ، والنَّارُ ، والهواءُ) ، وحجَّتُهم : أَنها مركَّباتٌ لا بَسائِطُ ، ولعلَّ الخلافَ لفظيٌّ .

إن مدارَ البحثِ : أَنها عناصِرُ لِغَيْرِها في عالمِ الكَونِ والفَسادِ ، والأَمرُ كذلكَ ، لا أَنها بسائطُ أَو مُركَّباتٌ ، فالخلافُ واقعٌ من اختلافِ وِجْهةِ النَّظرِ ، ولَوْ تَفاهَما . . لاتَّفقَا .

ـ تعالَىٰ مُبدعُ الكَائناتِ كيف جعلَ العناصرَ مُتناسبةً مُتناسقةً في تفاوُتِ الدَّرجاتِ ، أَشدُّها احْتياجاً أَكثرُها بَذْلاً .

ـ إنَّ الإنسانَ إلى (الهواءِ) أَشدُّ احتياجاً منهُ إلى (الماءِ) ، فتراهُ يأْتيهِ الهواءُ مباشرةً وعفواً مِن غيرِ ثمنٍ ، ومِن دُونِ عَناءٍ ، ولكنَّ الماءَ ربَّما كلَّفَهُ أُجرةَ النَّقلِ وجُهدَ المَسْعَىٰ ، ومثْلُ ذلكَ النَّارُ والتُّرابُ ، علىٰ أَنَّ الأَربعةَ كلَّها سَهْلَةُ التَّناوُلِ ، مبذولةٌ علىٰ طَرَفِ الثُّمامِ .

ـ لا تحْقِرِ (التُّرابَ) ، به قوامُك ، ومنه خُلِقْتَ ، وإليه تعود .

ـ لا تنسَ فضلَ (الماءِ) ، يُبَرِّدُ غُلَّتَك شُرباً ، ويُعينُك علَى الأَسىٰ دمْعاً ، ويُنَقِّيك مِنَ الأَدْرَانِ طَهوراً ، ويدفَع عنكَ الأَذىٰ خَبيثاً ، ثُم لا حَياةَ لكَ مِن دُونهِ ، ولله ولِكلمتهِ المَثَلُ الأَعْلىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ .

ـ من وجهة الهواءِ أَتى الخلافُ في الخَلاءِ والمَلاءِ ، ولعلَّ في هذَا الاختِلافِ شَيئاً مِن قِصَرِ النَّظَر ، بأَيِّ حُجَّةٍ نَقيسُ ما قَرُبَ مِنْ كُرةِ القَمَرِ مثلاً من طبقاتِ الجوِّ علىٰ ما قَرُب مِنهُنَّ من كُرةِ الأَرضِ ؟!

ـ إنَّ فِي حياةِ البحارِ ما يَجْدُرُ أَنْ يُوقِظَ الأَفْكارَ إلى الحَذَرِ منَ الأَقيسةِ الفارقةِ ، علىٰ أَنَّ المتأَخِّرينَ جعلُوا للهواءِ حدّاً مَحدُوداً ، واعتَبرُوا المَلاءَ فِيما وراءَهُ لما دَعوهُ أَثيراً .

ـ إذا كانتِ الأَرضُ مُنفصلةً مِن الشَّمسِ ، ثُم تَداولتْها يدُ التَّطوُّرِ حتَّىٰ لَم يبقَ ممَّا يَدُلُّ علىٰ أَصلِها غيرُ البَراكينِ ، كَما يقولُ بعضُ عُلَماءِ الأَرضِ ، وإذا كانتِ السَّماءُ في الأَصلِ دُخاناً حتَّى استَوىٰ إليْها مُبدعُ الكَائناتِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سماواتٍ ، كَما وردَ في أَخبارِ السَّماءِ . . فقلْ في النَّارِ ما شِئْتَ إلاَّ ما قالَتِ المَجوسُ : (حَسْبُ النَّارِ أَنَّها أُمُّ الحَرارةِ ، والحرارةُ أُمُّ الحَياةِ) .

ـ يتبخَّرُ الماءُ فيكونُ هواءً ، ويَتكاثفُ الهواءُ فيستَحيلُ ماءً ، وتخمدُ النَّارُ فتَنْقلبُ تُراباً ، ويُوقَدُ علَى الحِجارةِ فتعودُ ناراً ، ثُم نُشاهِدُ كلَّ ذلكَ من انقِلابِ الأَعيانِ إلىٰ أَضدادِها ، ولا نَتَّخِذُ منهُ مِقياساً لِما عَسىٰ أَنْ يكونَ أَقلَّ منهُ غرابةً ممَّا يُحَدِّثُ به المُشْتَرِعون عَنْ نَشْأَةِ الملَكوتِ ، فنرتابُ فِيما شذَّ عن عَالَمِ

الشُّهودِ ، [مِمَّا] لا نلمَسهُ بالأَيْدي ، ولا نُبصِرهُ بالعُيونِ ، (أَلَيْسَ هذَا خَطَلاً في الرَّأْيِ ، أَو ضِيقاً في دَائرةِ الفِكرِ ؟)

الأَرض

ـ يقولون : (إِنَّ الأَرضَ مُنفصِلةٌ مِنَ الشَّمسِ) .

ـ ولا بأْسَ فِيما يقُولونَ لولاَ أَنَّ أَدِلَّتَهُم مِن نَوعِ الجَدَلِ والسَّفسَطَةِ ، تتلاشىٰ أَمامَ المَنْطِقيِّ الحَاذقِ ، ولا تُقْنِعُ غَيْرَ البُسَطَاءِ وذَوي الأَهواءِ .

ـ ذَهَبَ فيثاغورس وأَصحابُه في القُرونِ الأُولىٰ إِلىٰ أَنَّ الأَرضَ متحرِّكةٌ ، والشَّمسَ ثابتةٌ ، وزَعَمَ أَهلُ القُرونِ الوُسطىٰ عكسَ ذلكَ ، فقالوا : (إِنَّ الأَرضَ ثابتةٌ ، والشَّمسَ متحرِّكةٌ) .

ويَؤيِّدُ أَبناءُ العصرِ الحدِيثِ مَذْهَبَ فيثاغورس قبلَ خَمْسَةٍ وعِشرينَ قَرْناً ، وربَّما تَأْتي الأَجْيالُ المُقبلةُ فتؤيِّدُ المَذهبَ الآخَرَ ، أَو تَقولُ برأْيٍ ثالثٍ ، وقَد قيلَ .

فإِذا قِيل : ما هَذا الاختِلافُ في المَحْسوساتِ ؟

أُجيبَ : إِنَّهُ مَبْنيٌّ على احْتمالِ غَلَطِ الحِسِّ .

ثُم بعدَ هَذا كلِّهِ نَجدُ كثيراً مِنَ البُسطاءِ يَتَلَقَّوْنَ المَسائلَ الاجتِهادية كقَطْعِيَّةٍ رياضيَّةٍ، حتَّىٰ رُبَّما فَسَدَتْ بذلكَ عَقَائِدُ، وأَفْسَدَتْ تقاليد، وما ثَمَّةَ غَيرُ الظُّنونِ.

ـ إِذا كانَ قد وَقَعَ الاختِلافُ في (المَرْئيَّاتِ) فيما تقعُ عليهِ حاسَّةُ البَصَرِ ، ثمُ استمرَّ الخلافُ عشراتِ القُرونِ ، وكانَ بينَ المفكِّرينَ من أَهلِ العِلمِ والفنِّ والحِذقِ والنَّظرِ كَما عرفتَ من شَأْنِ الأَرْضِ الَّتي نحنُ علىٰ ظهرِها ساكِنونَ ، والشَّمْسِ الَّتِي نَحنُ بظلِّ أَشعَّتها عائِشونَ . فما ظَنُّك فِيما يَتَلَقَّفه السَّمعُ ، وتَرْجُمُ بِه الظُّنونُ ؟ أَلَيسَ الاسْتمساكُ مِن حبائلِ الشَّكِّ بعروةِ اليقينِ جَديراً أن يُعدَّ خطَلاً أَو حُمقاً ؟

ـ لا تَجْعَلْ مَبْدأَ الأَرْضِ مَبْدأَ عِلْمِك بوُجودِها ، فإِنَّ مُبْدِعَ الكائِناتِ أَزَليٌّ أَبَدِيٌّ ، وبَحْرُ الأَزَليةِ لا يَحُدُّهُ ساحِلٌ .

ـ في الأَرضِ خيراتٌ ، وما تَمَتَّعْنا مِن خيْراتِها إلاَّ باليَسيرِ .

ـ ما بَخِلَتِ الأَرْضُ علَيْنا بخيراتِها ، ولكنْ بعضُنا بَخِلَ عَلىٰ بَعْضٍ ، فأَصابَ كلٌّ منَّا نَصيبَهُ مِنَ الحِرمانِ ، وبواعثُ هذا البُخْلِ شتَّىٰ .

ـ لَو كانَ لِكُرَةِ الأَرضِ خَرائطُ مُنْذُ بَدْءِ وُجودِ الأَرْضِ تُمثِّلُ مَا تعاوَرَ عليها من صُورِ التَّحوُّلِ والتَّطوُّرِ طَبيعياً وصِناعياً واجْتماعياً . . لَوَجَدَ الإنسانُ نَفْسَهُ أَمامَ مَشْهَدٍ رائعٍ ، وأَخذتْهُ حركةُ المرتعشِ ، فَما لبثَ أَن سُقطَ في يديه وهو يقول :

شُخُـوصٌ وأَشْبـاحٌ تَمـرُّ وتَنقضِـي وتَفْنـىٰ جَميعـاً والمُحـرِّكُ بَـاقِـي

ـ مَازالتِ الأَرْضُ تَرمي بأَفلاذِ أَكبادِها فُرادىٰ ، وتجمعُهُنَّ إِلىٰ حجرِها فُرادىٰ كذلِكَ ، حتَّىٰ أَوشكَتْ أَن تكونَ إِيَّاهنَّ ، وأَوشكْنَ أَن يكُنَّ إِيَّاها .

ـ ما أَعماقُ الثَّرىٰ غيرَ أَنواعٍ مِنَ النَّباتِ والحَيَوان ، عادَتْ إِلىٰ أَصْلِها فَكانتْ مِن جِنْسِ الأَرضِ تُراباً ، وكلَّما تكرَّرَتْ هذهِ المأْساةُ . . كبُرتِ الأَرضُ حجْماً ، واكتَستْ أَديماً ، رِوايةٌ ذاتُ مَشاهِدَ عجيبةٍ ، وفُصولٍ مُتَسَلْسِلةٍ ، مِلْؤُها آلامٌ ، فمتَى الفَصْلُ الأَخيرُ ؟

الرَّبيع

ـ إذا صَحَّ أَنَّ الرَّبيعَ شبابُ الزَّمانِ . . فإِنَّ شَبابَ الرَّبيعِ أَزْهارُه .

ـ بُورِكَ للرَّبيعِ في رِياحهِ اللَّواقحِ ، وفِيما لهُ من نَتاجٍ ، وكلُّه أَزواجٌ (أَمْرٌ عرفُوهُ اليومَ ، وعَرَفهُ القُرآنُ قبلَ نيِّفٍ وثَلاثةَ عشرَ قَرناً) .

ـ الرَّبيعُ رِوايةُ بَعثٍ بعدَ المَوتِ ، وَموتٍ بعدَ الحَياةِ ، فَتعالَى اللهُ مُبدعُ الكائِناتِ ، ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

- فِي النَّباتِ آيَةٌ كُبرىٰ ، يَهيجُ مُصْفَرّاً ، ثُم يَعودُ مُخْضَرّاً ، رِوايةُ مَوْتٍ وحَياةٍ ، نَراهَا تَكرَّرُ في كلِّ عامٍ ، ثُم نَقبلُها في النَّباتِ ، وَنأْباها فِي الإِنسانِ ، وَكِلاهُما جِسْمٌ نامٍ ، إنَّ هذا لافْتِئاتٌ .

مُدَّعي البَعْثِ ومُنْكِرُه كِلاهُما يَستَدِلُّ بالنَّباتِ يَضْرِبُ بهِ الأَمثالَ ، كذلكَ تَختلفُ وِجْهةُ الاستِدْلالِ ، فاعْتَمِدِ الأَقربَ إِليكَ حجَّةً عليكَ .

- في البعثِ فَضْلُ البقاءِ علَى الفَناءِ ، أَفَيُعْطاهُ المَفضولُ ويُحْرَمُه الأَفضلُ ؟! (وَلا رَيبَ أَنَّ الإِنسانَ أَفْضَلُ مِنَ النَّباتِ) .

إِنَّمَــا الكَــوْنُ بَيْــنَ طَــيٍّ ونَشْــرِ ... لِــذَوِي اللُّــبِّ فِيهِمَــا آيَــاتُ
أَمُحَــالٌ عَلَــىٰ بَنِــي آدمَ البَعْـ ... ـثُ وَيحْيا بعدَ الهَلاكِ النَّباتُ[1]

السَّماء

- ما أَدْري مَتىٰ أَكْمَلنا عِلمَنا بأَسرارِ الأَرْضِ ونَحْنُ أَبناؤُها حتَّىٰ نَزَعَتْ أَنْفُسُنا إِلى العِلْمِ بِأَسرارِ السَّماءِ ونَحنُ عنْها غُرَباءُ ؟

---

(١) يقول المؤلف : (في الحادي والعشرين ربيعاً من سنيهات حياتي. . هاج من خواطري ومشاعري ما جعل روحي في أضيقَ من حوصلة بعوض ، فغادرت مستقرّي إلىٰ غير غايةٍ أتوخّاها أشبه شيءٍ بالهائم الولْهان ، فما شعرتُ إلا وقد أصحرتُ وعلىٰ قربٍ منّي بُكاء ثكلىٰ وعويلُ نائحة بصوت شجيٍّ فتق من أذنيّ سمع أصمّ ، ولمس أوتار قلبي بسلك كهربائي ، فإذا بالوجوم قد عادَ كلاماً ، وباللواعج الثائرة الصامتة قد تمثلن سهاماً ، وأنطقني الله الذي أنطق كلَّ شيءٍ ، فإذا أنا أهدي إليها هذه الأبيات :

لا تنــوحــي فكلُّنــا أمــواتُ ... تــوأم للممــات هــذي الحيــاة
لا تنــوحــي فــإنمــا هــي أوقــا ... ت قضــاهــا مــن بعــدهــا ميقــاتُ
إنَّ ميْتــاً أودعتِــهِ القبــر حــيٌّ ... وحيــاةُ الإنســان هــذا الممــاتُ)

ينظر ديوانه « ذكرىٰ حبيب » (ص٤٣) .

ـ رُبَّ مُخبرٍ عنِ السَّماءِ يَجْهَلُ ما تَحْتَ قُبَّعتِهِ ، ثُمَّ يُصَدِّقُه البُسَطاءُ فِي كلِّ ما يقُولُ .

ـ رُبَّ متطلِّعٍ إلى السَّماءِ لا يُبصِرُ مَواقعَ خَطْوِهِ فإذا هُو فِي مَهوىً سَحيقٍ .

ـ مَضَتْ قُرونٌ وللكُهَّانِ صَوْلَةٌ ، وَللمُنَجِّمِينَ دَوْلَةٌ ، يَؤُمُّهمْ ذَوو الحَاجاتِ ، وتَمْشِي علىٰ ضَوْءِ تَعاليمهِمُ المُلوكُ ، ثُمَّ دالَتِ الأَيَّامُ فإذا نَحْنُ نَهْزأُ بِكُلِّ عَملٍ مِن ذاكَ القَبيلِ ، ونُحَدَّثُ عَنِ السَّماءِ بأَحادِيثَ أُخرىٰ ، فليتَ شِعري مَن يَضْمَنُ لَنا إذا خَلَتْ هَذهِ القُرونُ أَن لا يكونَ نَصيبُنا نصِيبَ الأَجيالِ الغابرةِ ، فإذا بالأَجيالِ المُقْبلَةِ وَهُمْ بأَحاديثِنا يَهْزَؤُونَ ؟

ـ ليسَ مِنَ المَنطقِ فِي شيءٍ أَن نَرى الأَرضَ آهِلةً بالسُّكانِ ، ثُمَّ نُنكرُ أَن تكونَ السَّماواتُ أَهلاً لِما كَانتْ لهُ الأَرضُ أَهلاً ، وَما هذهِ فِي تلكَ إلاَّ كحلْقةٍ في فلاةٍ ، إنَّ مِثلَ هَذا الإنكارِ سَذاجةٌ أَو غُرورٌ ، فقُلْ معَ أَهلِ الأَدْيانِ ـ ولا غرْوَ ـ : إنَّ السَّماواتِ آهِلاتٌ بِصُنوفٍ مِن بَدائِعِ خَلْقِ اللهِ ، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ .

ـ لَعلَّكَ إذا قُلْتَ لِغُمْرٍ جَاهِلٍ ، أَو مُتَفَقِّهٍ جامِدٍ ، أَو مُتَزَهِّدٍ أَرْعَنَ : إنَّ فِي السَّماواتِ دَوابَّ كَما أَنَّ فِي الأَرضِ دَوابَّ . . أَنكرُوا عَليكَ قَولَكَ ، ورَأَوْهُ بِدْعاً فِي الدِّينِ ، وخُرُوجاً علىٰ كِتابِ اللهِ ، وَإلحاداً فِيما جاءَ بِهِ رَسولُهُ ، ولكنَّكَ متىٰ تَلَوْتَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ . . فَتَّ فِي عَضُدِ مَن يَقرأُ القرآنَ مِن غَيْرِ تَدَبُّرٍ وإمْعانٍ ، وعَرَفَ غَيْرُ شِيعَتِهِ وذَوِيهِ : أَنَّهُ قد سَبَقَ العِلْمَ وأَهلَهُ فِيما تصدَّوا لِلبحثِ فيهِ بعد قرون .

ـ رَحِمَ اللهُ الآلوسيَّ في « رُوحِ مَعانيهِ » ، والزَّمخشَريَّ في « كَشَّافِه » ، إنَّهُما لَم يكلِّفا أَنْفُسَهما فِي الدَّابَّةِ ما تكلَّفَهُ غيرُهما منَ التَّأْويلِ فِي مُسمَّاها ، والتَّجوُّزِ فِي مَبْناها ، علىٰ غيرِ حكمةٍ ومِن دُونِ اضْطرارٍ ، لَقدِ اتَّسعَ فِكرُهما لِما اتَّسعَتْ له قُدرةُ اللهِ ، ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ـ الدَّابَّةُ فِي اللُّغَةِ : ما لَهُ دَبيبٌ وحَركةٌ ، ثُمَّ خُصَّ بما لَهُ قَوائمُ أَربعٌ ، فَلَعَلَّ منْ يرىٰ للسَّماءِ قَداسةً دِينيَّةً يَضْرِبُ قولَكَ فِي وَجْهِكَ ، ثُمَّ يقولُ لكَ مُغاضِباً : أَتُريدُ أَنْ تَجعلَ السَّماءَ إِصْطبلاً ؟ ورُبَّما عَدَّ ذَلك كُفراً .

ـ لَقد مُنِينا بِغَبِيٍّ جامِدٍ ، وبمَغْرورٍ جاحِدٍ ، يُريدُ أَحَدُهما أَنْ يُنْكِرَ وُجودَ الدَّوابِّ فِي السَّماواتِ ، يرىٰ ذلكَ بِدْعاً فِي الدِّينِ ، ولا يَفْقَهُ القُرآنَ المُبينَ .

ـ ويُنكرُ الآخَرُ وُجودَ المَلائكةِ ، ويَعُدُّ ما تَرويهِ الأَدْيانُ فِي ذلكَ حَديثَ خُرافةٍ مِن حيثُ يَعْتَرِفُ بوُجودِ الجَراثيمِ ، ووجودِ المَلايينِ مِنها في بِضْعِ قَطَراتٍ ، (بِئْسمَا سوَّلَتْ للنَّاسِ أَهْوَاؤُهمْ مِن تَفْرِيطٍ وَإِفراطٍ) .

الكواكب

ـ هَذهِ الكَواكبُ فِي جيدِ السَّماءِ باديةٌ للأَنْظارِ ، هلْ فيهَا غيرُ كُرَويٍّ ؟

ـ فقلْ لِمن يُنكرُ كُرَويَّةَ الأَرضِ يَراها بَسيطةً ، قُلْ لَهُ : (مَا هذَا الإِنكارُ يا بَسيطُ ؟) .

ـ بَعُدَ النَّجْمُ فرَأَيناهُ صَغيراً ، وأَخْفاهُ ضَوْءُ الشَّمْسِ فَحَسِبْناهُ آفِلاً .

ـ وَما هُو بالصَّغيرِ حِينَ يَبدُو لَيْلاً ، وَما هُو بالآفِلِ حِينَ يَخْتفِي نَهاراً ، وإِنَّما ذَاكَ قِصَرُ النَّظَرِ فِينا ، فَما عَلَيْنا لَو أَقْرَرْنا علىٰ أَنْفُسِنا بِمثلهِ في كثيرٍ مِن أَسْرارِ التَّكوينِ وغَوامِضِ الحَياةِ ؟!

ـ اختَلَفتِ الرُّجُومُ فِي النُّجومِ : فمِنْ مُؤَلِّهٍ عابدٍ ، ومِنْ ناقِمٍ ناقِدٍ ، ومِن مُؤْمِنٍ بها وجاحِدٍ ، وَهي سائرةٌ سَيْرَها البَديعَ بِنِظامٍ ثابتٍ ، وفِي طَريقٍ مُسْتَقيمٍ ، والنَّاسُ فِي مجاهلِ أَوْهامِهِم يَتَخَبَّطونَ .

ـ يُقِرُّونَ بأَنَّ صَدْرَ الفَضاءِ غَيرَ المُتَناهِي مُحلّىً بعَدَدٍ منَ الكَواكبِ ، لَم يَنْتَهِ العِلْم بَعْدُ مِن حَصْرِها ، وَلا يَرْجُو ذلكَ ، ثُمَّ إِذا حدَّثْتَهمْ علىٰ لسانِ الأَديانِ بشيءٍ عَن عالَمِ الفَضاءِ .. قابَلُوهُ بالإِنْكارِ ، كأَنَّما قدْ فرَغُوا منَ التَّحقِيقِ

والاستِقصاءِ ، وأَحاطُوا بكلِّ ما هُنالِك عِلْماً ، (أَنانيةٌ فاضِحةٌ ، وعَنْجَهِيةٌ ـ لَعَمْرُ أَبيكَ ـ صَلْعاءُ) .

ـ للهِ شَيخُ المَعَرَّةِ! ما أَدْري أَيَّةَ نَظْرةٍ نَظَرَ ، وَماذا أَرادَ حِينَ قالَ وهو رَهْن المَحْبِسَيْن : يَا أَيُّها النَّاسُ ؛ كَمْ للهِ مِنْ فَلَكٍ فِيهِ النُّجومُ ، وَفيهِ الشَّمْسُ والقَمَرُ .

ـ لَعَلَّ الفَيْلَسوفَ العَرَبيَّ استَنْبَطَ ذلكَ مِن قولِهِ تَعالىٰ فِي كتابِه الكَريمِ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ .

ولاسِيَّما وقدْ قُرِىءَ (سُرُجاً) جمع سراج ، مثل : كُتُبٍ وكتابٍ ، وَهِيَ الشَّمْسُ مِنْ غَيْرِ رَيْبٍ .

الحَياةُ

ـ الحَياةُ : مَعْرِفةُ الوَاجبِ والقِيامُ بهِ ، وَما عَداهُما غُثاءٌ .

ـ سَهْلٌ علَى الإِنسانِ أَنْ يَعيشَ ، وَلكنَّ الصَّعْبَ أَنْ يَعيشَ كَما يَجبُ .

ـ مَناهجُ الحَياةِ شَتَّىٰ ، والقَابِليَّاتُ مُختَلفةٌ ، ومِنْ أَسْرارِ النَّجاحِ حُسنُ التَّأْليفِ بَينهُما ، (وهُنا عُقدةُ العُقَدِ) .

ـ قلَّما نَجحَ سالكٌ نَبَتْ عنْ طَبيعةِ المَسلكِ قابِليَّتُهُ ، (وتَبِعةُ الصَّبي فِي ذلكَ علىٰ وَليِّهِ) .

ـ الحَياةُ عِبْءٌ ثَقيلٌ ، يُخفِّفُ مِنْهُ النِّظامُ ، وتَزيدُهُ الفَوْضَىٰ ثِقَلاً ، (سَواءٌ فِي ذلكَ الأَفرادُ وَالجَماعاتُ) .

ـ الحَياةُ حَربٌ ، وَالمُجتمعُ المُعْتَركُ ، (وَما يَعْتَرِضُ أَحياناً مِن فَتْرةٍ وسُكونٍ أَشبَهُ شَيْءٍ بزَمَنِ الهُدْنَةِ) .

ـ إِذا أَرَدْتَ أَنْ تأْخُذَ أُهْبَتَكَ فِي مُعْتَرَكِ الحَياةِ. . فأَحسِنِ اخْتيارَ المَقْصِدِ ثُمَّ اسْتَقِمْ .

ـ رُبَّ حَياةٍ كَحكَّةِ الأَجْرَبِ ، يَستعْذِبُها المُبْتَلَىٰ وَهِيَ عَذابٌ ، (وكلُّنا ذَلكَ المُبْتَلَىٰ) .

التَّطوُّر

ـ الإِنْسانُ رَهْنُ التَّطوُّرِ ، ومِثْلُهُ سائِرُ الحَيوانِ ، بلْ جَميعُ الأَكْوانِ .

ـ الحَياةُ أَدْوارٌ وأَطْوارٌ ، ولِكُلِّ دَوْرٍ طَوْرٌ ، وَفِي خِلالِ ذلكَ يَجْرِي حُكْمُهُ ، (قَانون التَّكامُلِ) .

ـ فَمِنْ حَسَنٍ إِلىٰ أَحْسنَ لِمنْ قدرَ الأَدْوارَ قَدْرَها ، وسارَ مَعَ تَطوُّراتِ الحَياةِ علَىٰ نَهجٍ مُسْتَقيمٍ .

ـ ومِن سيِّءٍ إِلىٰ أَسوأَ لِمنْ كانَ علىٰ عكْسِ ذلكَ ، (سواءٌ فِي ذلكَ الأُمَمُ والأَفرادُ) .

ـ أَنتَ اليومَ غَيرُكَ بالأَمْسِ وإِنْ لَمْ تتغيَّرِ النَّفْسُ ، (فَاعرفْ لِهذا التَّغيُّرِ مُؤَدَّاهُ ، وأَعِدَّ لِخَطْوِ غَدِكَ غيرَ مَواقعِ أَمْسِهِ) .

ـ لَو رأَيتَ نَفْسَك طِفْلاً وقَدْ صِرْتَ شَيْخاً . . لأَنكَرتَ نفْسكَ وَقلْتَ : هذا الطِّفْلُ غَيْرُ هذَا الشَّيخِ ، وإِنَّما هُما أَنْتَ ، وَلكنَّ التَّطوُّرَ قَد جَعلَك غَيرَكَ .

ـ وَلتكُونَنَّ أَيُّها الشَّيخُ تُراباً فيُنْكِرُك مَعارِفُك ، حتَّىٰ رُبَّما اتَّخذَ أَحْفادُكَ لَبِنَةً مِن ذَرَّاتِ وُجودِك المُنحلَّةِ إِلىٰ تُرابٍ ، فَجعلُوها حَيْثُ تَعْبَثُ بِها الأَيْدِي ، وتُدَنِّسُها الأَقْدامُ .

ـ وَربَّما تكوَّنتْ مِنْ طِينتِك زَهْرةٌ فِي رَوْضٍ ، أَو ثَمرةٌ فِي حَقْلٍ ، فأَصابَهما عَدُوٌّ لَك لَدُودٌ ، فَتمتَّعَ بإِحداهُما ، ووَضَعَ الأُخرىٰ علىٰ صَدْرِه الأَيْسرِ ، يُزيِّنُ بها مَكْمَنَ البَغْضاءِ لَك والحِقْدِ عَليْك ، ولا يَدْرِي أَنَّ ما أَحَبَّ هُوَ مَنْ أَبْغضَ ، لَم يَخْتَلِفا ، وإِنَّما اخْتلفَتِ الأَطْوارُ والأَدْوارُ .

ـ وَقدْ تَخْتلفُ عَليكَ الأَطْوارُ بصُوَرٍ أُخرىٰ فِي ذَرَّاتِ الوجُودِ .

ـ وَما قلتُ فِي الإنسانِ . . قُلْ مثلَهُ فِي سائرِ الأكوانِ منذُ كانتِ السَّماءُ دُخاناً ، وكانَ عرشُهُ علَى الماءِ .

ـ التَّطوُّرُ أَدبيّاً مثلُهُ ماديّاً .

ـ وُلِدْتَ طِفلاً لاَ حولَ لَك ولا طَوْلَ ، يُعْوِزُك كُلُّ شَيْءٍ ، ويُعْجزُك كُلُّ شيءٍ ، لاَ تَملكُ غيرَ صَوْتٍ خافتٍ ، ودَمْعٍ ضَئيلٍ ، هُما سِلاحُكَ الوَحيدُ الَّذِي تتَذرَّعُ بهِ إلىٰ حَاجاتِك فِي مُعْتَركِ الحَياةِ ، وفِي جُرْعَةٍ مِن لَبَنٍ لَك سِدادٌ من عَوَزٍ ، فَما بَرِحْتَ تَنْتَقِلُ بكَ الأَدْوارُ ، وتَختلِفُ عَليكَ الأَطْوارُ حتَّىٰ كُنتَ رَبَّ السَّاعِدِ الأَقْوىٰ ، والآمالِ القُصْوىٰ ، فَاستَخْدَمْتَ الطَّبيعَةَ تَحتَ إشارةِ العِلمِ والفَنِّ ، وكَشَفْتَ مِن أَسْرارِها ما ذَلَّلْتَ به (المَواليدَ الثَّلاثَة) ، وخافَكَ كواسِرُ الطَّيْرِ ، وسِباعُ الوَحشِ ، البحارُ طَوْعُ يَمينِكَ ، والكَهْرباءُ طوعُ يَسارِكَ ، تَعُومُ المَاءَ مِثْلَ الحِيتانِ ، وتُحلِّقُ في السَّماءِ مِثْلَ العِقْبانِ ، وَربَّما لَطُفَتْ رقائِقُك فكُنتَ مَلَكاً ، أَو خَبُثَتْ غَرائِزُك فتمثَّلْتَ بصُورةِ شَيْطانٍ ، وأَنْتَ أَنتَ ذَلك الإِنْسانُ .

ـ حتَّىٰ إذا استَوْفَيْتَ قِسْطكَ مِن دَفائنِ استِعْدادِك ، وَوقَفْتَ حيثُ انتهَتْ بكَ (سُنَّةُ التَّكامُلِ) مِنْ جهةِ الصُّعودِ . . بدأَتْ تُطَوِّرُك تِلكَ السُّنَّةُ نفسُها مِن جهةِ الهُبوطِ .

ـ فإذا بالقُوَّةِ تَسْتَحيلُ ضَعْفاً ، وبالقُدْرةِ عَجْزاً ، وبالنَّشاطِ كَسَلاً ، وبالفَرَحِ تَرَحاً ، وبالأَمَلِ يأْساً ، وبالعِلْمِ جَهْلاً ، وإذا بِك قَدْ رُدِدْتَ إلىٰ أَرْذَلِ العُمُرِ لِكيلاَ تَعْلَمَ بَعْدَ عِلمٍ شَيئاً ، وإنَّما أَنْتَ مِثْلُكَ يَوْمَ وُلِدْتَ ، يُعوزُكَ كُلُّ شَيءٍ ، ويُعجزُكَ كلُّ شَيءٍ ، وقَدْ نَفَدَتْ كُنوزُ استِعدادِك ، وَلَم يَبْقَ فِي قوسِها غَيرُ مَنْزَعِ الفَناءِ ، فإذا هِي وَأَنتَ كِلاكُما في خَبَرِ كانَ ، حتَّىٰ يأْذَنَ اللهُ بما سَيَكونُ ، (وإنَّا للهِ وإنَّا إلَيْهِ راجِعونَ) .

ـ التَّطَوُّرُ فِي الأُمَمِ مثْلُه فِي الأَفْرادِ ، وَلكِنْ كُلٌّ بِحَسَبِهِ ، الفَناءُ والبَقاءُ ،

والشَّبابُ والكُهولةُ ، والشَّيخوخَةُ والهَرمُ ، كُلُّ أُولئِكَ مُشْتَرِكٌ فِيه الفَريقانِ : الأُمَمُ والأَفرادُ ، ما فِي ذلك إِشْكالٌ ، وإِنَّما الاخْتِلافُ فِي الأَشْكالِ .

ـ فَناءُ (الفَرْدِ) أَن يَنحلَّ جِسْمُه إِلى التُّرابِ ، وفَناءُ (الأُمَّةِ) أَن تتمثَّلَ في أُمَّةٍ أُخرىٰ .

ـ حياةُ (الأُمةِ) أَنْ تكونَ ذاتَ كيانٍ ، وحياةُ (الفَرْدِ) أَنْ يعيشَ كالحَيوانِ .

ـ شَبابُ (الفردِ) نَزَقٌ وغِرارةٌ يحلُمانِ بالآمالِ ، وشَبابُ (الأُمةِ) نَشاطٌ وإِقدامٌ يأْتيانِ بالأَعْمالِ .

ـ كُهولةُ (الفَرْدِ) فَترةٌ بَعْدَ شِرةٍ ، وأَناةٌ بَعْدَ طَيْشٍ ، وكُهولةُ (الأُمَّةِ) ظِلٌّ وارِفٌ ، وعَدْلٌ شامِلٌ ، وعَرْشٌ مَكينٌ .

ـ شَيخُوخةُ (الفَرْدِ) ضَعفٌ فِي الأَعْضاءِ ، ونَغَصٌ فِي العَيْشِ ، وشَيْخُوخَةُ (الأُمَّةِ) خَوَرٌ فِي العَزائمِ ، وخَلَلٌ فِي النِّظامِ .

هَرَمُ (الفَرْدِ) انحِلالٌ فِي القُوىٰ ، وَسأَمٌ مِنَ الحَياةِ ، و(هَرَمُ) الأُمَّةِ تَفكُّكٌ فِي عُرَى الوِئامِ ، وتَطَلُّعٌ إِلى الوَرَاءِ ، (وَما بعدَ الهَرَمِ إِلاَّ الفَناءُ) .

الإِنسان

ـ مَا فوقَ الإِنْسانِ غَيْرُ خالقِهِ ، (وَلكنْ قَلَّما عَرَفَ مِقدارَ نَفْسِهِ) .

ـ مِرآةُ عَظَمةِ الإِنسانِ قابليَّتُهُ ، وهيَ لاَ تقفُ عِنْدَ حَدٍّ ، فَكذلِكَ عظَمتُه ، (فَانظرْ أَيُّ مَخلوقٍ عَظيمٍ هُوَهْ ؟!) .

ـ الإِنسانُ مِثالُ التَّناقُضِ ، ومَجْمَعُ الأَضْدادِ ، (ومِنْ هُنا يَظْهَر سِرُّ عَظَمتهِ) .

ـ عَظيمٌ شَأْنُ هذَا المَخلوقِ وَعجيبٌ ، يُريكَ مِنْ نَفْسِهِ ما يشَاءُ : إِنساناً ، أَو مَلَكاً ، أَو شَيْطاناً ، وهُوَ هُوَ الإِنسانُ .

ـ إذا بَلَغَ الإنسانُ مِن مواهبِهِ أقصاها . . تَرَكَ كُلَّ المَخلُوقاتِ وَراءَهُ ، وَلَم يَبْقَ أمامَهُ غيرُ خالقِهِ .

ـ إنَّهُ لَيَعْلُو فَيكونُ مِن سبُحاتِ الجَلالِ حَيْثُ لا يَصْعَدُ مَلَكٌ كَرِيمٌ .

ـ وإنَّهُ ليسفُلُ فَيكونُ مِن حَمْأَةِ الخَبائثِ حَيْثُ لا يَهْبِطُ شَيطانٌ رَجيمٌ ، (فَما أفضلَك وما أَرْذَلكَ أيُّها الإنْسانُ ! !)

ـ فِي استِطاعةِ الإنسانِ أن يَكونَ مَلَكاً ، وَليسَ فِي استِطاعةِ المَلَكِ أَنْ يَكونَ إنساناً ، (وهَذا أَحَدُ مظاهِرِ تفوُّقِ الإنسانِ) .

ـ ربَّما كانَ تبايُنُ مَظاهرِ الإنْسانِ مِن تبايُنِ عناصِرِه ومَفاعيلِهِنَّ ، (فَكانَ خَيْرَ مَخلوقٍ وشَرَّ مَخْلوقٍ فِي آنٍ واحدٍ) .

رُوحُ الإنسان

ـ الرُّوحُ الإنْسانيُّ مِن أَشدِّ أَسْرارِ الحَياةِ غُموضاً ، وخَيْرُ ما يُقالُ فيهِ : إنَّهُ لَمْعَةٌ مِن لَمعاتِ الحقِّ ، ولُغْزٌ لا يَحُلُّه إلاَّ المَوْتُ .

ـ رُبَّ نُورٍ يَشعُّ مِن خِلالِ أَسْتارِ المادَّةِ ، فيُبَدِّدُ شَيئاً مِن غياهِبِ الشُّبُهاتِ ، ذَلكَ هُو الرُّوحُ الإِنْسانيُّ .

ـ إذا نفَى الإِنْسانُ صِفةَ الأَبَديَّةِ عَنْ نَفْسِهِ . . فَقَدْ رَضِيَ أَنْ يَكونَ حَيواناً ، (فارْبَأْ بِنفسِكَ هذا الحَضيضَ) .

ـ إنَّ وَراءَ ما تُشيرُ إليهِ مِن نَفسِك بقَولِكَ (أَنَا) أَمْراً وُجدانياً يُسمَّىٰ بـ(القُوَّةِ المُدْركةِ) مِن الإنسانِ ، وَتلكَ (القُوَّةُ المُدْركةُ) أَشبهُ شَيءٍ بحَلْقةٍ مُفْرَغَةٍ تَجمعُ بينَ المُشيرِ والمُشارِ إليهِ ، وهيَ مِن آياتِ الرُّوحِ الإِنْسانيِّ .

ـ ما وَقَفَ الإِنسانُ فِي شَيءٍ حائِراً مَبْهُوتاً مِثْلَ مَوْقِفِهِ مِنْ نَفْسِهِ ، إنَّه يَعْرِفُها ويَجْهَلُها فِي آنٍ واحدٍ .

ـ شَيئانِ لاَ يَسْتطيعُ أَنْ يَعْرِفَهُما الإِنْسانُ ولا أَن يَجْهَلَهُما : نَفْسُهُ ورَبُّهُ .

ـ ما تَضاربَتْ آراءُ البَشَرِ فِي شَيْءٍ تَضارُبَها فِي السِّرِّ الرَّبانيِّ والرُّوحِ الإِنْسانيِّ ، (وبِحَسْبِ الإِنْسانِ هذا الاقْترانُ) .

فكر الإنسان

ـ ما أَشْبَهَ فِكْرَ الإِنسانِ بِدائرةٍ مُحاطَةٍ بالمَجْهولاتِ ، يَتَّسِعُ قُطْرُها بالعِلْمِ ، فَكلَّما ازْدادَ الإِنْسانُ عِلْماً . . ازْدادَ جَهْلاً ، (فقُلْ لمدَّعِي الكَمالِ : لَقَدْ شَهِدْتَ علَىٰ نَفْسِك بِالنَّقْصِ ، وَإِنَّك لمَغْرورٌ) .

ـ مَثَلُ الفِكْرِ الإِنسانيِّ مَثَلُ الجَوْهَرِ ، يَظْهَرُ رَوْنَقُهُ بالصَّقْلِ ، وَصَيْقَلُهُ العِلْمُ .

ـ فِكْرُ الإِنْسانِ خِزانةُ اسْتعدادِهِ ، وهُوَ فيهِ سِرٌّ كامِنٌ كُمونَ النَّارِ فِي الزِّنادِ ، متَىٰ قَدَحْتَه . . وَرَىٰ ، ومَهْما زِدْتَهُ قَدْحاً . . زادَكَ شَرَراً ، (ومِن الغَبْنِ أَنْ يَخْبوَ هذا الزِّنادُ) .

ـ رُبَّ صَحيحِ الأَعْضاءِ فِي فِكْرٍ مَشْلولٍ ، (فَلا تَغُرَّنَّكَ الهَياكِلُ) .

ـ أَرقىٰ دَرجاتِ الحَيوانِ أَحَطُّ دَرَكاتِ الإِنْسانِ ، (وَلَولا أَنَّ الفِكرَ الإِنْسانيَّ يَفْصِلُ بينَهُما . . لاَجْتَمعا فِي بَرْزَخٍ) .

ـ ليسَتِ الحَواسُّ الظَّاهِرةُ غيرَ نوافذَ يُطِلُّ مِنْها الفِكْرُ الإِنْسانيُّ علىٰ مَشْهدِ الكَائناتِ ، فَيصوغُ مُرَكَّباتٍ مِن بَسائطَ ، ثُمَّ يَقِيسُ أُموراً بأَشْباهِها ، ويَضَعُ قَواعدَ مُحْكَماتٍ ، ويَسْتَنْبطُ جُزْئيَّاتٍ مِن كُلّيَّاتٍ ، وَهُنا يَفْترِقُ الإِنْسانُ عَنِ الحَيوانِ ، (فَاجتهِدْ أَن تكونَ الشُّقَّةُ بَينكُما شاسِعةً) .

ـ إِذا سُئِلْتَ عن شَيءٍ يَسَعُ كلَّ شَيءٍ وَلا يَسَعُهُ شَيءٌ . . فقُلْ : ذاكَ الفِكْرُ الإِنْسانيُّ .

ـ عَجيبٌ شأْنُ الفِكرِ الإِنْسانيِّ ، يَجْرِي فيَعْبُرُ بَحرَ اللاَّنهايةِ ، ويَعْقِدُ حاشِيتَي

الأزَلِ والأبَدِ بأسْرَعَ مِن انتِشارِ النُّورِ ، وتَغْزُوهُ فتْرَةٌ فإذا هُو مُقصِّرٌ عَن إدْراكِ مَواقِعِ خَطْوِهِ!!

- إذا صَحَّ (أنَّ مَبْدأ الفِكْرِ مُنتهَى العَملِ) . . وَجبَ أَن نَزِنَ المُبْتَدأَ بِميزانِ المُنْتَهىٰ ، ونَعْرِفَ للفِكْرِ مِقْدارَهُ ، فنَمْنَحَهُ [ما] يَسْتَحِقُّ مِن العِنايَةِ والاهْتِمامِ .

- مِن خَلَلِ نِظامِ المُجتمعِ جَعْلُ (المُفكِّرِ) دُونَ (العامِلِ) ، وأكبرُ مِن هَذا خَلَلاً جَعْلُ (رَبِّ المالِ) فَوْقَهما .

- أَدْهَشُ مَظاهرِ الفِكْرِ الإنْسانيِّ صَوْغُ الكَلامِ وصَوْنُ نِظامِهِ حينَ يُفيضُ فيهِ ، فَيحفظُ لِحروفِ الهِجاءِ تَرتيبَها فِي الكَلماتِ ، ولِلكلماتِ مَواقعَها فِي التَّراكيبِ ، وللتَّراكيبِ تَناسُقَها فِي سِلسلةِ الحَديثِ ، هذا مِن ناحيةِ (المَبانِي) الدَّالةِ علىٰ ما يُريدُ ، ومِثلُ ذلكَ مِن ناحيةِ (المَعاني) المَدلولةِ فِيما أَرَاد ، معَ احتفاظٍ بِما يُحبُّ ، وتحفُّظٍ ممَّا يَكْرَهُ ، وعِنايةٍ بِفصاحةِ اللَّفظِ وتدبُّرِ المَعنىٰ وإحكامِ المَغزَىٰ ، يَفعلُ كلَّ ذلك بأسْرَعَ مِن وَميضِ البَرْقِ ، (فَتبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقينَ) .

الإنسان مَدَنيٌّ بالطَّبع

إنَّ ما مَنَحَ اللهُ الإنْسانَ وميَّزَه بهِ علىٰ سائرِ الحَيوانِ مِن فَرْطِ الاستِعْدادِ وسَعةِ القابليَّةِ يَسْتَدعِي أَعْمالاً عظِيمةً ، وَآثاراً جسِيمةً ، لا تَكفِي للقِيامِ بهَا قُوَّةُ الفَرْدِ ، فكانَ بِطبيعةِ الحالِ مُضطرّاً للتَّعاوُنِ فِي مُزاولةِ ما تَسْتَدعيهِ قابليَّتُهُ مِن كبيرِ الأَعمالِ وبدائعِ الآثارِ .

- ولئِنْ أَمْكَنَ الإنسانَ أَن يَعيشَ مُنْفَرِداً باعْتِبارِ حَيوانيَّتِهِ . . فلا يَسَعُهُ إلاَّ أَنْ يَعيشَ مُجْتَمِعاً باعِتبارِ إنسانيَّتِهِ ، ولكنْ لا يُمْكِنُ أَنْ يَخْسَرَ حَظَّه منَ الفِطْرةِ فَيعيشَ (حَيواناً) وقدْ خلقَهُ اللهُ (إنساناً) ؛ إِذْ لابُدَّ للطَّبيعةِ أَنْ تأخذَ مأخذَها ، وحكمةُ اللهِ أَجلُّ منْ أَنْ تَذْهَبَ سُدىً .

ـ فمِنْ هُنا وهُناك كانَ التَّآلُفُ والتَّجمُّعُ للنَّوْعِ الإنسانيِّ ضَروريّاً ، وهذا معنىٰ قَولهِمْ : (الإنْسانُ مَدَنيٌّ بالطَّبْعِ) .

الإنسانُ شرِّيرٌ بالطَّبع

ـ لَو تَخلَّى الإنْسانُ ونَفْسَهُ . . لَكانَ إلى الشَّرِّ أَقْرَبَ مِنهُ إلى الخَيرِ ، أَوْ رُبَّما كانَ شَرّاً لا خيرَ معهُ .

ـ إنَّ عليهِ مِن بَيْتِهِ ومَدْرستِهِ ، ومِن دِينهِ وحُكومتِهِ ، ومِن أُسْرَتِهِ وبيئَتِهِ عِدَّةَ سُلْطاتٍ ، كلُّها تأْمُرُه بالخَيْرِ وتَنهاهُ عنِ الشَّرِّ ، ثُمَّ بالرَّغْمِ مِنْ هذا كلِّهِ ترىٰ شَرَّهُ غَالباً علىٰ خَيْره ، فكَيفَ بهِ لَوْ تَخلَّىٰ ونفسَهُ وكانَ حَبْلُه علَى الغارِبِ ؟! فلاَ بِدْعَ إذا قُلْنا : (إنَّ الإنسانَ شِرِّيرٌ بالطَّبْعِ) .

الإنسانُ والوازعُ

ـ إذا ثَبتَ أَنَّ الإنسانَ مَدَنيٌّ بالطَّبْعِ ، وأَنَّهُ شِرِّيرٌ بالطَّبْعِ . . فلنْ يستغنيَ عنِ الوازِعِ فِي مُعترَكِ الحَياةِ ، أَوْ يعودَ وَحْشاً ضَارياً .

ـ ذلكَ بِأَنَّ (التَّجمُّعَ) يُفْضي إلَى الاحْتِكاكِ ، و(التَّعاوُنَ) يَلْزَمُ منهُ تبادُلُ القُوىٰ ، فينْشأُ عَنِ الأَوَّلِ مُبارَزَةُ العاداتِ والطَّبائعِ ، وعَنِ الثَّاني الأَثَرَةُ والتَّغلُّبُ ، وكِلا الأَمْرَينِ يَؤُولُ إلى الفَسادِ .

ـ إنَّ الإنْسانَ بِاعتبارِ قابليَّتِهِ واستِعدادِه ومادَّتِه وهَيُولاهُ نُسخةُ التَّناقُضِ ، وإِكْسيرُ التَّطَوُّرِ ، ونَموذَجُ التَّضادِّ ؛ لانطوائِهِ عَلَىٰ أَسْرارِ اللاَّنهايةِ ، وتَرَكُّبِهِ مِن عناصِرَ مُتباينةٍ ، وَكلُّ عُنْصرٍ يَطلبُ مَفعولَه ، والغَوائِلُ شَتَّىٰ ، والمَفاعيلُ مثلُهنَّ ، فَلا غَرْوَ إذا تبايَنَتْ غَرائزُ الإنسانِ وَطبائعُهُ ، واخْتلَفَتْ مَشَاربُهُ وَمنازعُهُ ، وهُو الإنْسانُ ـ مَنْ عَرفْتَ ـ إِلَى الشَّرِّ أَقْرَبُ ، وعَنِ الخَيرِ أَبْعَدُ ، حتَّىٰ لَوْ تَخلَّىٰ ونَفْسَه . . لغَلَبَ شَرُّه علىٰ خيرِهِ ، بلْ رُبَّما كانَ شرّاً لا خيرَ مَعَهُ .

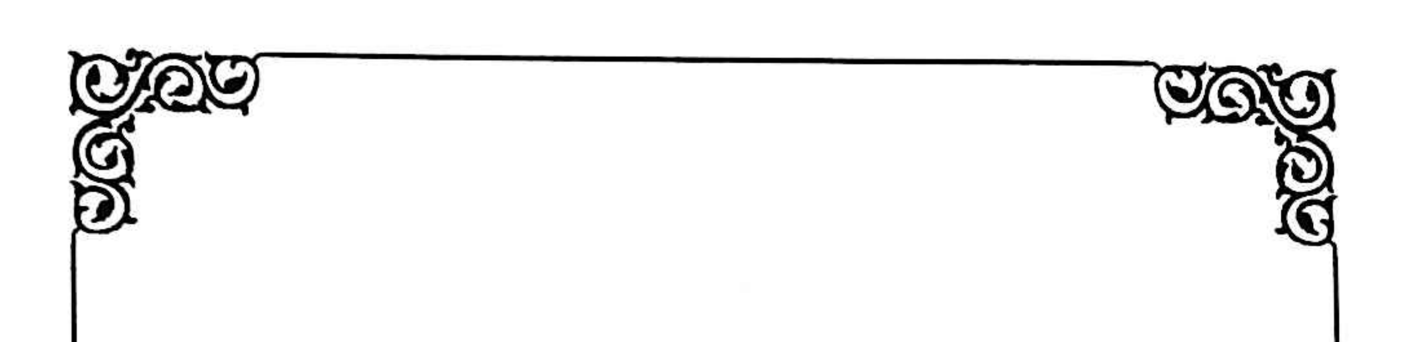
ـ مِن أَجْلِ ذَلك وَجَب أَن يكُونَ للإِنْسانِ وازِعٌ وَرادِعٌ يُقَلِّمانِ مِن أَظفارِ غَدْرِهِ ، ويُخَفِّفان مِن غُلْواءِ شَرِّه ، وهُما : (الدِّينُ والسِّياسَةُ) ، هذا رادِعٌ جِسمانيٌّ ، وذاكَ وازِعٌ رُوحَانيٌّ ، ولا يَسْتَغْنِي أَحَدُهُما عَنِ الآخَرِ لِتمامِ إِصْلاحِ حالِ البَشَرِ .

ـ إِنَّ الأَديانَ والحُكوماتِ مِنْ أَهمِّ حُقولِ الحياةِ ، وَلا تَنْبُتُ نواةُ السَّعادةِ حَيْثُ تَخيسُ هذهِ النَّواةُ .

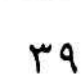
ـ (فَيا حَبَّذا المُصْلِحانِ : الحُكوماتُ والأَدْيانُ ، وَلا حبَّذا المُفْسِدانِ : الفَوْضَىٰ والإِلْحادُ) .

ـ إذا سارَ الوازِعُ إِلى الإِصلاحِ مِنْ غَيْرِ طريقِ الأَخلاقِ . . فقَدْ أَخطأَ صِراطَهُ المُسْتَقيمَ ، (فلْيَنْظُرْ رِجالُ السِّياسةِ والدِّينِ : أَيَّ الطُرُقِ هُمْ سالِكونَ ؟) .

* * *



الحقل الثَّاني
الأَخلاق ، ونتائج الأَخلاق



الحقل الثَّاني

الأَخلاق ، ونتائج الأَخلاق

* * *

الأَخلاق

ـ بَعْثَرْتُ أَنْقَاضَ الحَياةِ لأَعْرِفَ حَجَرَ الزَّاوِيةِ الَّذي عَلَيهِ قامَ بِناؤُها فَإِذا هِيَ (الأَخْلاَقُ) .

ـ قَرَأْتُ كِتابَ المُجتَمعِ فإِذا فاتِحَتُهُ الأَخْلاقُ ، أَو خاتِمتُهُ الأَخلاقُ ، وَما بينَهما تَخَبُّطٌ وغُثاءٌ .

ـ الأَخْلاقُ قُطْبٌ عَليهِ تَدورُ رَحى الحَياةِ ، فإِمَّا سَعادةٌ وإِمَّا شَقاءٌ .

ـ إِذا خاسَتْ نَواةُ الأَخْلاقِ في حَقْلٍ . . فلا يَنْبُتُ فيهِ غَيْرُ الأَشْواكِ .

ـ قلَّبْتُ صَحائِفَ التَّأْريخِ لأَعْتَبرَ بالقُرونِ الخَالياتِ كَيْفَ دالَتِ الأَيَّامُ مِنْها ، وكيفَ دالَتْ هِي مِنَ الأَيَّامِ ، ثُم كَيْفَ دالَتْ أُمَّةٌ مِنْ أُخْرىٰ ، فَرأَيْتُ الفَوْزَ والنَّجاحَ فِي جانبِ الأَخْلاقِ لا يكُونانِ إِلاَّ حَيْثُ تكونُ هِيَهْ .

ـ إِذا فَسَدَتْ خَميرةُ الأَخلاقِ فِي أُمَّةٍ . . فكُلُّ كَعْكَةٍ مِنْ ذاكَ العَجينِ رُبَّةُ فَسادٍ حتَّىٰ يَتدارَكَها اللهُ بِنَشْءٍ جَديدٍ ، وللهِ المَثَلُ الأَعْلَىٰ : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ .

ـ الأَخلاقُ مَوْرُوثَةٌ ، وبَطَلُ الرِّوايةِ مَنْ يَسْتَلُّ الشَّعْرَةَ مِنَ العَجينِ ، (هُنا المَحَكُّ ، ومِنْ هُنا تُعْرَفُ بَراعَةُ المَدارسِ والمُعَلِّمينَ) .

ـ إِذا لَم يُؤْمَنْ شَرُّ العَدْوَىٰ . . فَطَريقُ النَّجاةِ اثْنانِ : الاعْتِزالُ أَو الارْتِحَالُ ، (طُوبَىٰ لمَنْ فَرَّ بأَخلاقِهِ ولَوْ تَعلَّقَ مِنْ أَهْدابِهِ بنَجْمٍ) .

ـ قُلْ لِمَنْ يُريدُ إحياءَ أُمَّةٍ مِن طريقِ العِلْمِ : فأَيْنَ أَنْتَ مِنْ طريقِ الأَخْلاقِ ؟ إِنَّما هُما طَريقانِ قدِ اخْتَرْتَ الأَسْهَلَ مِنهُما ، وإِنَّكَ لَنْ تبلُغَ المَنْزِلَ المَقصودَ حتَّىٰ تَسْلُكَهُما مَعاً .

ـ سَهْلٌ تَعْميمُ العِلْمِ فِي الأُمَّةِ الجَاهلةِ بِرُبْعِ قَرْنٍ ، أَمَّا تَقْويمُ أَخْلاقِها . . فإِنْ تَمَّ فِي نِصْفِ قَرْنٍ . . فهِيَ ذاتُ حَظٍّ عَظيمٍ .

ـ رُبَّ تخلُّقٍ عادَ خُلُقاً ، (فَتَعَوَّدْ ما أَنْتَ فاقِدُهُ لَعَلَّكَ واجِدُهُ) .

ـ أَكثرُ الأَخْلاقِ كَسْبٌ ، (فَقِفْ مِن خَيْرِها وَشرِّها وِقْفَةَ البَطَلِ المِغْوارِ يُحْسِنُ الكَرَّ والفَرَّ) .

ـ فِي الأَخلاقِ مُشْتَبِهاتٌ ، فكُنْ مِنْها فِي مَوْقِفِ النَّاقِدِ البَصيرِ .

ـ لاَ خلاقَ لِمَنْ ساءَتْ منهُ الأَخْلاقُ ، (فَلَرُبَّما ملَّهُ بَنُوهُ ، وجَفاهُ ذَوُو قُرْباهُ) .

ـ الأَخلاقُ أَفضلُ الأَعْلاقِ ، (فاحْفَظْ هذا العِقْدَ الثَّمينَ مِنْ سارِقٍ مَهينٍ) .

حُسْنُ خُلُقِ المَرْءِ أَفْضَلُ رَأْسِ مَالٍ يَعْتَمِدُهُ فِي سُوقِ المُجْتَمَعِ ، إذا أَخْطَأَهُ الرِّبْحُ . . فَإِنَّهُ مِنَ الخُسْرِ آمِنٌ .

ـ إِذَا فاتَكَ الرِّبحُ مِن حُسنِ الخُلقِ . . فَاذكرْ أَنَّكَ مَعَهُ غيرُ خاسِرٍ ، (وكَفَىٰ بها سَلْوَىٰ) ، وَلا تَكْسُدُ هذهِ البضاعَةُ إلاَّ فِي البيئةِ الفاسدةِ .

ـ لِفسادِ الأَخلاقِ مَغارِسُ شَتَّىٰ ، وَأَكْثَرُ ما تَنْبُتُ هذهِ الجُرْثُومَةُ فِي حَمْأَةِ الجَهْلِ ، وأَوْدِيةِ الفَوْضَىٰ ، ومُسْتَنْقَعِ الاستبدادِ ، ومَسارحِ الحُرِّيَّةِ الكاذِبةِ .

ـ رأْسُ فَسادِ الأَخلاقِ اتِّباعُ الهَوَىٰ وحُبُّ الشَّهَواتِ .

التَّاريخ

ـ لَم يَكفِ عُمْرُ البَشَرِ لإِثارةِ دَفائِنِ اسْتِعْدَادِهِ ، فَمسَّتْ حاجةُ التَّكامُلِ إِلىٰ سِلْسِلةٍ كُبرَىٰ مِن أَعمارِ الأَجيالِ تَضُمُّ حَلَقاتٍ مُتَّصِلَةً مِمَّا عَمِلوا فِي مُعْتَرَكِ الحَياةِ

البَشَرِيَّةِ ، وذَلكَ ما نسمِّيهِ (التَّاريخَ) ، وقصيرُ النَّظَرِ مَن لا يَرَى العُلومَ والفُنونَ مِن شُعَبِ التَّاريخِ المُثْلَىٰ .

ـ لَولاَ ما حَفِظَ التَّأْريخُ بينَ دَفَّتَيْهِ . . لَما رَقَى الإِنْسانُ عَنِ الصَّفِّ الأَوَّلِ فِي مَدْرسةِ الحَياةِ ، وَلا انْتَقَلَ عنِ الصَّحيفةِ الأُولىٰ مِن كِتابِ أَسْرارِ الكَوْنِ مَهْما تَتابَعَتِ العُصورُ والأَجْيالُ .

ـ التَّـاريـخُ مَسْـرَحٌ يُمثِّـلُ رِوايـةَ الحيـاةِ ، (وإِنَّمـا جُـلُّ فُصـولِـهِ غـرائـبُ وعَجائبُ) .

ـ التَّاريخُ مِرْآةُ العِبَرِ ، (فَطُوبَىٰ لِلْمُعْتَبِرِينَ) .

ـ بِحَسْبِ التَّاريخِ أَنَّ مُعْظَمَ كتابِ اللهِ مِن نوعِهِ ، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ .

ـ التَّاريخُ مَحْكَمَةٌ كُبْرىٰ ، يَهَابُها شَريفُ النَّفْسِ ، ويَهْزَأُ بِها ساقِطُ الهِمَّةِ ، (فَضَعْ نَفسَكَ مِنَ التَّاريخِ حَيثُ شِئْتَ) .

ـ التَّاريخُ سِجِلُّ الأَبْطَالِ ، (فاحْرِصْ أَنْ يكونَ لكَ صَحيفةٌ هُناكَ) .

ـ رُبَّ حَريصٍ أَعْوَزَتْهُ الفَضائلُ فَسجَّلَ اسْمَهُ فِي صَحيفةِ الرَّذائِلِ ، (فاحذَرْ أَنْ تَكُونَه) .

ـ الحَياةُ دائِرةٌ عَلَيْها أَرْقامٌ مِنْ أَعْمالِ الأُممِ ، يَنْتَهي الرَّقْمُ الأَخيرُ مِنْهَا حَيْثُ يَبْدأُ الأَوَّلُ ، وسِجلُّ هاتيكَ الأَرقامِ : التَّاريخُ ، وهَذا معنَىٰ قولِهِم : (التَّاريخُ يُعيدُ نَفْسَهُ) ، فَقولُوا للأُمَّةِ ذاتِ التَّاريخِ المَجيدِ : إِنَّكِ راجِعةٌ إِلىٰ مَجْدِكِ القَديمِ إِذا نَحتِّ مِن بَدائِعِ تاريخِكِ تِمثالَ غَيْرَةٍ وهُيامٍ ، والأُمَّةُ العَربيَّةُ أَحَقُّ مَن يَعي هذا الكَلامَ) .

كَفَـلَ الحيـاةَ لأُمَّـةٍ تـاريخُهـا ... مِثْـلَ الجيـادِ لَقَحْـنَ بعـدَ حِيـالِ[1]

---

(١) من قصيدة (سنن الكون) ، ومطلعها :

آلام آمـــالٍ ورســـم مثـــال ... وحقـــائـــق تبـــدو بثـــوب خيـــالِ=

ـ كثيرونَ مَنْ يَقرؤُونَ التّاريخَ ، وَلكنَّ الَّذينَ يَفْقَهونَهُ قَليلٌ .

ـ كُنْ مِنَ التَّاريخِ (مكانَ الحاكمِ مِن الشَّاهِدِ) ، يُمَحِّصُ مَعَهُ البَحْثَ تَمْحِيصاً ، لا (مَكانَ المُنفِّذِ مِنَ الحَاكمِ) ، يَسْمَعُ وَيُطِيعُ ، فربَّما ضَلَّ السَّبيلَ أَوِ اتَّبَعَ الهوَىٰ .

ـ لا تَخْدَعَنَّكمْ مِنَ التَّاريخِ ظواهِرُهُ ، فرُبَّما سَمَّىٰ عَنبراً وتَحتَ إِبْطِهِ أَنْتَنُ مِنْ كَنِيفٍ ، وربَّما سَمَّىٰ حَنْظلاً وهُو شَذِيُّ العَرْفِ حُلْوُ المَذاقِ .

ـ كُنْ منَ التَّاريخِ عَلىٰ حذَرٍ ؛ فإِنَّك لا تَدْرِي تَحْتَ أَيِّ تأْثيرِ كُتِبَ ، وتَرْجُمانُ أَيِّ وَحْيٍ هُوَهْ!

ـ اقْرَأْ التَّاريخَ بِعَيْنٍ يَقْظَىٰ ، فلِلْحَقيقةِ نُورٌ يَشِعُّ مِن خِلالِ السُّطورِ مَهْما كانَ غَيْهَبُ الأَهْواءِ حالِكاً .

ـ لَقَدْ أَساءَ مُؤَرِّخُو العَربِ إِلَى العَرَبِ ، لهم تاريخٌ وَضَّاءُ ، فما عُنُوا مِن روايةِ مُعْجزاتهِ إلاَّ بفُصولِ الدِّماءِ ، كأَنَّ هذهِ السَّماءَ ما عَرَفَت غَيْرَ الشَّفَقِ ، (فيا خَيْبَةَ الأَفْكارِ ، ويا ضَيْعَةَ الشُّموسِ والأَقْمارِ) .

ـ لابنِ زَيدانَ[1] فَضْلُ المُتقدِّمِ في تبديلِ الطَّريقةِ ، وأَجْرُ النَّصَبِ فِي جَمْعِ الأَنْقاضِ لولاَ أَنَّهُ حاطِبُ لَيْلٍ ، فما أَصْلَحَ بقَدْرِ ما أَفْسَدَ ، ولا قامَ دَسَمُهُ بسُمِّهِ ، (وقدْ كفاناهُ مُنْتَقِدوهُ) .

الرَّجلُ والمرأَةُ

ـ هُما للحياةِ رُكناها ، وخَيْرُ ما قيلَ فيهما : (النِّساءُ شَقائِقُ الرِّجالِ) .

ـ مَثَلُ الرَّجُلِ والمَرْأَةِ مَثَلُ القَلْبِ والدِّماغِ ، فإِنْ جازَ لِلجسَدِ أَنْ يَسْتغنِيَ

= ينظر ديوانه « ذكرىٰ حبيب » (ص١٢٢) .

(١) لعله يقصد جرجي زيدان في كتابه « تاريخ العرب » .

بأَحَدِهما عَنْ صاحبِهِ . . جازَ للرَّجلِ والمرأةِ أَن يَسْتَغْني أَحَدُهما عَنِ الآخَر .

ـ الرَّجُلُ مِثالُ القَسْوَةِ ، والمَرْأَةُ مِثالُ الحَنَانِ ، (ولَعَلَّ في طبيعةِ المُجْتَمَعِ الإنسانيِّ ما يَتَطَلَّبُ كِلَيْهما) .

ـ لولا أَنَّ فِي طبيعةِ الرَّجُلِ ما جعلَهُ إلى الشِّدَّةِ أَقربَ منهُ إلى اللِّينِ ، وأَنَّ المرأَةَ على العكسِ من ذلكَ . . ما تغلَّبَ عليها من مبدأ الأَمرِ .

ـ الرَّجُلُ يَجمعُ الأَنقاضَ ، والمرأَةُ تُقيمُ البِناءَ ، (فلْيَعرِفْ كلٌّ منهُما مقامَ صاحبهِ) .

ـ يتَّهِمُ الرَّجلُ المرأَةَ بقِلَّةِ الوَفاءِ ، ورُبَّما كانَ أَقلَّ وَفاءً منهَا .

ـ مِن كيدِ الرَّجلِ بالمرأَةِ إغراؤُها بمُساواتِه ؛ ليُخفِّفَ عَنْ نفسِها بما يُحمِّلُها مِنْ أَعْبائِهِ في مِضمارِ الحياةِ ، ولطالما أَغْواها مِن قَبْلُ بصُوَرٍ شَتَّىٰ .

ـ أَلَيْسَتِ الفِطْرَةُ قَدِ اختصَّتْ كُلاً مِنهُما بِمواهبَ ؟ فلماذا يَدْعوها أَن تُساوِيَهُ ، ولا يُساوِيها هُوَهْ ؟

ـ لقدِ ابتُلِيَتِ المَرأَةُ بالرَّجُلِ ، تَحْمِلُهُ فِي أَحْشَائِها جنيناً ، وتضمُّهُ في حِجرِها طِفلاً ، حتَّىٰ إذا اشْتَدَّ أَزْرُهُ . . يُريدُ أَنْ تَحمِلَهُ علىٰ أَكتافِها بما يُحمِّلُها مِن أَعْباءِ نَفْسِهِ ، وَهِيَ هِيَ ذاتُ الشُّعورِ الرَّقيقِ ، والجُثْمانِ اللَّطيفِ ، (ما أَنصفْتَ المَرأَةَ أَيُّها الرَّجلُ ثَمَّ ، رِفقاً بالقواريرِ)[1] .

ـ تَستَطيعُ المَرأَةُ أَن تكشفَ عن قَلْبِ الرَّجُلِ بِلَحْظَةٍ ، أَمَّا دِماغهُ فتُعانِي مِنْهُ كَنْزاً مَخْفِياً .

ـ ويَستطيعُ الرَّجُلُ أَنْ يكشفَ عن دِماغِ المَرأَةِ بسُوَيعةٍ ، أَمَّا قَلْبُها فيَعُومُ منهُ فِي بَحْرٍ عَميقٍ لا يُسْبَرُ غَوْرُه ، (علىٰ أَنَّ قَلْبَهَا بينَ أُصْبُعَيهِ) .

---

(١) من حديث شريف يخاطب به حادي الإبل وفي الركب نساءٌ وقد أخذت الجمالُ ترقصُ طرباً ، فانظر ما أبدع هذا التشبيه في هذا المقام من صاحب الشريعة عليه أكمل الصلاة والسلام .

ـ كُرْسِيُّ المَرأَةِ فِي بيتِها عَرْشُ مَمْلكةٍ صَغيرةٍ ، (فاحْذَرِي يا بِنْتَ النُّورِ أَنْ يَسْتَزِلَّكِ فَيَسْتَنْزِلَكِ الرَّجُلُ مِنْ فوقِ عَرشٍ مَكينٍ) .

ـ لاَ يَحْقِرَنَّ الرَّجُلُ المَرأَةَ ، فإِنَّهُما فِي الحُقوقِ والواجباتِ سواءٌ ، إلاَّ ما أُوتِيَ فِي تكوينهِ ، وآتىٰ مِنْ مالهِ ، فاتْلُ كيْما تفقَهُ ذلك قولَه جَلَّتْ حِكمتُهُ فِي (سورةِ البقرةِ) الآية (٢٢٨) : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ ، وَقولَه بَياناً لِهذهِ الدَّرجةِ : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ .

ـ الكَونُ مَسْرَحُ جَلالٍ وجَمالٍ ، وَلِكلٍّ مِنهُما مُمَثِّلٌ في دَوْرِهِ .

ـ ما مثَّلَ دَوْرَ الجَلالِ مِثْلُ الرَّجلِ ، وما مثَّلَ دَوْرَ الجَمالِ مِثْلُ المرأَةِ ، علىٰ أَنَّ كلاًّ منَ الجَلالِ والجَمالِ مُنْطَوٍ علىٰ شَيءٍ مِن مَلامحِ الآخَرِ .

ـ فِي الجمالِ من روعةِ الجَلالِ ما جعلَهُ سُلْطاناً قاهراً .

ـ وفي الجلالِ منْ رُواءِ الجَمالِ ما يَسْتَرعي الأَنظارَ ، ويَسْتَهوِي الأَفْكارَ .

ـ فقُلْ في المرأَةِ والرَّجُلِ : إِنَّهما شَيْءٌ واحِدٌ .

ـ وقُلْ في مسرحِ الكونِ : إِنَّه لا يَستغني في رِوايتهِ عنْ أَفضلِ مُمَثِّلٍ منهُما لأَفضلِ الأَدوارِ .

ـ إِذا مثَّلَ الرَّجلُ دَوْرَ المرأَةِ . . فقد اختارَ أَنْ يكون بُلْبُلاً لا عُقاباً ، (فسلامٌ على النِّساءِ ، ولَيْسَ عليكَ يا زيرَ النِّساءِ السَّلامُ) .

الرَّجُل

ـ تَنْطَوي كلمةُ (الرَّجُل) علىٰ معنىً قَلَّ مَنْ يفقَهُهُ منَ الرِّجالِ ، وهُنا البَلاءُ المُبْرَمُ، وَعلىٰ هٰذا البساطِ تَمَخَّضَتْ قَواميسُ اللُّغةِ ، فولدَتْ كلمةَ (الأَبْطالِ) .

ـ إِذا رأَيْتَ طَوْداً لا تُزَعْزِعُه الرِّياحُ يَنْطَوي علىٰ بَحْرٍ لا تُكَدِّرُهُ الأَنْوَاءُ . . فَقُلْ : هٰذا هُوَ الرَّجلُ .

ـ مِن ملامحِ الرُّجولةِ أَنْ تكونَ حُلْوَ المَعْشَر ، مُرَّ المكْسَر ، تَبْسِمُ عن ثَغْرِ عَذْراء ، وتَنْظُرُ بِعَيْنَيْ أَسَدٍ هَصُور .

ـ الرَّجلُ يَستطيعُ أَن لا يضحَكَ ، ولا يستطيع أَن يَبْكي ، فإِنْ فَقَدَ أَحدَهما . . كانَ نِصْفَ رجلٍ .

ـ الرَّجُلُ حَمَّالُ أَثْقَال ، فَإِنْ ناءَتْ به . . زلَّتْ قَدَمُهُ عَنْ مَصافِّ الرِّجال .

ـ رُبَّ رجُلٍ يَزِنُ قَبيلاً ، ورُبّ قبيلٍ مِنَ الرِّجالِ لا يَزِنُونَ رَجُلاً واحِداً ، (ثُمَّ إِنَّنا نُطْلِقُ كلمةَ (الرَّجُلِ) على كلا الفريقين ، إِنَّ هذا لَظُلْمٌ صُراح .

ـ رُبَّ رَجُلٍ لَوْ لَمْ يُخلق رَجُلاً . . لكانَ خيراً له ولمنْ تتناولهُم لفظة (الرِّجال) ، ولكنْ ما الحيلةُ وقَدْ خُلِقوا ؟ أَلا وإِنَّ هَيَاكِلَ العارِ مِنْ هذا القبيلِ غيرُ قليلٍ .

ـ بَرِئَتْ ذِمَّةُ الرُّجُوليَّةِ ممَّنْ يرىٰ أُمَّتَهُ في مُعْتَرَكٍ فلا يَنْزِلُ إِليهِ بقَلْبِ جبَّار ، وَهي أَشَدُّ براءَةً ممَّنْ يُدْعَىٰ إِلى النِّزالِ فينكِصُ على الأَعْقاب .

ـ كُنْ رَجُلَ الدُّنيا والآخرةِ تَكُنْ علىٰ قَدَمِ الأَنْبياءِ ، وإِلاَّ . . فأَنْتَ نِصْفُ رَجُلٍ[1] ، أَو حَيَوانٌ في ثَوْبِ رَجُل .

المرأة

ـ المرأَةُ تُكَوِّنُ الرَّجلَ ، فلا بِدْعَ إِذا قُلْنا : (إِنَّها حَجَرُ الزَّاوِيةِ من بِناءِ المجتمع) .

ـ إِذا أَرَدْتَ إِحياءَ أُمَّةٍ . . فعلِّمِ المرأَةَ كيف يكونُ الرَّجلُ بَطَلاً .

ـ تُريدُ المرأَةُ أَنْ تكونَ رَجُلاً ، فإِذا كانَتْ إِيّاه . . فمَنْ يكونُ إِيّاها ؟ !

---

(١) يشير إلى الأثر : (ليس الرجلُ رجلَ الدنيا ، ولا الرجلُ رجلَ الآخرة ، إنما الرجلُ رجلهما) ويريدُ بـ (نصف الرجل) : من كان رجلَ إحداهما دون الأُخرىٰ ، ويريد (بالحيوان في ثوب رجل) : من لم يكن رجل كليهما لا الدنيا ولا الآخرة .

- أَعلىٰ منزلةٍ للمرأَةِ أَنْ تبقى امرأَةَ ، تَضَعُ نَفْسَها حيث وضعَتْها الطَّبيعةُ .

- في البيتِ فَراغٌ لا تَشْغَلُهُ إلاَّ المرأَةُ ، فإمّا خَلا مِنْها . . اختلَّ نِظامُه ، إنَّ المَرْأَةَ هِي العِمادُ .

- لا تَسْتَهِنْ بالمرأَةِ ، فإنَّما يَداها كِفَّتا مِيزانٍ ، فيهما السَّعادةُ والشَّقاءُ ، (انظُرْ إلىٰ تلكَ الأَنامِلِ الضَّعيفةِ في التَّاريخ : كَمْ فتنَتْ أُمَماً ؟ وكمْ دَهْوَرَتْ عُروشاً مِن وراءِ السِّتار ؟) .

- المرأَةُ الجاهِلةُ جُرثومةُ شُؤمٍ في البيتِ تُنْذِرُ بالشَّقاء .

- جَمِّلِ المرأَةَ بالتَّهْذيبِ تخلَعْ على المجتمع رِداءً جميلاً ، وإلاَّ . . فالتمسْ شَرّاً حيثُ كانتْ هِيَهْ .

- ازدانتِ الشَّرْقيّةُ برداءِ الحشمَة ، وفخرَتِ الغربيّةُ بإكليلِ العِلْم ، وأَفْضَلُهُما مَنْ جَمَعَتْ بَينَهما .

- مظلومةٌ المرأَةُ في الشَّرقِ والغَرْبِ ، ما بَرِحتْ فِي كِلَيْهِما آلةً بيدِ الرَّجلِ ، ولكنّها في الشَّرقِ آلةٌ جامِدةٌ ، وفي الغَرْبِ آلةٌ متحركةٌ ، ولعلَّ جُمُودَها الشَّرقيَّ أَفضلُ لها من حركتِها الغربيَّةِ .

- إنَّ مَنْ تَخْدُمُ داخلَ البيتِ أَخفُّ عَناءً وَأَقَلُّ ابتِذالاً مِمَّنْ تخدُمُ داخلَ البيتِ وخارجَه .

- مظلومةٌ المرأَةُ ، ما أَتاها الشَّرُّ إلاَّ من وِجهةِ الخَيْر ، لقد أَفْرَطَ الرَّجُلُ في احترامِها حتَّىٰ وقع في التَّفْريط .

- عُنِيَ الشَّرْقُ بكرامتِها فإذا هي لُؤلؤةٌ في حُقٍّ قَدْ حُرِمَتْ نورَ الشَّمْسِ وبَرْدَ النَّسيم .

- واهتمَّ الغربُ بِحُرِّيّتها فإذا هِيَ زَهْرَةٌ مَقْطوفةٌ مُعَرَّضةٌ لمفاعيلِ الأَجْواءِ ، لا تأْمَنُ الذُّبولَ أَو الفَناءَ .

- ومهما كانَ الأَمرُ . . فإنَّ كِلَيْهِما ـ الشَّرقَ والغربَ ـ مُتَّفِقانِ على احْترامِ

المرأةِ ، وإنَّما الخِلافُ بينهما في مظاهِر هذا الاحْتِرام ، وإنَّها لَمَغبونةٌ فيه ، (ولعلَّ هذا الاختلافَ أَحدُ مظاهِرِ عَظَمَةِ المرأَةِ) .

ـ يَمُنُّ الغربُ على المرأَةِ بإعطائها حُرِّيَّتَها ، ويَمُنُّ عليها الشَّرقُ بإكبارِهِ كرامتَها ، وفَضْلُ كِلَيْهِما غيرُ مَشْكور .

ـ أَمَّا الغَرْبُ . . فقد أَرادَ أَنْ يَسْتَثْمِرَ ما أُودِعَتْهُ مِنَ المَواهِبِ فأَخذَ أَكثرَ مِمَّا أَعْطىٰ ، وأَمَّا الشَّرْقُ . . فقَدِ استأْثرَ من هاتيكَ المواهِبِ بما لا غِنَىٰ للمجتمع عما طَمَرَهُ من البقيَّةِ الباقيةِ ، فأَعطَىٰ أَقلَّ مما أَخذَ ، (وما أَخَذَ وأَعْطَىٰ أَقَلُّ مِمَّا طَمَر) .

ـ لا يَمُن على المرأَةِ مانٌّ حتَّىٰ يَتَّخذ منها (جوهرةً) لا يَعْلُوها الصَّدَأُ ، أَو (زهرةً) لا تَعْرِفُ غيرَ الأَكاليل .

ـ عجيبٌ شأْنُ المجتمعِ معَ المرأَةِ منذ نبَتَتْ في حُقوله ، عَبَدَها واستعبدها ، أَطْلقها وقيَّدَها ، استَحْياها ووأَدَها ، ذَمَّها ومَدَحَها ، مَنَعَها ومَنَحها ، عدَّ قُرْبَهَا قُرْبَىٰ ، ثُمَّ اعتقدَ بِعادَها زُلْفىٰ ، فَداها بنفسه ، وحَنَّ إِليها في رَمْسِهِ ، ناوأَها العِداء ، ورآها داءً عياء ، وما بَرِحَتْ فيه لُغْزاً لم تَتَّفِقِ الكلمةُ علىٰ حَلِّهِ ! ! (حَسْبُكَ بهذا بُرهاناً علَىٰ عِظَمِ شأْنِ المرأَةِ ، فإِنَّما يَكْثُرُ الخِلافُ في العظيمِ مِن الشُّؤون ، ولعلَّ إِطنابَنا هذا في بَحْثِها بُرْهانٌ آخَرُ ماثِلٌ أَمامَ عَيْنَيك) .

ـ لَوْ عُنِيَ المُسلمونَ بالمرأَةِ عنايةَ القرآنِ بها . . لَسَدُّوا ثُلْمةً كُبرىٰ تَطرّقَ إِليهم مِنها كثيرٌ من العَنَاءِ .

ـ قلَّما نَجِدُ ذِكرَ المؤمنين في كتابِ اللهِ غيرَ مَشْفوع بِذِكْرِ المُؤمنات ، وحَسْبُنا قولهُ عَزَّتْ كَلِمَتُهُ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ . . ﴾ .

ثم حَسْبُنا أَنَّ آخِرَ ما كانَ من صاحبِ الشَّريعةِ حينَ سأَلَ ربَّهُ الرفيقَ الأَعلَىٰ أَنِ

اسْتَوْصَىٰ بالنِّساءِ خَيْراً ، وحَسْبُ النِّسَاءِ فَخْراً أَنَّ في القرآنِ الكريمِ سورةً باسْمِهِنَّ ، بل سورتينِ[1] .

ـ رُبَّما كان ثُلُثُ داءِ الشَّرقِ أَنَّ المرأَةَ فيهِ جاهلةٌ .

ـ لقد غَصبَتِ المرأَةُ حُقوقاً ، وغُصِبَتْ حقوقاً ، فهي ظالمةٌ مظلومةٌ في آنٍ واحدٍ .

ـ لو أُعْطِيَتِ المرأَةُ ما أَعطاها اللهُ في كتابه ، ورسولهُ في حديثِهِ . . لحَمِدَتِ العَدْلَ ، ووقفَتْ عند حدِّ الاعْتِدال .

ـ لقد قيلَ في المرأَةِ غَيْرُ قَليلٍ ، ولَعَلَّ أَحْسَنَ ما قيلَ :

هِـــيَ شَيْطـــانٌ إذا أَفْســـدْتَهـــا   وَإذا أَصْلَحْتَهـــا فَهْـــيَ مَلَـــكْ

أقانيمُ الحياة

العلم ، العمل ، الإخلاص

ـ أَفضلُ الرِّجالِ مَنْ جَمَعَ بينَ العِلْمِ والعَمَلِ والإخلاصِ ، وهي أَقانيم الحياة .

ـ العَمَلُ طائرٌ ، جناحاهُ العِلْمُ والإِخلاصُ .

ـ مثلُ العلْمِ مِنْ غيرِ عَمَلٍ مَثَلُ السَّيْفِ بيدِ شَلاَّء .

ـ رُبَّما قَتَلَ رامياً سَهْمُهُ ، ذلكَ مَثَلُ العَمَلِ مِنْ غَيرِ عِلْم .

ـ رُبَّ عَالِمٍ عامِلٍ أعوزَهُ الإِخلاصُ فخابَ مَسْعاهُ .

---

(١) يشير إلىٰ (سورةِ النساء) و(سورةِ الطلاق) .

العِلْم والجَهْل

- العِلْم والجَهْل نورٌ وظلام ، وفي الدَّياجيرِ تَكْثُرُ المخاطرُ ، فكُنْ مِنْهما حَيْثُ شِئْتَ .

- إذا صَحِبْتَ جاهلاً . . فأَعْطِهِ من عِلْمِك قبلَ أَنْ يُعْطِيَك مِن جَهْلِهِ ، فإِنَّ الصُّحبةَ مُؤَثِّرَةٌ .

- كُلُّنا عالِمٌ وكلُّنا جاهِلٌ في آنٍ واحد ، وإِنَّما هناك اختلافٌ في المظاهِر ، وتفاوُتٌ في الدَّرجاتِ ، (فليُخَفِّفْ من غُلَوائه المغرور) .

- كُلُّ ما عَمِلَتْ يَدُ الإنسانِ مظاهِرُ عِلْم ، والعِلْم بِشَيءٍ لا يستلزمُ العِلمَ بكلِّ شيءٍ ، فلا يُنكِرَنَّ الفَيْلَسوفُ علَى النَّجّار عِلْمَه ، وعلى التَّاجر عقْلَهُ ، وعلى الصَّائغِ حِذْقَه ، وعلى النَّقّاش ذوقَه ، وعلى الحدّاد مَقْدِرَتَه ، وعلى البَنّاءِ فِطنتَهُ ، فإِنَّ كُلاً من أَمثالِ هؤلاء السُّوقةِ عالِمٌ بأَمرٍ ربَّما كان حَضْرَةُ الفيلسوفِ يَجْهَلُه ، وتمامُ نِظامِ الحياةِ لا يَسْتَغْني عن كلِّ هاتيك الأُمور .

- العِلْم النَّاقصُ شَرٌّ من الجَهْلِ التَّام، وهو في الأُمَم أَشَدُّ ضَرَراً منه في الأَفراد.

- الخُطوة الأُولىٰ في مراحلِ العلمِ علمُك بأَنَّك جاهِلٌ ، ومن دون هذه الخطوةِ كلُّ الخطواتِ سُدىً ، وإِنَّ الصُّعوبةَ في الخطوة الأُولىٰ .

- لو رأَىٰ نفسَه الجاهِلُ بالعينِ الَّتي يَراه بها العالِمُ . . لحقَّر نفسَه ، (ولكنْ أَنَّىٰ يَتسنَّىٰ له ذلك ؟) .

- الجُهلاءُ في ذِمَّةِ العُلماء ، (شاءَ كلٌّ من الفريقين أَو أَبىٰ) .

- العِلْم عَيْن مُبْصرةٌ ، والجَهْلُ أُذُنٌ غيرُ واعيةٍ ، (فاعتمِدْ علَىٰ أَيِّهما شئتَ) .

- حَسْبُ [الجَهْلِ] عاراً أَن يتبرّأَ مِنْهُ صاحبهُ ، وحَسْبُ العِلْمِ شرفاً أَنْ ينتحِلَه غيرُ ذويه .

ـ العِلْمُ يصرعُ الجهلَ ولو كان ربُّه لَيْثَ عرين ، (ولن يبرَحَ الضِّدّان في عِراك) .

العِلْم

ـ عَمَدْتُ إلىٰ قواميسِ اللُّغة فجمعْتُ كلَّ لفظٍ يَشُفُّ عن معنى المدْحِ والإطراءِ لَعَلِّي أُوفي العِلْم حقَّه من الوَصْفِ ، فوجدْتُه فوقَ كلِّ ذلك ، فرجعْتُ إلىٰ قاموسِ الوُجْدان فإذا في ديباجته هاتان الكلمتان : (لا يكونُ الإنسانُ إنساناً إلاَّ بالعِلْم) .

ـ إذا كانت (قابليةُ العِلْم) مما تدلُّ عليهِ لفظةُ الإنسانِ بالالتزامِ[1] . . أليس عاراً عليه بل نقصاً في جهة إنسانيته أنْ يكونَ جاهلاً ؟

ـ إنَّا نرىٰ قوةً قد استباحَتْ شيئاً من حِمى الطَّبيعة حتَّىٰ باحَتْ بكثير مِن أَسرارِها ، تلك هي قوَّةُ العلم .

ـ عليك بالعِلْم ، فإنَّ ينبوعَ الحياةِ هناك ، (كلمةٌ أَقوُلها لتطنَّ في مَسامعِ الأُمَمِ المحكومَةِ للموتِ) .

ـ رُبَّ عِلْمٍ يُسْتَعاذُ منه ، (ذاكَ العِلم الَّذي لا ينفعُ)[2] .

ـ إذا لم تَجدْ لِبَذْرِ العلمِ أَرْضاً صالحةً . . فلا تُفْسِدَنَّها بالمِحْراثِ ، (ومن هذه الطِّينَةِ تكوَّنَ عُلَماءُ السُّوء) .

ـ أَكثرُ أعداءِ العِلْمِ خُبثاءُ الطِّينةِ ، وعُشَّاقُ الزَّعامةِ الكاذبةِ ، وغُواةُ العُروشِ

---

(١) يُسمّي المنطقيّ دلالة اللفظ علىٰ تمام معناه بـ(المطابقة) ، وعلىٰ جُزئِه بـ(التضمُّن) ، وعلىٰ ما يلازمه في الذهن بـ(الالتزام) ، ثم يَضرِبُ مثلاً لِذلكَ الإنسانَ ؛ فإنَّه يدلُّ على الحيوان والناطق معاً بـ(المطابقةِ) ، وعلىٰ أحدهما فقط بـ(التضمن) ، وعلىٰ قابلية العلم وصنعةِ الكتابةِ بـ(الالتزام) ، أو الدلالة الالتزامية ، وهكذا الدلالاتُ عندَ المنطقيّ ثلاث .

(٢) يُشير إلى الحديث الشريف : « اللهم ؛ إني أعوذ بك من علم لا ينفع » فإنَّ أقلَّ ما في ذلك إضاعةُ الوقتِ في تحصيله ، والوقتُ ثمينٌ ، فجديرٌ أن يُستعاذَ من ضَياعه .

والتِّيجان ، (إِنَّ العِلمَ يأْبَى الاستِئثارَ بالصَّوْلَجانِ ، والاستِبداد بالسُّلطان) .

ـ إِذا انتشرَ نورُ العِلْمِ في أُمَّةٍ . . انجلَتْ عنها ظُلْمةُ الاستبدادِ ، (فلْتَفْطَنْ لِذلكَ الأُمَمُ المظلومةُ) .

ـ مَثَلُ العُلوم للحياةِ مَثَلُ الأَعضاءِ للجَسَدِ ، لا يكادُ يَسْتغني عن شيءٍ منها ، (فلتفطَنْ لذلكَ الأُمَمُ الجامِدةُ) .

ـ العِلْمُ بأَيْدي العُلماء زِمامٌ يقودونَ به الجهلاء ، (فاخترْ أَنْ تكونَ قائداً أَو مَقوداً) .

ـ يَتَغنَّى النَّاسُ بأَلفاظٍ خلاّبةٍ : الاستقلال ، الحُرِّية ، السَّعادة ، وما أَشبه ذاك ، فقل لهم : (إِنما تجدونَ مدلولاتِ هذه الأَلفاظ في قاموسِ العلمِ) .

ـ كلُّ ملاذِّ الحياة دفع آلامٍ إِلا لذَّةَ العلمِ[1] .

ـ لِلعلْمِ لذَّةٌ لو شعر بها الجاهِلُ . . لتكبَّد في سبيلها ما يتكبَّدُه العلماءُ ، (وليس ما يتكبدونه بيسير) .

ـ الحياةُ روضةٌ زُهورُها العلْمُ ، (ولكنَّكَ لا تَحْظَىٰ بالغَضِّ مِنْ هاتيكَ الزُّهورِ حتَّىٰ تَذْبُل زَهْرَةُ شبابِكَ في تِلْكَ السَّبيل) ، (فضُنَّ بذلك أَوْ فَجُدْ) .

ـ يقولُ أُناسٌ : (العِلمُ نُقْطَةٌ كثَّرها العالِمون) ، ويقول آخَرون : (العِلْمُ نقطةٌ كثَّرها الجاهِلون) ، (وكلا الفريقين مُصيبٌ) ، فيا وَيْحَ العِلم مِنْ مُنْتَحِليه .

ـ لا خيرَ في عِلْمٍ يكونُ حجَّةً علىٰ صاحبهِ ، (وإِنَّما يكونُ كذلك إِذا قادَهُ الهَوىٰ) .

---

(١) يقول المؤلف : لو كان في الأكل لذَّةٌ غيرُ دفع ألم الجوع . . لما وقف النَّهِمُ عند حدِّ الشبعِ فكرةَ الزيادة عليه ، كذلك لسائر الملاذّ الماديّة حدود ، بِتَجَاوُزِهَا تنقلبُ كراهيةً واشمئزازاً ، أما العِلمُ . . فكلَّما استكثرت منه . . ازددت شغفاً به والتذاذاً ، ولولا أَنَّ الجاهلَ لا يُحِسُّ بألم الوَخزِ . . لقلنا في لذة العلم : إنها عبارة عن دفع ألم الجهل ، على أنها عدا ذلك تختلف عما سواها من اللذائذ الماديَّة بأنها لا تقف عند حدّ .

الجهل

ـ الجَهْلُ أَساسُ كُلِّ بَلاء ، فحيثما أَوجَسْتَ شراً . . ففتِّش عن نقطة الجيم ، قاتلَ الله الجيمَ كيف مثَّل سِلْسلةَ الشَّقاء في ثلاثِ حَلَقات : (جَهْلٍ ، فجنايةٍ ، فجَحِيم) . وعند جيم الجَهْل تُسْكَبُ العَبَرات ، فهو المُبْتَدأُ والمُنْتَهىٰ .

ـ إذا أَرَدْتَ استعبادَ أُمَّةٍ . . فاطبَعْ قُيودَها مِن حديدِ الجَهْل ، (وكذلكَ تَفْعَلُ دُوَلُ الاستعمارِ) .

ـ الفَرْقُ بين الجاهِلِ والأَعْمىٰ : أَنَّ هذا مُصَابٌ ببصرِهِ ، وذاك مُصابٌ ببصيرته ، (ومِن سوءِ الغَفْلَةِ ونكدِ الطَّالِعِ أَنَّنا نَرثي للأَعْمَىٰ ولا نَرثي للجاهلِ ، وهو أكبرُ منه مُصيبةً وأَجدرُ بالرِّثاءِ) .

ـ الجَهْلُ عمىً في القلب ، ومن عَمِيَ قلبهُ . . لا تُغنيه عَيْناه .

ـ إنَّ النَّوافِذَ لا تَشِعُّ نُوراً إذا كانَ البَيْتُ مُظْلِماً .

ـ رُبَّما كانَ للأَعْمىٰ عَزاءٌ بأَنَّهُ لا يرَىٰ وُجوهَ الثُّقَلاء ، أَما الجاهل فما أدري بماذا يُعزِّي نفسَه ؟ (ولعله غَنِيٌّ عن التَّعزيةِ ؛ لِجهْلِهِ أَنَّهُ جاهِل) .

ـ لِلأَعْمَىٰ عُكَّازَةٌ تَهدِيه ، أَمَّا الجاهِلُ . . فأَعْمىٰ مِن غيرِ عُكَّاز ؛ لذلكَ كانَ أَقْرَبَ إلى السُّقوطِ والعِثار .

ـ ربَّما كان الجاهلُ صَخْرةً صَمَّاء لا يَنْجَعُ معها إلاَّ المِعْوَلُ .

ـ إذا أَردتَ أَن تَسْتَفِزَّ جاهِلاً . . فأْتِهِ من بابِ العاطِفةِ ، (أَما الأُمَم والجماعاتُ . . فيَسْتوي في ذلك عالمُها وجاهلُها ، فَلْيَفْطنْ لذلك القادَةُ والزُّعماء) .

ـ إنَّما تَشْقَى الأُمَم علىٰ يدِ جُهَلائِها ، وشَرٌّ مِنَ الجُهلاءِ الأَدْنياء ، (علىٰ أَنَّ الدَّناءَةَ لم تخرجْ عن حدودِ الجَهْل ، والجَهْلُ ضُروبٌ) .

ـ الجَهْلُ لا يكونُ عُذْراً ما دامَتْ قابليةُ العِلْم مِن لوازم ماهِيّةِ الإنسان ، (وبذلك قَضَى النَّقْلُ والعَقْلُ) .

ـ الجَهْلُ وما أَدراكَ ما الجهلُ ؟! هَيْكَلُ الخِزي ، رِداءُ العار ، منبت الضَّلال ، مَسْرَحُ الأَوْهام ، داعيةُ الطَّيْش ، جُرثومةُ الفَساد ، آلةُ الشَّرِّ ، بُركانُ الفِتَنِ ، مِحْراثُ الإِحَنِ ، مَدْعاةُ الشِّقاقِ ، مَنْبَعُ الشَّقاء ، فقلْ وأَنت صادق : الجَهْلُ حيَّةٌ رَقْطاء ، لا تَنْفُثُ إلاَّ سُمّاً .

الاختصاص والنبوغ

ـ النُّبوغُ مِن نَتائجِ الاخْتِصاص ، وربَّما كان الاخْتِصاصُ أَحَدَ شُروطِهِ .

ـ مَن أَرادَ أَنْ يكونَ كُلَّ شيء . . كان غيرَ شيء .

ـ البَلَدُ الصَّغيرُ لا يُساعِدُ على الاختِصاص ؛ لذلك يَقِلُّ فيهِ النُّبَغاءُ .

ـ ما فُقِدَ النُّبوغُ في الشَّرْقِ إلاَّ بعدَما فُقِدَ فيه الاختصاصُ .

ـ إذا ماتَتْ أُمَّةٌ . . فإِنَّما تُبْعَثُ علىٰ يدِ نُبغائِها ، (ولَنْ تَموتَ أُمةٌ ما دامَ فيها نُبَغاء) .

ـ مَثَلُ النُّبوغِ في الأُمَمِ الجاهلةِ مَثَلُ النَّباتِ في الأَرْضِ القاحِلةِ يَحتاجُ إِلىٰ شَيْءٍ مِنَ الإِعجازِ .

ـ كَمْ تحتَ سماءِ الشَّرْقِ من خاملٍ لو عاشَ تَحْتَ سَماءِ الغَرْبِ . . لكانَ في مُقدِّمةِ النُّبَغاء .

ـ كَمْ في الشَّرْقِ من خاملٍ نابغةٍ ماتَ ولَمْ يَشْعُرْ بنُبوغهِ أَحَدٌ حتىٰ ولا نَفْسُه هُوَهْ ، فَدَفَنوا نُبوغَهُ معَه وما أَفادَ ولا استفادَ .

العمل

ـ العملُ صِنْوُ الحياةِ ، فكنْ عاملاً إما كُنْتَ حَيّاً .

ـ لا يُقْعِدنَّكَ عَنِ العملِ استِغناؤك عنه (لو كان الاستغناء ممكناً) .

ـ لأَن تُسمَّىٰ عامِلاً خَيرٌ من أن تُسمَّىٰ عاطلاً ، (فاحذَرْ أَن يجرَّكَ وَهْمٌ ما إلىٰ مِثلِ هذه الوَصْمَة) .

ـ حيثُما بلغْتَ . . فاستَزِدْ ، ولا تَقِف مِنَ العملِ عندَ حدٍّ ، فربَّما جرَّ الوقوفُ إلى التَّقهقُر ، وربَّما جرَّ عَدَمُ الاستزادةِ إلى النَّقْصِ .

ـ لولا السَّيرُ المتواصلُ في مراحلِ العملِ . . لما استحالَتِ البسائِطُ إلىٰ مُرَكَّبات ، ولبَقِيَ كثيرٌ مما عُرِفَ مِن أَسْرارِ الحياةِ مَجْهولاً .

ـ ما حثَّ على العملِ مِثْلُ الإسلامِ[1] ، ولا مُنِيَ بالكَسَلِ مِثْلُ المسلمين ، (فمتىٰ يَفْقَه هذا الدينَ أَبناؤه ليَسْلُكَ بهم سَواءَ السَّبيل ؟) .

ـ رُبَّ عَمَلٍ سُدىً ، فاحذَرْ مِن مِثْلِهِ ، لا يكنْ غمّاً لك ومِضْياعاً لحياتك .

---

(١) لقد ساوىٰ صاحبُ الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وسلم بين الإبرة بيد المرأة تصلح من شأن بيتها وبين سيف المجاهد يقاتل في سبيل الله ، وقد عدَّ الكاسبَ حبيبَ الله ، ثم قال : « إنَّ الله يبغض العبد البطال » وقال : « إنَّ الله يحب المؤمن المحترف » ، وقال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من عمل يده ، وكان نبي الله داوود يأكل من عمل يده » ، وقال : « لأنْ يأخذَ أحدكم حبله فيأتيَ بحزمة من حطب علىٰ ظهره فيبيعها ويكفَّ بها وجهه خيرٌ من أن يسألَ الناسَ أعطوه أو منعوه » .

هذه بعض تعاليم دين الإسلام ، فماذا أفاد المسلم من مثل تعاليم دينه هذه ؟ وماذا استفاد ؟ إنَّه عاجز أن يصنعَ إبرة يخيط بها ثوبه حتىٰ تأتيه من الغرب من حيث أن أعداءَه قد برعوا في تسخير الطبيعة حتىٰ غاصوا في الماء ، وطاروا في الفضاء ، وتخاطبوا بلسان الهواء .

ـ اخترْ من الأَعمالِ ما كانَ مُثْمِراً وشَريفاً ، (إِنَّ غيرَ الشَّريفِ مِنَ الأَعمالِ ما خالفَ المروءَةَ فحَسْب) .

ـ إِذا تمسَّكْتَ من الأَعمالِ بذيلِ الخيالِ . . فقد خَدَعَتْكَ نفسُك .

ـ حياةُ الإِنسان كؤوسٌ ، أَلَذُّها عَرَقُ جَبينهِ في عمَلٍ لا تَأْباهُ المروءَةُ .

ـ في العملِ لذةٌ لو ذاقَها البَطَّالُ . . لتَجافَىٰ عن مضاجعِ مَوْتهِ .

ـ ما أَماتَ الشَّرْقَ مِثْلُ البَطالةِ فيه .

ـ إِذا اعتبَرْتَ اتِّكالكَ علىٰ غيركَ عملاً . . فقد جَعَلْتَ الباطلَ حقّاً .

ـ اتَّكأَ الغَرْبيُّ علىٰ مِحراثِ الأَعمالِ ، وسَرَحَ الشَّرْقيُّ في حقولِ الخيالِ ، (ثُمَّ نَعْجبُ مِن ذاكَ لماذا استَعْبَدَ هذا ؟!) .

ـ لا تَكُنْ بَطيءَ العَملِ إِذا كنتَ عامِلاً ، وليكُنْ عملُكَ مُنَظَّماً ، ثُمَّ عليكَ بالصِّدْقِ والاستقامةِ .

ـ أَفْضَلُ الأَعْمالِ ما جمعَ بينَ السُّرْعَةِ والإِتقان .

الإِخلاص

ـ الإِخلاص رُكْنُ الحياة الرَّكين ، ولا يستقيمُ بدونهِ بناؤها .

لولا مَظِنَّةُ الإِخلاص . . ما كانت الثِّقةُ ، ولولا الثِّقةُ . . لاختلَّ نظامُ التَّعاوُن ، وما وراءَ ذلك إِلاَّ فسادُ المجتمعِ ، (فانظر إِلى الإِخلاص : أَيُّ دِعامة كُبرىٰ هوه ؟) .

ـ لا يَضِلُّ سالِكٌ رائدُه الإِخلاصُ ، (فإِن ضَلَّ . . فَلْيَتَّهِمْ نَفْسَهُ) .

ـ الإِخلاصُ مِصْباحٌ ضَئيلٌ في مهَبٍّ من رياحِ الأَهواءِ ، لا تدري متَىٰ تُفْجَعُ بانْطِفائه ، فاجعلْ من نفسك رَقيباً عليك .

ـ للمُخلِصِ حَقُّ الإِدْلال ، وله مِن نفسهِ شفيع .

ـ الإخلاصُ من صفات البطولة ، (وقليلٌ هُمُ الأَبطالُ) .

ـ أَخلِصْ لِوَطَنِك وأُمَّتِك ودينِكَ إِنْ أَحببْتَ أَن لا تخونَ نفسَك .

ـ عجبْتُ لمن لا يُخْلِصُ لبلاده كيف يَثِقُ بهِ الغُرَباء ؟ !

ـ الإخلاصُ نورٌ لا تُدركُه أَبْصارُ المُرائين .

ـ رُبَّ مُخلِصٍ في عملهِ أَعْوَزَهُ العِلْم فأَخْطأَ مَرْماه ، (ومثلُ هذا أَشَدُّ النَّاسِ عذابَ ضميرٍ لولا مُبَرِّرٌ مِنْ إِخلاصهِ يواسيهِ بالعَزاء) .

ـ قد يُخْطِىءُ الإِخلاصُ طريقَ النَّجاحِ ، ولكنَّه لا يُخْطِىءُ طريقَ النَّجاةِ ، (جَرَّبْتُ غيرَ قليلٍ ، فما رأَيتُ وسيلةً للنَّجاةِ مثلَ الإِخلاص ، كنتُ أَعتَقِدُ ذلك اعتِقاداً دينياً ، ولكنَّ التَّجارِبَ زادتْني إِيماناً) .

الثِّقة

ـ الثِّقةُ نتيجةُ الإِخلاص ، وثَمَرَةُ التَّجارِب .

ـ مَن أَعْوَزَتْهُ الثِّقةُ . . فلا يَطْمَعَنَّ في مِعْوان .

ـ رُبَّ مُنْغَمِسٍ في الدَّهْماءِ وهو عنها بعيدٌ ، ذلك مَن فَقَدَ ثِقَةَ الدَّهْماء .

ـ أَديمُ الثِّقةِ رَقيقٌ لا يَثْبُتُ لمخالبِ الرِّيَبِ والظُّنونِ ، (فَخُذْ حِذْرَكَ وأَنْتَ سائِرٌ في غابةٍ مِلْؤها مَخالبُ وأَنْيابٌ) .

ـ مِن أَكبرِ شُروطِ النَّجاحِ ثِقةُ المرءِ بنفسِه .

ـ بالثِّقةِ المتبادلَةِ تَمْشي الأُمَّةُ علىٰ قدَمٍ ثابتةٍ ، فإِذا هي بالغةٌ حَيْثُ تُريد .

ـ ما أَهْلَكَ أُمَّةً مِثْلُ فُقْدانِ الثِّقةِ ما بين رِجالها ، (ولعلَّها كلمةُ عراقيٍّ مُجَرِّبٍ يَسْمَعها سُوريٌّ مِثْلُه) .

ـ مَنْ وَثِقَ مِن غيرِ تَجربةٍ . . فقد عرَّضَ نفسَه للبَلاء .

ـ إِذا اتَّهَمْتَ ثِقةً . . فقدْ أَفسَدْتَهُ ، (وحينئذٍ الأَجْدَرُ بِكَ أَنْ لاَ تثِقَ به) .

الحقُّ والحقيقة

ـ ما كانَ أَفضلَهما مِن كلمتين لولا أَنَّهما لم يُسْتَعملا إلاَّ علىٰ سَبيلِ المَجاز!

ـ يتشدَّقُ بهما الأَقْوياء نكايةً بالضُّعَفاء أَو خِداعاً للبُسطاء ، فإِن استعملا بمعناهما . . فإِنَّما يَصْدُران مِن فَمِ مُسْتَضْعَفٍ عاجِز أَو غِرٍّ مَهْبول ، وحينئذٍ يُلْحقان بالمُهْمَلات .

ـ مَنْ أَرادَ الحقَّ والحقيقةَ . . فَلْيَطِرْ إِليهما بجناحَي العِلْمِ والعَمَلِ ، فلعلَّهُ يجدُهما حيثُ يَعْجِزُ عن إِدراكِهما أُسْطول الهواء وعفاريتُ الطَّيران .

ـ يقولون : (الحقُّ يَمرضُ ولا يموت ، والحقيقةُ تُخْفَىٰ ولا تُمْحَىٰ) ولعلَّ التَّاريخَ لا يَشْهَدُ بِما يقولون .

ـ الحقُّ ابْنُ القُوَّةِ ، والحقيقةُ بِنْتُ البُرْهانِ ، فإِنْ حاكَ شَيْءٌ في الصَّدْرِ . . فاحذَرْ من ثالثٍ هناك .

ـ كلُّ مُدَّعٍ يزعم الحقَّ ، وكلُّ متكلِّم يزعمُ الحقيقةَ ، فأَين ما يُسَمِّيهِ واضعُ اللُّغةِ وَهْماً وباطلاً ؟! (أُنشودةٌ يترنَّمُ بها كلُّ ذي عقيرةٍ ، ولا يَطْرَبُ لها إِلا غِرٌّ أَو أَلْمَعِيٌّ) .

الحقُّ

ـ أَفضلُ كَلِمَةٍ حَواها القاموس بين دفَّتَيْهِ كَلِمةُ الحقِّ ، (وفاقِدُ الفَضيلةِ مَنْ لاَ يَحْتَرِمُ هذا الأَفْضَلَ) .

ـ الحَقُّ فَوْقَ كلِّ شيءٍ ، حتَّىٰ رُبَّما عقَّ الوَلَدُ مِن جرائهِ أَباهُ ، وقتلَ الأَخُ أَخاهُ .

ـ مِلْءُ الحياةِ حُقوقٌ مُتقابلة ، وما اجتمعَ اثنانِ إِلاَّ كانت ثالثَهما ، حتَّىٰ إِنَّ لِنَفْسِكَ عليكَ حقّاً ، (فافْطَنْ لهذا السِّرِّ السَّاري في الوُجودِ تَعْرِفْ مِن أَينَ كانَ حِملُ الحياة ثَقيلاً) .

ـ الحَقُّ سَيْفٌ بيدِ صاحبهِ مسْلولٌ ، فإِن خانَهُ زَنْدُه . . لم تَخُنْهُ يدُ اللهِ .

ـ الحُقوقُ مُقَدَّسَةٌ ، يَسْتَوِي في ذلكَ الأُمَمُ والأَفرادُ ، ومِنْ نكدِ الطَّالِعِ تَقْصِيرُ الأُمَمِ عَنِ الأَفرادِ في هذا المِضْمار ، (أَلَيْسَتِ الأُمَّةُ مَجْموعةَ أَفرادٍ ؟ فلو غارَ كلُّ فَرْدٍ لحقوقِ أُمَّتِهِ غَيْرَتَهُ لحقوقِ نفسهِ . . لَرَبِحَ الأُولىٰ ولم تَفُتْهُ الثَّانيةُ ، فاستَبْرَأَ لِذِمَّتِهِ ، وصادَ عُصْفورَيْنِ بِسَهْمٍ واحِد) .

ـ هَضْمُ حَقِّ الأُمَّةِ يستلزمُ هَضْمَ حقِّ الفَرْدِ .

ـ إِنَّ الفَرْدَ جُزءٌ مِنَ الأُمَّةِ ، والكلُّ أَفضلُ من جُزئهِ طبعاً ، (فهل للأُمَمِ والأَفرادِ أَنْ ينتبهوا لهذه القضيةِ المنطقيَّةِ ، ويَقْتَحِمُوا ما تَخْلُقُه الحكوماتُ مِنَ العقباتِ في سبيلِ هذا الاِنْتِباه ؟) .

ـ مِنْ أَلْغازِ السِّياسةِ وكَيْدِ دَهاقِينِها عِنايةُ الحكوماتِ بحقِّ الفردِ ، واستِهْتَارُها بِحُقوقِ الشُّعوبِ ، وما أَجْمَلَ قَوْلَ القائل :

قَتْـلُ امْـرِىءٍ فـي غـابـةٍ جـريمـةٌ لا تُغْتَفَـرْ
وَقَتْـلُ شَعْـبٍ آمِـنٍ مَسْـأَلَـةٌ فِيهـا نَظَـرْ

الحقيقة

ـ الحقيقةُ أَشبَهُ شيءٍ بالكُرَةِ لا يُرىٰ مِنْهَا إلاَّ الصَّفْحَةُ المقابلةُ ، فمِنَ الخَطَلِ في الرَّأْيِ الحُكْمُ علىٰ سائِرِها بِلَوْنٍ ما مَثَلاً ، اغْتراراً بِجُزْءٍ مِنها ، فرُبَّما كانَتْ ذاتَ أَلْوانٍ ، (إِنَّ الأَلْمَعِيَّ مَنْ قَلَّبَ النَّظَرَ فِي كُلِّ صَفَحَاتِها ثُمَّ نعتَ كلاًّ مِنْهُنَّ بِمَا تَسْتَحِقُّهُ) .

ـ مادامَتِ الأَكْوانُ خاضِعةً لناموسِ قَلْبِ الأَعْيانِ فلا حقيقةَ ثابتةٌ ، (هذا فيما كان من مقولةِ الذَّاتِ ، فناهيكَ بما كانَ مِن مَقولةِ العَرَضِ ، رُبَّ قَصيرٍ عُدَّ بالإِضافةِ إِلىٰ غيرهِ طويلاً) .

ـ رُبَّما جَرَحَتِ الحَقيقةُ ربَّها ؛ (لذلكَ قَلَّ أَهْلُوها) .

- أَيَّ طريقٍ سَلَكَتِ الحَقيقةُ . . وَجَدَتْ أَمامَها عقَباتٍ مِنَ الأَهْوَاءِ .

- سَهْلٌ عَلَى الحقيقةِ أَنْ تَدْخُلَ أَكواخَ الصَّعاليكِ ، ولكنَّ الصَّعْبَ أَنْ تَدْخُلَ قُصورَ الملوكِ .

الحقُّ والواجب

- إنَّما الحياةُ حُقوقٌ ووجائِبُ ، فإذا أَفلَتَ الإنسانُ مِن هذِهِ القُيودِ . . كانَ هَمَلاً ، (وجديرٌ بمثلِ هذا أَنْ لاَ يَجِدَ مَرْعىً مِن ماءٍ وكَلأٍ) .

- الحقُّ الَّذي لكَ يلزمُكَ حفظُهُ ، والواجبُ الَّذي عليكَ يلزمُكَ أداؤه ، وكِلا الأَمْرَيْنِ غَيْرُ يَسيرٍ ، ومن هنا كانَ العَيْشُ منغَّصاً ، (حاشا مَنْ نَضُبَ ماءُ وَجْهِهِ وكانَ مَيْتَ الضَّميرِ) .

- شَرُّ ضُروبِ الجَهْلِ الجَهْلُ بالحُقوقِ والواجباتِ .

- يَتَأَتَّى التَّقْصِيرُ في الحقوقِ والوجائبِ مِن ثِقَلِ وطأَتِهما أَكثرُ مما يتأَتَّىٰ من ناحيةِ الجَهْلِ بهما ، وأَكثرُ من هذه وتلك يَتَأَتَّىٰ مِن ناحيةِ الجَهْلِ بِمَقاديرهما ، (فإلى العِلْمِ بالمقاديرِ يا أُباةَ الجَهْلِ والتَّقْصير) .

- إذا رأَيتَ تقصيراً مِمَّنْ لاَ يَجْدُرُ بِهِمُ التَّقصيرُ في الحقوقِ والوجائبِ من قَريبَيْنِ تجمعُهما لُحْمَةُ النَّسَبِ ، أَو فاضِلَين يَضُمُّهما سِلْكُ العِلْمِ والأَدَبِ ، أَوْ كَرِيمَيْنِ يَسْتَرعيهما شَرَفُ النَّفْسِ والحَسَبِ . . فإِنَّ أَكثرَ ما يَتَأَتَّىٰ ذلكَ التَّقصيرُ مِن ناحيةِ الجَهلِ بالمقاديرِ .

- لقد رأَيتُ كثيراً مِنَ الأُسَرِ في شِقاقٍ يُقِلُّها ، وشَقاءٍ يُظِلُّها ، فأَنْعَمْتُ النَّظرَ ، فإذا العامِلُ في ذلكَ هُوَ الجَهْلُ بمقاديرِ الحُقوقِ والواجبات :

تَجِدُ الأُمَّ مثلاً حقُّها مئةٌ ، وقد وفّاها وَلَدُها إِيَّاه ، ولكنَّها ترىٰ أَنه مِئَتان ، أَو تراهُ هي مئةً ، ولكنَّ ولدَها يراهُ خَمْسين ، فلا يزيدُها علىٰ ذلكَ شيئاً ، فإذا

بالأُمِّ ترىٰ وَلَدَها عاقّاً وهو بارٌّ ، وإذا بالوَلَدِ يَرىٰ نفسَه بارّاً وهو عاقٌّ ، فيحدثُ بينهما ما لا يجدُرُ بأُمٍّ وولدِها .

وقِسْ علىٰ ذلكَ حالَ الولدِ وأَبيهِ ، والأَخِ وأَخيهِ ، ومَنْ عَرَفْتَ من أَعمامٍ أَو أَخوالٍ ، وأَصدقاءَ أَو شركاء .

ـ كثيرون الَّذين يعرفون الحقَّ ويُطالبون به ، ولكن الَّذين يعرفون الواجبَ ويقومون بأَدائهِ قليلٌ ، وأَقلُّ من الفريقين الَّذين يَعْرِفُون ويعترفونَ .

ـ ليسَ بعارٍ أَن يُغْصَبَ حَقُّكَ منكَ ، ولكنَّ العارَ أَنْ تَقْعُدَ عن طِلابه ، (سواءٌ في ذلكَ الأُمَمُ والأَفْرَادُ) .

ـ مَنْ أَغْفَلَ حقَّهُ . . فَقَدْ قَبِلَ علىٰ نفسهِ العَجْزَ أَو الجُبْنَ أَو السَّفَهَ ، (وكلُّهُنَّ عارٌ) .

ـ مَنْ أَهْمَلَ واجبهُ . . فَقَدْ أَقَرَّ علىٰ نَفْسِهِ بالكَسَلِ أَوِ الخيانةِ أَو موتِ الضَّميرِ ، (وكلُّهنَّ شَنار) .

ـ جديرٌ بمن يقومُ بواجبهِ أَنْ لا يُغْصَبَ لهُ حقٌّ .

ـ وحقيقٌ بمن يجهلُ حقوقَهُ أَنْ تَتَخَطَّفَهُ أَيدي الغاصبينَ .

ـ لو طالبَ كلُّ ذي حَقٍّ بحقِّهِ ثُمَّ قامَ بواجبهِ . . لَعَدِمْنا كثيراً مِن جبابرةِ الاسْتِبْدادِ في مَسْرَحِ الحياةِ .

ـ مَنْ رَأَىٰ لنفسهِ حقّاً ثُمَّ ابتغاهُ مِن غيرِ طريقِ القِيامِ بالواجبِ . . فقد خَدَعَ نفسَهُ .

ـ من اللُّؤمِ أَن تطلبَ ما هو لَكَ ، ولا تُؤدِّي ما عليكَ ، (وهَبْ أَنَّكَ فاعلٌ ، فما كلَّ يَوْمٍ تَظْفَرُ بِغِرٍّ) .

ـ لقد أَرَتْنِي الأَيَّامُ كثيراً من أُولئكَ اللِّئامِ ، فما زادَتْ ظنِّي سواداً في هذا السَّواد .

ـ ما كانَ الشَّرْقيونَ عامةً ، والمُسلمونَ خاصةً ، ثُمَّ العَرَبُ بوجهٍ أَخصّ أَسوأَ الأَقوامِ حظّاً ، وأَكثَرَ الأُمَمِ ذُلاً وهَواناً . . إِلاَّ بعدَ أَنْ كانوا أَجهلَها بالحقوقِ والواجباتِ ، ثُمَّ أَكثرَها إِغفالاً للحقِّ ، وإِهمالاً للواجب ، (فاخفِقْ يا قلبُ ، وأَنْتِ يا نَفْسُ اذْهبي حَسَرات) .

الحقُّ والباطل

ـ الحقُّ والباطِلُ تَوْأَمان ، وعلىٰ ساقَيْهِما قامَ هذا الوجود ، (فمن رامَها خِلْواً مِنْ أَحدِهما . . فقد كلَّفَ الطَّبيعةَ شَطَطاً) .

ـ لا باطلَ إِلاَّ وفيهِ عُنْصُرٌ مِنَ الحقِّ ، ولا حقَّ لم يُدَسَّ فيهِ شَيْءٌ مِنَ الباطل ، (وفي التَّمحيص تتفاوَتُ مَراتبُ الرِّجالِ) .

ـ بين الحقِّ والباطلِ حَدٌّ هوَ موقفُ الأَبطالِ .

ـ لَو وَجَدَ الحقُّ مِنَ الأَعوانِ بعضَ ما يَجِدُ الباطلُ . . لعاشَ العالَمُ بسلامٍ ، علَىٰ أَنَّ الحقَّ لا يَعْدَمُ نصيراً .

الباطل

ـ عناصرُ الباطلِ ثلاثةٌ : نفسٌ أَمارةٌ ، وهوىً مُتَّبَعٌ ، وشُحٌّ مُطاع ، (وما أَكثر هذه العناصرَ ! فكيفَ لا يكونُ الباطلُ كثيراً ؟!) .

ـ للباطلِ طريقٌ لا يَسْلُكُهُ إِلاَّ الأَدْنياء ، (ومثلُهم الظَّلَمةُ والطُّغاة) .

ـ لا تَشْحَذْ سِكِّينَ الباطلِ ، فربَّما قُطِعَ بهِ وريدُكَ .

ـ للباطلِ صولةٌ ، ثُمَّ لا يلبثُ أَنْ يزهقَ ، فلاقِهِ بِقَلْبِ بَطَلٍ ، (إِنَّ الباطلَ كان زهوقاً) .

الوهم

- الوَهْمُ وَهْنٌ ، وليسَ وراءَ الوهنِ إلا الفشل .

- الواهمةُ فوقَ المنطق ، (فما الحيلةُ من هذا الشَّرَكِ الكثيف ؟) .

- في حمأةِ الجهلِ تكثر جراثيمُ الوهم .

- لو أُمِيطَتْ أَسْتارُ الوَهْمِ عَن هَيْكَلِ الوُجودِ . . لَبرزَتِ الحياةُ بغيرِ الصُّورةِ الَّتي نَراها .

- لم يكفِ الإنسانَ أَنَّهُ أَسِيرُ أَهْوائِهِ حتَّىٰ كانَ أَسِيرَ أَوْهَامِهِ ، (فإِلَى اللهِ المُشْتَكَىٰ مِنْ هاتِيكَ القُيودِ ، وكلُّنا أُسَراؤها) .

- الوَهْمُ نتيجةُ تَعَفُّنٍ في الأَدمغةِ ، ورَيْنٍ على القلوبِ ، وإِنَّ المُجْتَمَعَ في حاجةٍ إِلىٰ تطهيره منهما ، (فمَن المُطَهِّرُ ؟ وكيفَ التَّطهيرُ ؟ وأَينَ المُطَهِّراتُ ؟ وما هِيَهْ ؟)

- رُبَّما كانَ الوَهْمُ مما يَسْتَدْعِيهِ نِظامُ الحياةِ ، كالمِلْحِ في الطَّعامِ ، (فَلَنْ يبرحَ ستارُهُ مَسْدولاً ؛ لِئَلاَّ يختلَّ النِّظامُ ، فإِذا كانَ الأَمرُ كذلكَ . . فلا يتجاوزَنَّ هذا المِلحُ مقدارَه) .

العاطفة

- يحكمُ المرءَ اثنان : عَقْلُه وعاطِفَتُهُ .

- العاطفةُ جَذْوَةٌ في القَلْبِ ، إِذا ما أَصابَتْهَا نَفْخَةٌ . . تأَجَّجَتْ ناراً .

- وشأْنُ النَّارِ الإِحراقُ ، (فاحذَرْ من عاطفةٍ تُحرِقُ نارُها ما لَيْسَ هشيماً) .

- والعَقلُ شُعْلَةٌ في الدِّماغ ، إِذا قارَنَها الإِمعانُ . . شَعَّتْ نُوراً .

- وشأْنُ النُّورِ الإِشراقُ ، (فامشِ علىٰ ضَوءِ العَقْلِ إِنْ كُنْتَ حكيماً) .

- رُبَّما أَحْرَقَتِ العاطفةُ ربَّها إِذا لم تَجِدْ ما تُحْرِقُهُ .

ـ سُرْعانَ ما تَشُبُّ نارُ العاطفةِ ، وسُرعانَ ما تَخمُدُ ، (فلا تُضِعِ الفُرْصَةَ هناك) .

ـ التَّعَقُّلُ بدونِ عاطِفةٍ قَدْ يُفضِي إلى الجُمودِ ، والعاطِفةُ مِن غيرِ تَعَقُّلٍ قد تُفضي إلى الطَّيْشِ ، (وتمامُ فَضْلِهما : باجتماعهما وحِفْظِ التَّوازُنِ بَيْنَهُما) .

ـ مثلُ التَّعقُّلِ والعاطفةِ من سفينةِ الحياةِ مَثَلُ المَلاَّحِ والبُخارِ .

ـ لولا المَلاَّحُ . . لضَلَّتِ الطَّريقَ .

ـ ولولا البُخارُ . . ما شَقَّتِ الماءَ ومَخَرَتْ في العُباب .

ـ (فقلْ في العاطفةِ إنْ شِئْتَ : إنَّها مثالُ الحركةِ في دُولابِ الحياةِ) .

ـ إنَّ الَّذين يُقادونَ بزمامِ التَّعَقُّلِ ثِقالاً جُزْءٌ مِنْ كُلٍّ في جَنْبِ الَّذين يُساقُونَ بسَوْطِ العاطفةِ خِفافاً ، (فَانْظُرْ إلىٰ تأثيرِ العواطفِ في المُجْتَمَعِ ، ثُمَّ بِأَيِّ مِقْياسٍ هِيَه ؟) .

ـ مَنْ حكَّمَ عَواطفَهُ . . فلا يأْمَنْ علىٰ نفسهِ مِنْ جَوْرِ القَضاءِ .

ـ العواطِفُ عواصِفُ .

ـ إذا عَصَفَتْ ريحُ العواطِفِ . . تَنَحَّى المَنْطِقُ جانباً .

ـ مَنْ يقِفُ عندَ شاطِىءِ التَّعَقُّلِ إذا خَلاَ ونفسَهُ . . يسيرُ مع تَيَّارِ العواطِفِ إذا غَمَرَهُ مَوْجُ الجُموعِ .

ـ علىٰ جِسْرِ العَواطِفِ يَعْبُرُ الفَرْدُ بالجَمْعِ حَيْثُ يُريدُ ، (وهنا يَظْهَرُ فَضْلُ الخَطَابَةِ ، ويُعرَفُ مِقْدارُ الخَطِيبِ) .

ـ مِنْ أَفْضَلِ ما امتازَ بِهِ الإنجليزيُّ وهو سائر في مَهْيَعِ الحياة : أَنْ يَسُوقَ بِسَوْطِ العاطِفةِ ، ولا يُقادُ إلاَّ بِزِمامِ التَّعَقُّلِ ، ولعلَّهُ بمثلِ هذهِ المِيزَةِ كانَ سائِقاً لا مَسُوقاً ، وقائِداً لا مَقُوداً ، حتَّىٰ كانَ لَهُ مِنَ المُلْكِ ما لا تَغِيبُ الشَّمْسُ عن

رُقْعَتِهِ الفسيحةِ الأَرْجاء ، وإذا اقتَبَسَ العَرَبِيُّ من حليفِهِ هذه الخُلَّةَ . . فما أَغناهُ عَمَّا سِواها!

الخيال

ـ الخيالُ : مائِدةٌ يَلْتَفُّ حَوْلَها خَليطٌ مِن نُبَغاءِ الشُّعَراءِ ، وأَبالِسَةِ الأُمَراءِ ، وأَغْبِياءِ الأَغْنِياءِ ، وأَذْكِياءِ الفُقَراءِ ، والعَجَزَةِ والبُؤَساءِ ، والمُشَعْوِذَةِ والبُسَطاء ، (وَكُلٌّ يُصِيبُ هنالِك ما يشاء) .

ـ مَنْ كَسَا الحَقيقةَ ثَوْبَ الخَيالِ . . فَقَدْ خَلَّطَ ، (وما أَكثرَ المُخَلِّطين) .

ـ يَجِدُ العائِمونَ في تيار الخيالِ مِنَ اللَّذةِ ما لا يَجِدُها الغائِصونَ علىٰ دُرِّ الحقيقةِ ؛ (لذلكَ كَثُرَ عَدَدُ أُولئِكَ ، وَقَلَّ عددُ هؤلاءِ) .

ـ إذا ركَّبْتَ قياسَك من مُقَدِّماتِ الخَيالِ . . فلا تَطْمَعْ بنتيجةٍ من غيرِ نوعهِ .

ـ أَبعدُ الأُمَمِ عَنِ الأَعمالِ أَقْرَبُهُنَّ إِلى الخيالِ .

ـ وَدِدْتُ للْعَرَبِيِّ أَنْ يكونَ عَملياً أَكثرَ منهُ خيالياً ، كما كانَ آباؤه مِن قبلُ ، وكما نَرَى الغَرْبِيَّ اليومَ .

اليأْس والأَمل

ـ ما رأَيتُ شيئينِ أَشْبَهَ بشيئينِ مِنَ اليأْسِ والأَمَلِ بالموتِ والحياةِ .

ـ (فاخترْ مِنَ الضِّدَّينِ أَحَبَّهُما إِليكَ) .

ـ اليأْسُ يَطْوِي ، والأَمَلُ يَنْشُر ، ولا يزالُ الإِنسانُ مِنْهُما بَيْنَ طَيٍّ ونشْرٍ حتَّىٰ تَطْوِيَ الثَّلاثةَ يَدُ الأَيَّام ، (وهذهِ خُلاصَةُ الحياة) .

ـ في القَلْبِ فَراغٌ لا يَخْلو عَن أَحَدِ شاغِلَيْنِ : اليأْسِ أَوِ الأَمَلِ ، يَتعاقَبانِ عليهِ تَعاقُبَ اللَّيلِ والنَّهارِ ، فإما أُنسٌ وهناء ، وإِمَّا بؤسٌ وعناء .

ـ ربَّما خدعَ الأَملُ ، وربَّما قتلَ اليأْسُ .

ـ (فاسلُكْ مِنْ بينهِما طَريقَ الخوفِ والرَّجاءِ تهتدِ إِلى النَّهجِ القَويمِ) .

ـ يغلبُ أَمَلُ العاقِلِ علىٰ يأسهِ ، ويَغْلِبُ يأْسُ الجاهِلِ علىٰ أَملهِ ، إلاَّ أن يكونَ العاقلُ جباناً ، والجاهلُ شُجاعاً .

ـ أَمَّا حَظُّ ثالثِهما المُذَبْذَبِ . . فالحَيْرَةُ والاضْطِراب ، والقَلَقُ والعَذابُ .

ـ رُبَّما افترَّ الأَمَلُ عَنْ ثَغْرِ اليأْسِ ، وربَّما انْقَشَعَ سَحابُ اليأْسِ عَنْ نَجْمِ الأَمَلِ .

ـ فَكُنْ رَجُلَ الاثنينِ ، لا يهُولَنَّكَ هذا ، ولا يَغُرَّنَّكَ ذاك) .

الأَمل

ـ الأَمَلُ أَلَمٌ ، ولا تَلَذُّ الحياةُ بدونهِ ، (وما الحياةُ إلاَّ آلامٌ وآمال) .

ـ لقد صدقَ القائِلُ : (لولا الأَمَلُ . . لبَطَلَ العَمَلُ) .

ـ إِذا سَمِعْتَ بِعامِلٍ غيرِ آمِلٍ . . فقُلْ : إنَّ لنفسهِ أَمَلاً مِن وراءِ عَمَلِهِ ، (وربَّما كانَ مِن هذا القبيلِ ما نراهُ من عَبَثِ النَّائمِ والوَليدِ) .

ـ الأَملُ نِبْراسٌ في مَجاهِلِ الحياةِ ، علىٰ ضَوئِهِ يَمْشي الأَنام .

ـ كُلَّما اتَّسَعَ نِطاقُ الأَمَلِ . . اتَّسَعَ نِطاقُ العَمَلِ ، (وَقُلِ العَكسَ إنْ شِئْتَ) ، كذلكَ لا يبرحُ النِّطاقان يَتَّسِعُ أَحدُهما باتِّساعِ الآخرِ حتَّىٰ يضيقَ عنهما نِطاقُ العُمُر ، فإِذا الثَّلاثةُ في خبرِ كان ، ثم لا يَثْبتُ أَمامَ هذا التَّيَّارِ إلاَّ كِبارُ الآمالِ والأَعْمال ، وأُولئك هُمُ الأَبطالُ ، (فسلامٌ على التَّاريخ ، وعلىٰ أَبطالِ التَّاريخ أَلفُ سلام) .

ـ كم تحتَ أَطباقِ الثَّرىٰ مِن آمالٍ دُفِنَتْ معَ أَصْحَابِها وما خَلَّفَتْ وراءَها غَيْرَ الحَسَرات .

اليأس

ـ اليأسُ عَجْزٌ أَو جَهْلٌ ، (فاحذَرْ إِحْدَى الوَصْمَتَيْنِ) .

ـ إذا تَطَرَّقَ اليَأسُ إلىٰ قَلْبكَ . . فاعْلَمْ أَنَّما تَحْمِلُ بَينَ جَوانِحِكَ قَلبَ امرأَةٍ أَو صَبِيٍّ ، أَو كافِرٍ .

ـ قلبانِ لا يَدخُلُهما اليأسُ : قَلْبُ المؤمنِ ، وقَلْبُ الرَّجُلِ الكبير .

ـ لكَ أَنْ تيأَسَ علىٰ حسابِ نَفْسِك ، أَما علىٰ حسابِ الشَّعْبِ . . فلا ، فإِنَّكَ قاتِلُهُ ، (إِنَّ أَكبرَ خيانةٍ للأُمَمِ بَثُّ رُوحِ اليَأْسِ في أَبنائِها) .

ـ لو كانَ في اليأسِ خَيْرٌ . . لأَباحَتْهُ الشَّرائع .

ـ ما أَجْمَلَ الكلمةَ السَّائرةَ وما أَجْمَعَ : (لا حياةَ مَعَ اليأْسِ ، ولا يأْسَ مَعَ الحياةِ !) .

الخطأُ والصَّواب

ـ الخَطَأُ والصَّوابُ بَرْزَخَانِ يُؤَدي إِليهِما طريقُ الاجتهادِ ، وقد يكونُ بينهما قَيْدُ شَعْرَةٍ ، فاحْذَرْ زَلَّةَ القَدَمِ .

ـ أَشْنَعُ ضُروبِ الخَطَأ الإِصرارُ عَلَيْهِ .

ـ مَنْ رَجَعَ مِنْ نِصْفِ طَريقِ الخطأِ . . رَبِحَ نِصْفَ الصَّوابِ .

ـ بينَ قُشورِ الخطأ تَجِدُ لُبابَ الصَّوابِ ، فاقتحِمْ تلكَ العقبةَ إذا اعْتَرَضَتْكَ ، فربَّما كانَتِ القُشُورُ جِسْرَ العُبورِ إلى اللُّبابِ .

ـ أَصْوَبُ الصَّوابِ ما تَعَرَّفْتَهُ مِن طَريقِ الخَطأ .

ـ مَن لا يُوصلُه مَوْجُ الخَطَأِ إِلىٰ ساحِلِ الصَّوابِ . . فَهُوَ أَحْمَقُ ، وَأَشَدُّ حُمْقاً مَنْ يظنُّ نفسَه لا يُخْطِىءُ .

النَّجاح

ـ النَّجاحُ شَجَرَةٌ ثمرُها العَمَلُ ، وما كُلُّ شجرٍ مُثمراً ، فالتَمِسْ مِنَ الأَشْجارِ ذواتِ الأَثمارِ .

ـ قَبْلَ أَن تفكِّر في النَّجاح فكِّر في أَسْبابه .

ـ مِن أَسبابِ النَّجاحِ إِحكامُ الرَّأْي ومَضاءِ العزيمةِ .

ـ قلَّما فَشِلَ مُلْتَمِسُ أَمْرٍ كانَ علىٰ بيِّنةٍ مِنْهُ .

ـ العاقِلُ يُبْطىءُ بالفِكْرِ ويُسْرِعُ في العملِ .

ـ والجاهِلُ يُبْطىء في العملِ ويُسْرِعُ في الفِكْرِ ، (وهنا وهناك سِرُّ النَّجاحِ والفَشَلِ) .

ـ مَبْدأُ النَّجاحِ تَبادُلُ الثِّقَةِ ، وأَهَمُّ ما هنالِكَ ثِقَةُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ .

ـ مِنْ دوَاعي النَّجاحِ مُتابعةُ السَّيْرِ في طريقِهِ .

ـ ومِن بواعثِ الفَشَلِ التَّقَهْقُرُ لأَوَّلِ صَدْمَةٍ ، (فلْيَنْتَبِهِ الشَّرْقِيُّ لهذا السِّرِّ الَّذي طالما رَجَعَ بِهِ إِلى الوَراءِ مِنْ حَيْثُ يُريدُ الأَمام) .

السَّعادة

ـ أَيَّ سَهْمٍ فَوَّقْتَ . . فإِنَّما السَّعادةَ تُريد ، كُلُّنا رامٍ ، وهي الهَدَفُ الوَحيدُ ، ولكنْ هَلْ مِن مُصيبٍ ؟

ـ لو كانَ للأَمانيِّ حَدٌّ . . لانْتَهَتْ إِليهِ السَّعادةُ ، ولكنَّ فضاءَ الأَمانيِّ غيرُ محدود ، والعقباتُ جَمَّةٌ ، (فيا أَيُّها المُتَسَلِّي ؛ إِنَّما أَنْتَ السَّعيد) .

ـ لولا اختلافُ الأَذواقِ . لجازَ أَنْ يكونَ للسَّعادةِ ماهيَّةٌ ثابتةٌ .

ـ رُبَّ سَعيدٍ في نظرِكَ شَقِيٌّ في نَظَرِ نفسِهِ ، فأَيْنَ السَّعادةُ ؟!

ـ السَّعيدُ مَن يرىٰ نفسَهُ سَعيداً ، وكلُّنا كَنُودٌ ، فأَيْنَ فينا السَّعيدُ ؟!

ـ أَكبرُ صُنوفِ السَّعادةِ ما تَعَرَّفْتَهُ من طريقِ الشَّقاءِ .

ـ مَنْ مَلَكَ نَفْساً هادِئةً وقَلْباً مُطْمَئِناً . . كانَ سَعيداً .

ـ رُبَّ صُعلوكٍ في كوخٍ أَسْعدُ مِنْ مَلِكٍ فِي قَصْرٍ مَشيدٍ .

ـ أَكثرُ ما يأْتي الشَّقاءُ مِن طَريقِ الْتِماسِ السَّعادةِ مِن غيرِ طريقِها .

ـ السَّعادةُ تفيضُ مِنَ الدَّاخلِ ، وقد توهَّموها تأْتي من الخارج ، (ومِن هنا ضَلَّ النَّاسُ الطَّريقَ) .

ـ كم غَنِيٍّ في مالٍ كثير ، وجاهٍ كبيرٍ ، علىٰ فِراشٍ وَثير ، في جناتٍ وأَنهارٍ ، بينَ بنينَ وأَصْهار ، ومزاهِر وأَوْتار ، وثيِّباتٍ وأَبكارٍ ، لم تُغْنِهِ هذه المظاهِر ، ومِلْءُ قلبهِ حَسَرات .

ـ بينَ سعادةِ الأُمَمِ وأَفرادِها علاقةٌ لا يجهلُها إلا مَوْتَى الضَّمائِر ، (إِنَّ تَمامَ السَّعادةِ أَنْ لا تكونَ مِن قومٍ أَشْقِياء) .

ـ إِنَّ أَحْرَى النَّاسِ أَنْ يُعدَّ سعيداً مَنْ سَعِدَ قومُه بشَقائهِ ، وإِنَّ أَحْرَى النَّاسِ أَنْ يُعَدَّ شَقِياً مَنْ سَعِدَ بِشقاءِ قومهِ ، (وما أَكْثَرَ الأَشقياءَ السُّعداءَ من هذا القبيل في الأُمَمِ الجاهلةِ ، وما أَقلَّ السُّعداءَ الأَشْقياء !) .

ـ أَجهلُ الأُمَمِ وأَغْباها مَن يَسْعَدُ بِشَقائِها الخَوَنةُ مِن أَبْنائِها .

ـ مَنْ عَرَفَ واجِبَه ثُمَّ قامَ بهِ . . حقيقٌ أَنْ يُعَدَّ سَعيداً (ولَوْ عضَّهُ البَلاءُ ، وخَنْدَقَتْ عليهِ مَظاهِرُ التَّعاسَةِ والشَّقاء) ، (إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بلاءَ الأَنبياء) ، ومَنْ يَشُكُّ في أَنَّهم أَسعدُ السُّعَداء ؟!

الرِّياء

ـ الرِّياءُ ثَوْبُ خِزْيٍ ، سُداه النِّفاقُ ، ولُحْمَتُهُ التَّمَلُّقُ ، (ما أَكْثَرَ لابِسيهِ في الأُمَمِ المحكومةِ !) .

ـ ثَكِلَتِ المُرائيَ أُمُّهُ ، في كُلِّ ساعةٍ لَهُ لَبوسٌ ، (فما أَسْرَعَ ما يَخيطُ وَيَلْبَسُ !) .

ـ الرِّياءُ حِلْيَةُ العاطِلِ ، وأَكثرُ مَنْ يَتَحَلَّىٰ بِها مَرْضَى القُلوب .

ـ لو عَلِمَ المُرائي إِلىٰ أَيَّةِ دَركةٍ يَهْبِطُ بهِ رياؤه في نَظَرِ مُجالسيه . . لترفَّعَ عَنْ ذاكَ الحضيض .

ـ إذا كَسَدَتْ بِضاعةُ الرِّياءِ في سُوقِ الأُمراءِ . . لم تُصِب رَواجاً في أَيَّةِ سُوقٍ أُخرىٰ .

ـ بَيْنَ ما يَخْسَرُهُ المرائي من شَرَفِ نَفْسهِ ، ويَرْبَحُهُ مِنَ الحُطَام بِفضْلِ ريائِهِ . . مَوْقفُ غَبْنٍ لا يَرْضَىٰ بهِ إِلاَّ مَجْنُون أَو أَحْمَق أَو دَنِيء ، (ولكنْ هي العاطفةُ إذا ماتَتْ . . ماتَتْ معها الفَضيلةُ ، وقُبِرَ معهُما المَنْطِق) .

ـ الرِّياءُ كأْسٌ ، صَهْباؤها سُقوطُ الهِمَّةِ ومَوْتُ الضَّميرِ ؛ لذلكَ لا يستطيعُ أَنْ يتعاطاها مَن كانَ شريفَ النَّفسِ ذَكِيَّ الفُؤاد .

ـ إِذَا لَذَّ لَكَ حَديثُ المُرائي . . فَقَدْ أَوْجَدْتَ إِلىٰ غَمْزِك سبيلاً ، إِمَّا أَنَّكَ غمرٌ أَو مُراءٍ مثلُه .

ـ أَبدعُ ما وُصفَ بهِ الرِّياءُ قولُ التِّهاميِّ :

ثَـوْبُ الـرِّيـاءِ يَشِـفُّ عَمَّـا تَحْتَـهُ ... فـإذا اكْتَسَيْـتَ بِـهِ فَـإِنَّـكَ عَـارِي

ـ أَوْشِكْ بِمَنْ يُرائيك اليومَ أَنْ يُماريَك غداً ، (فإِنَّ المرائي ابنُ الزَّمان) .

النِّفاق

ـ النِّفاقُ قُنْبلةٌ تطيرُ شَرَراً وشَرّاً .

ـ إذا رأَيتَ مَزيجاً مِن رذائلِ الأَخلاقِ : مِنَ الخيانةِ والغَدْرِ ، والكَذِبِ والمَكْرِ ، والجُبْنِ والهوانِ . . فقُل : (هذا هو النِّفاق) .

ـ النِّفاقُ مَسْخٌ في القلب ، لَوْ بَرزَ للعيَانِ . . لرأَيتَ صاحِبَهُ علىٰ صورةِ خِنْزِير .

ـ إذا راجَتْ سُوقُ النِّفاقِ . . انتشرَ فسادُ الأَخلاق .

ـ (ولولا الأُمَمُ المحكومةُ . . لأَقفلَ كثيرٌ مِنَ الحوانيتِ في تلكَ السُّوقِ المشؤومة) .

ـ لا يَنْمُو زَرْعُ أُمَّةٍ حتىٰ يَزْكُوَ مِن دَغَلِ النِّفاق .

ـ عَدُوٌّ غيرُ موافِقٍ خَيْرٌ مِن صديقٍ مُنافِق .

ـ حَسْبُكَ مِنَ المنافقِ أَنَّهُ عَدُوٌّ في ثوبِ صَديق ، فلا أَنتَ تأْمَنُ مَكْرَهُ ، وَلاَ هُوَ يَكْفيكَ شَرَّهُ .

ـ النِّفاقُ أَفْتَكُ جُرْثومةٍ في جِسْمِ المجتمعِ ، ولا دواءَ لهذا الدَّاءِ مِثْلُ الشَّجاعةِ الأَدبية تحتَ حمايةِ العَدْلِ ورايةِ الحُرِّيةِ .

ـ لَوْ جُبهَ المنافِقُ حينَ ينافِقُ . . لتَوَقَّفَ في سَيْره ، وكان عِبْرَةً لِغيره ، (فلا بِدْعَ إذا قُلْنا في عُشَرائه : إِنَّهم شُركاؤه في ذلك) .

ـ النِّفاقُ رأْسُ مال الخَوَنةِ والجُبَناء ، وإِنما تربحُ صفقتُه في سوق البُسَطاءِ ، وطَغام الأُمراءِ ، والسَّفَلَةِ والأَذْنياء .

ـ قلْ للذين يقولون : (ليس فوق الكُفْرِ ذَنْبٌ) : فأَينَ يَبْقَى النِّفاق (والمنافِقونَ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ من النار) وما وراءَ الأَسفلِ وَراءُ ؟!

الحياء

ـ الحياءُ وازِعٌ وُجْدانيٌّ ؛ لذلك كان شُعْبَةً مِنَ الإِيمانِ .

ـ قَدْ يَجْمَحُ بالإِنسانِ غَيُّه فلا يُصْغي إِلىٰ صَوْتِ الأَدْيان ، ولا يَهابُ سَوْطَ السُّلطان ، فإِذا بالحياءِ يكبحُ من جِماحه .

ـ فقلْ إِنْ شِئْتَ : يَزَعُ اللهُ بالحياءِ ما لا يَزَعُ بالقرآن ولا بالسُّلطان .

ـ لولا الحياءُ . . لأَشكلَ نِظامُ الحياة .

ـ لو رُفِعَ الحياءُ فتهاترَ النَّاسُ يفعلُ كلٌّ ما يشاء . . فَمَنْ يَكْفُلُ للحياةِ حُسْنَ النِّظامِ ؟!

ـ لا تَقُل : (الحكوماتُ) ، فَهِيَ بَعْضُ أُولئكَ النَّاسِ .

ـ ولا تقل : (الأَدْيان) ، فإِنَّ الحياءَ شعبةٌ من الإِيمان .

ـ لولا الحياءُ . . لكان المجتمعُ فَوْضَىٰ .

ـ أَليسَ التَّعاطي قطب رحى الاجتماع ؟ فلو لم يقمْ بناؤه علىٰ ركن الحياءِ . . لعجزت عن حفظ كيانه أَلف حكومةٍ في بلد واحد ، فسادت الفوضىٰ ، ووقفت رَحَى الأَعمال .

ـ الحياءُ مِن سجايا العُظماء ، ولا يكونُ عظيماً مَن كانَ خَليعاً .

ـ الحياءُ بُرْقُع من نور ، سَداه الحشمَة ، ولُحْمَتُهُ الهَيْبَةُ ، وأَجْمَلُ ما يكون علىٰ وُجُوهِ النِّساء .

ـ رُبَّ حياءٍ ضَرْبٌ مِنَ العَجْز ، فاحذَرْ أَنْ تُصابَ بمثله .

ـ تجمَّلْ مِنَ الحياءِ بمقدارِ ما يمنعُك من الفِسْقِ ، ولا يَمْنَعُكَ مِنَ الرِّزق ، إِلاَّ رزقاً تَشْريه بماءِ وجهِك ، أَو بماءِ ضميرِك .

الصِّدق والكذب

ـ بَيْنَ الصِّدْقِ والكذبِ خَنْدَقٌ طالما دُفِنَتْ فيه الحقائق .

ـ لأَنْ أُذْبَحَ بسكينِ الصِّدْقِ خيرٌ مِنْ أَنْ أُذْبَحَ بِسكينِ الكَذِب .

ـ كلُّ عِلَّةٍ في جَسَدِ المجتمعِ تَنتهي إِلىٰ جُرثومةٍ واحدةٍ : هي الكَذِب ، (ولولا رَجاءُ التَّوَكُّؤ علىٰ عصاه . . لاسْتَعْصَت علىٰ مرتكب الجريرةِ خُطاه) .

ـ ما عجِبْتُ مِن شَيءٍ عَجَبي ممن يكذبُ الأُكذوبةَ لا يجلبُ بها مَغْنماً ، ولا يَدْفعُ مَغرماً ، (وما مِثْلُ هذا بقليل ، وما مَنْشأُ ذاكَ غَيْرُ سوءِ التَّربية) .

ـ لولا الكَذِبُ . . لأعوزَ السَّاسةَ رأسُ مالٍ يَتَّجِرون به في سوق السِّياسة ، (ولكنه كذبٌ مُزَخْرفٌ ، وأَكثرُ الزَّبائن في تلك السُّوقِ هم البُسطاء ، وأَهلُ المطامع والأَهواء) .

ـ مَن عُرِفَ بالكذب . . كَفىٰ عارِفيهِ مَؤونةَ شَرّه ، (ولكنَّ الطَّامَّة الكُبرىٰ عندَ المخلِّطين) .

ـ لا شرفَ لِكذوبٍ ولو عُدَّ مِنْ أَهْلِ الشَّرَفِ .

ـ عَوِّدْ نَفْسَكَ الصِّدْقَ تنجُ مِن مَهْواةِ الكَذِب .

ـ مِن شَرَفِ نَفْسِ المَرْءِ صِدْقُ لَهْجَتِهِ .

ـ الصِّدْقُ مَطِيَّةُ النَّجاة وإِنْ لم يُؤْمَنْ عِثارُها .

ـ لولا الصِّدْقُ . . لَتناكرَ النَّاسُ فاختلَّ نظامُ الحياة .

ـ إِنَّ الصِّدْقَ مِنَ الحياةِ قُطْبُ رحاها .

الرَّحمة

ـ لولا يَنبوعٌ يتفجَّرُ من القَلْبِ نُتَرْجِمُ عنهُ بالرَّحمةِ . . لَنَضَبَ ماءُ الحياةِ وعادَ الزَّرْعُ حُطاماً .

ـ الرَّحمةُ سِرٌّ مِن أَسرارِ الحياةِ ، إِلهيٌّ ، استودَعَهُ اللهُ القلوبَ ، ولكنَّه سِرٌّ غامِض ، أَلَيْسَ عَطْفُ الحيوانِ علىٰ فَرْخِه مِن طيرٍ وبَهيمةٍ ونَعَم وشاةٍ رحمةً وسِرّاً غامِضاً ؟ أَيَّ غايةٍ يَرْجُو الحيوانُ من وراءِ ذلكَ الحنانِ ؟! ولماذا يَنْتَهي بالاستِغْناء عنه ؟ فربَّما استنكر بَعْدُ مِنَ الفَرْخِ أَبَواه .

ـ لولا الرَّحمةُ . . لتقوَّضَ بُنيانُ الحياةِ ، (أَلَيْسَتِ الحياةُ قائمةً بحفظِ النَّوعِ ؟ فلو نَزَعَ اللهُ الرَّحمةَ مِنَ القلوبِ . . فهل في استطاعةِ مولودٍ أَن يتمتعَ بالبقاءِ وهو في بدءِ حياتهِ مُحتاجٌ إِلىٰ كلِّ شَيْءٍ ، ومُعَرَّضٌ لِكُلِّ شيءٍ ، ولا يَقْدِرُ علىٰ شَيْءٍ ، كأَنَّهُ حَجَرٌ علىٰ قارعةِ الطَّريق ؟)

ـ لئن كان العدلُ أَساسَ المُلك.. فإنَّ الرَّحمةَ حجرُ الزَّاوية من ذلك الأَساس.

ـ الحياةُ مَزْرعةٌ، سُقْياها الدَّمع، والَّذي يخفِّفُ من المُصاب أَنَّ الدُّموعَ الَّتي تَجودُ بها سحائب الرَّحمةِ أَكثرُ مِنَ الدُّموعِ الَّتي تَسيلُ مِنَ البُؤسِ والعَناء، (ولولا ذلك.. لجلَّ الخَطْبُ وعَمَّ الشَّقاء).

ـ لولا الرَّحمةُ.. ما درَّ ضَرْعٌ، ولا نَمَا زَرْعٌ، ولا تَرَعْرَعَ مولودٌ، ولا تَمَّ مقصودٌ.

ـ إذا قَسَا قلبُكَ علىٰ مَنْ دونَك.. فاذكرْ رجاءَك رحمةَ مَنْ فوقَك، لعلَّكَ تُفَجِّرُ يَنْبوعاً من صَخرٍ.

التَّواضع

ـ خيرُ ما قيلَ في التَّواضع: « طُوبَىٰ لمن تواضعَ من غَيْرِ مَنْقَصةٍ، وأَذلَّ نَفْسَهُ من غيرِ مَسْكَنةٍ »، (ما أَجْمَلَ هذه القُيودَ وما أَبْدَعَ!).

ـ ويومَ يفقَهُ المسلمونَ عامةً والعربُ خاصَّةً مَغْزَىٰ هذا الحديثِ الشريفِ.. يومئذٍ يخْلَعُ الشَّرقُ رِبْقَةَ الذُّلِّ، ويَرْفُلُ أَبناؤهُ بثوبِ عزٍّ قَشيب.

ـ التَّواضعُ شأنُ الكُبراء، ولا يكونُ متواضِعاً مَن كانَ وَضيعاً، (ولا ينبغي أَن يكون).

ـ تواضعُ الشَّريفِ شَرَفٌ آخَرُ، (فاحرِصْ أَن تجمعَ بين الشَّرَفَيْنِ إمَّا كنتَ شريفاً).

ـ أَحْوَجُ النَّاسِ إلى التَّواضُعِ الزُّعماءُ.

ـ التَّواضُعُ في غيرِ مَحلِّهِ ضَعَةٌ.

ـ ليسَ معنى التَّواضُعِ أَن تجهلَ قيمةَ نفسك، ولكن أَن تتجاهلَ ذلكَ من

حيثُ تَعْلَمُهُ ، وإلاَّ . . جمعْتَ بينَ الضَّعةِ والجَهْلِ ، وكانت هِمَّتُك دونَ مَنْصِبك .

- إذا أَدَّىٰ تواضعُك إلىٰ مَسِّ كرامتِك . . فاجتنبْ وَصْمَتَه ، (وأَكْثَرُ ما يكونُ ذلكَ مع اللِّئامِ ، ومِثْلُهم الجُهَلاء) .

- عجبتُ للوَضيعِ يُسمِّي نَفْسَهُ مُتَواضِعاً ، وأَعجَبُ مِنه مَنْ يُسمُّونَه كذلك .

الكبرياء وكبر النَّفس

- كِبَرُ النَّفس شيءٌ ، والكبرياءُ شيء آخر ، ولكنَّهما لدى الجهلاء من المتشابهات .

- كن كبير النَّفس تستغنِ عن الكبرياء .

- المتكبِّرُ مَن رفع نفسَه حيثُ لا فضيلة ترفعه ، (والكِبْر دمغ الحقِّ ، وغمطُ النَّاسِ) .

- التَّكبُّرُ ينمُّ علىٰ صاحبهِ بالصَّغار ، (ذلكَ بأَنَّ التَّفعُّلَ تكلُّفٌ ، وإنَّما يتكلَّفُ الشَّيءَ فاقدُه) .

- كِبَرُ النَّفْسِ حِجابٌ من الدَّنيئةِ ، وأَكثرُ ما تكونُ الدَّنايا من صِغارِ النُّفوسِ ، (فاخترْ لولدِكَ أَن يكونَ كبيرَ النَّفسِ أَوْ صَغيرها) .

- كُنْ كبيرَ النَّفْسِ تكنْ كبيرَ الفِعال ، (إنَّما يَفْعَلُ الكبيرَ الكبيرُ)[1] .

---

(١) هذا شطر بيت من قصيدة للمؤلف من استنهاض العربيّ لإحياء مجده ، وصدره :

كـن كبيـر الفعـال إن كنـت قـرمـاً . . . .

ومنها :

إنَّمـا المجـد فـي ظـلال المـواضـي ... حيث تشكـو مـن الـذكـور الـذكـورُ

ينظر ديوانه « ذكرىٰ حبيب » (ص٩٥) .

ـ بينَ كبارِ النُّفوسِ وصِغارِها حدٌّ للفضيلةِ يجهلهُ كثيرٌ من النَّاس .

ـ صِغارُ النُّفوس في الأُمَّةِ جراثيم سُوءٍ في جُثمان مَجْدِها ، (وما أَكْثَرَ هؤلاء في الأُممِ المحكومة !) .

ـ صِغَرُ النَّفسِ يَسْتَدعي سُقوطَ الهِمَّةِ ، وما وراءَ سُقوطِ الهِمَّةِ إلاَّ الهوانُ .

ـ رُبَّ صِغار النُّفوسِ في طيالسةِ كُبراء ، (ولن تُفلحَ أُمَّةٌ يكثرُ فيها أَمثالُ هؤلاء) .

ـ سَلِ المستكبِرَ بماله : (ماذا أَعطىٰ ؟) ، وسلِ المستكبرَ بعلمه : (ما أَفادَ ؟) (فإن كانا قد فعلا . . فهما بنفسِهما كبيران ، فعلاَمَ يستكبران ؟ وإن لم يكونا قد فعلا . . فحسبُهما إعياؤهما عن الجواب) .

ـ في الأُمَمِ الجاهلةِ يكثرُ صِغارُ النُّفوسِ ، وفي الأُمم العالمة يَكْثُرُ كِبارُها .

ـ (ذلك بأَنَّ العالِمَ يَعْرِفُ قيمةَ نفسهِ ، أَما الجاهلُ فيَجْهَلُ كلَّ شيء حتَّىٰ نفسَه) .

ـ يترفعُ كبيرُ النَّفْسِ عن الدَّنيئة فيُسمِّيه الجاهِلُ مُتكبِّراً ، ويُصيبُ صغيرُ النَّفسِ من الدَّنايا ما شاءَ جَهْلُهُ ، ثُمَّ يَعُدُّ ذلكَ تواضُعاً ، (وأَكثرُ ما يقعُ قلبُ الحقائق من هذا القبيل في بلادِ الجَهْلِ) .

ـ مَثَلُ النَّفْسِ مَثَلُ الوِعاءِ ، فإذا استدعيتَ نَفساً لعملٍ . . فلا يفوتنَّك قياس بينهما ، وإلاَّ . . وَسَّدْتَ الأمر إلىٰ غير أَهلهِ ، فعرَّضتَه للفساد ، (إنَّ صِغار النُّفوسِ لا تَسَعُ كِبارَ الأعمال) .

ـ مِن مَخايلِ كِبَرِ النَّفسِ استِصْغارُ العَظائِم ، ومن مخايلِ صِغَرِها استِعْظامُ الصَّغائر ، فإمَّا اشْتبهَ أَمْرُ صاحِبك عليك . . فانظُرْ إلىٰ أَعماقِ نَفْسِه من هذه النَّافذةِ ينمُّ لك علىٰ دخائِلها ، ولله أَبو الطَّيِّبِ حيثُ يقولُ :

وتَعْظُمُ فـي عَيْـنِ الصَّغيـرِ صَغيـرةٌ   وتَصْغُـرُ فـي عَيْـنِ العظيـمِ العَظـائِـمُ

ـ من أَرادَ أَنْ يَعْرِفَ كِبَرَ النَّفْسِ ومجانيه ، وصِغَر النَّفْسِ ومآسيه . . فلينظرْ إلى العَرَبِيِّ في يَوْمَيْ إقبالهِ وإِدْبارِهِ ، (فإلى اللهِ المُشْتكىٰ من حاضِرٍ لا يَقْبَلُ القياسَ علىٰ غابرٍ إلا علىٰ حدِّ التَّضادِّ) .

ـ ومتىٰ يأْذنُ اللهُ للولدِ السَّفيهِ أَنْ يغارَ لميراثِ أَبيه فيَسْتَرْجِعَ حَقّاً مَغْصوباً ، ومَجْداً مَسْلوباً ؟

الصَّبر

ـ الصَّبْرُ من عناصرِ البُطولة إلاَّ أن تشوبَه مَسْكَنةٌ أو ذِلَّة .

ـ الصَّبْرُ مَحمودٌ إلاَّ أَنْ يُهانَ دينٌ ، أَو تُمسَّ كرامةٌ ، أَو يُغْصَبَ حَقٌّ ، (وفي مقدِّمةِ الحُقوقِ أَن تكونَ حُرّاً في وطنٍ حُرٍّ) ، (فهل انتبه لهذا المسلمُ والعربيُّ ؟ أَم لمَّا يَبْرحا بَعْدُ في سُباتِهما العميقِ ؟!)

ـ الصَّبرُ مُرٌّ أَوَّلُه ، حُلْوٌ آخِره ، (ولكنْ بين المبتدأِ والمنتهَىٰ مراحلُ قلَّما أَنْهاها السَّائرون) .

ـ إذا عضَّكَ الدَّهرُ . . فتجمَّل بالصَّبرِ إمَّا كُنتَ كريماً .

. . . . إنَّ الكريمَ على البلاءِ صَبورُ[1]

---

(١) شطر بيت من قصيدة للمؤلف ، صدره :

ولقد صبرتُ على البلاء تكرّماً . . . .

وكان مطلعها :

شرّ الطباع لجاجة وغرور ومن الرزية أن يسود حقير

ومنها :

يا ملبس الأيام غير لباسها ثوب الزّمان على الزّمان قصير

ينظر : ديوانه « ذكرىٰ حبيب » (ص٩٣) .

ـ الصَّبْرُ حِلْيَةُ البُؤَساءِ ، (فلْيَحْذَرْ فاقِده أَن يَجْمَعَ بين عُطْلَيْنِ) .

ـ يقولون : (الصَّبْرُ مِفتاحُ الفَرَجِ) ، فهلاَّ شرطوا لذلك معرفةَ ربِّهِ الباب ؟ وإلاَّ . . فربَّما خدَعَ المَرْءُ نفسَه ، وكانَ المسيرُ من غيرِ مَصير .

ـ كم صابرٍ أَخطأَ الطَّريقَ فانتهىٰ به الصَّبْرُ إلىٰ حافَّةِ القَبْرِ وما نَقَعَ غُلَّةً ، ولا شَفَىٰ عِلَّةً .

ـ آفَةُ البَلْوَى الجَزَعُ ، وآفةُ النُّعْمى الغُرورُ ، ودَواءُ كِلَيْهِما الصَّبْرُ .

ـ نُسَمِّي المُبْتَلَىٰ صابراً إذا لم يَجْزَعْ ، ولا نسمِّي المُنْعَم كذلك إذا لم تُطْغِهِ النِّعْمَةُ ، ثم لا نُثْنِي على الثَّاني ثَناءَنا على الأَوَّلِ ، وما الأَوَّلُ بأَحْوَجَ مِنَ الثَّاني إلى الصَّبر ، ولا أَحقَّ منهُ بالثَّناءِ!

ـ إنَّ الَّذين يَصْبرونَ علىٰ مَواهِبِ الإقبالِ ثُمَّ لا يَسْكَرونَ بخَمْرِ الغُرورِ أقلُّ من الَّذين يَصْبرون علىٰ نوائب الإدبار ثمَّ لا يَغَصُّونَ بريقِ الشَّكْوىٰ ، ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ .

ـ الحياةُ مِحْنَةٌ ، والمجتمعُ فِتْنَةٌ ، فماذا كان يُقاسي الإنسانُ مِن هذا الحَنْظَلِ لَوْ لَمْ تُسْقَ بماءِ الصَّبرِ جُذورُه ؟

ـ بِحَسْبِ الصَّبْرِ أَنَّ لكلِّ عملٍ صالحٍ أَجْراً مَحدوداً ما عداه ، اذكُرْ قولَه تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

الاعتزال

ـ إذا صحَّ أَنَّ الحياةَ حَرْبٌ . . فالاعتزالُ هَزيمةٌ ، (لكن الشرط صحيح ، فالجزاء مثله) .

ـ الاعتزالُ ضربٌ من الانتحار ، ولكنَّه أَكثرُ مِنْه جُبْناً ، وأَقَلُّ جُنوناً .

ـ كَم معتزِلٍ لو وَجَدَ مَجالاً لهواه . . لمشىٰ علىٰ بَطْنِه ، وانغَمَسَ في الدَّهماءِ .

ـ رُبَّ اعتزالٍ أَشْبَهُ بتجمُّعِ الأَسدِ للوُثوبِ ، (فحبَّذا الكرُّ والفرُّ) .

الاعتماد على النَّفس

ـ عنوانُ رجولية المرءِ اعتمادُه علىٰ نفسِه .

ـ لولا الاعتمادُ على النَّفس . . لانتهَتْ سلسلة الاتِّكالِ بين البشر بما يُمثِّلُ المجتمعَ (دارَ العجزة) ، فلا ابتداعَ ولا اختراعَ ، ولا حضارةَ ولا عمران .

ـ من اعتمدَ علىٰ غيرِه . . كانَ منه مكانَ الظِّلِّ من الشَّاخِص ، ومحا نفسَه من لَوْحِ الوُجود ، (فيا مَوْجُودُ ؛ كيف رضيتَ أَن تكون عَدَماً ؟!) .

ـ هُما أَعميان : أَعمىٰ بَصَرٍ يعتمدُ علىٰ عَصاً ، وأَعْمَىٰ بَصيرةٍ يَعْتَمِدُ علىٰ إنسانٍ مثلِهِ ، (وإنما الفرقُ بينَهما أَنَّ الثاني غَيْرُ مَعْذور) .

ـ من اعتمد علىٰ نفسه . . سلخ قوةً من ضعف ، ومن اعتمد على غيره . . سلخ ضَعْفاً من قوَّة ، (فانظر أيُّهما أَحَبُّ إليك ، وأَفضلُهما لديك ؛ أَن تكون قوياً وأَنت ضعيف ، أَم أَن تكون ضعيفاً وأَنت قوي ؟) .

ـ ما أُتيَ أَبناءُ النُّبلاءِ إلا من وِجهةِ الاعتمادِ علىٰ مَجْدِ الآباء ، (فكان المَجْدُ أَضْيَعَ[1] للمجد) .

ـ لولا سوءُ الاعتماد في سلالات الأَمْجاد . . لتضايقَ مقدمُ العِصاميِّ عند النِّزال ، (فلا قتلَ قتيلاً ، ولا أَصاب سلبَه) .

ـ حسبُ العِصاميِّ افتخاراً قُدْرَتُه علَى التَّأْسيس ، وحسبُ قرينِهِ عاراً عَجْزُهُ عن التَّشييد ، (وملاكُ أَمْرِهما في ذلك : الاعتمادُ على النَّفس وعَدَمُه) .

ـ مِن أَجملِ ما قيل في الاعتماد على النَّفس قولُ الطُّغرائي :

وإِنَّمــا رَجُــلُ الــدُّنيــا وواحِــدُهــا   من لا يُعَوِّلُ في الدُّنيا علىٰ رَجُلِ

---

(١) يقول المؤلف : نعلمُ أننا هنا قد صغنا (أفعل التفضيل) من الرباعي علىٰ خلاف القياس ، ولكننا لم نجد كلمةً تقوم مقامها ، ولكل كلمةٍ مع صاحبتها مقام ، فكرهنا فرط الجمود .

ـ الاعتماد على النَّفس في الأُمم مثلُه في الأَفراد ، (فلْتَنْتَبِهْ لهذا الأُمَّةُ الَّتي تُريد الحياةَ) .

ـ لن يستعيد العربيُّ مجده حتَّىٰ يعتمدَ علىٰ نفسه ، متوكئاً علىٰ عصاه ، متوكِّلاً على الله ، (كما فعل آباؤه من قبلُ ، فأَورثوه ذاك المجد العظيم) .

التَّوكُّل والاتِّكال

ـ التَّوكُّلُ شيءٌ ، وما يسمونه الاتكال شيءٌ آخر ، (فليفقه ذلك من يصفون الإِسلامَ بأَنَّه اتِّكاليٌّ ، ويُسمُّون المسلمين اتِّكاليين) .

ـ بين التَّوكُّل والاتِّكال من النِّسَبِ[1] ما بين المُشَجِّع والمثَبِّط ، (فانظرْ كيف يشوِّهون حقائق الدِّين الحنيف حتَّىٰ كان التَّباين تماثُلاً !) .

ـ التَّوكُّلُ مفتاحُ الأَعمال ، ومهدُ الآمال ، أَما الاتِّكالُ . . فجمود في الرُّوحِ ، وشَلَلٌ في الأَعصاب .

التَّوكُّلُ استِمدادٌ من الخالقِ عند مباشرةِ العمل ، والاتِّكالُ اعتمادٌ على المخلوق بداعيةِ الكسل .

ـ التَّوكُّلُ شرعيّاً غيرُه وضعيّاً ، (وبسكين الالتباس بينهما انتحر المسلمون) .

ـ لو لم يكنْ لَدَى المسلمين غيرُ التَّوكُّلِ . . لكفاهم سلاحاً صارماً في معترك الحياة ، (ولكنَّهم أَخطَؤوا فهمَ معناه ، فكان أَشْبَه شيءٍ بالسَّهْمِ المُرْتَدِّ نحوَ راميهِ) .

---

(١) النِّسَبُ عند علماء المنطق أربعٌ : (التباينُ) ، (والتماثلُ) ، وهما معروفان ، و(العموم والخصوص من وجه) ، وذلك أن يجتمع الشيئان في مادّةٍ ، ويفترقَ كل منهما في مادّةٍ ، و(العموم والخصوص المطلق) : وهو : أن يجتمعا في مادّة ، ويفترق الأعم منهما في مادة .

ـ التَّوكُّلُ أَن تعملَ معتقداً أَنَّ من ورائك قوةً خفيَّةً تُعينُك على العمل ، وتمهِّدُ لكَ سبيلَ النَّجاحِ ، فتزداد جرأَةً ونشاطاً ، لا أَنْ تقعدَ عن العمل ، وتلقي زمام النَّاقة علىٰ سنامِها ، فإذا هي ضالَّةٌ أَوْ مَسْروقةٌ لا تدْري أَيْنَ تَلْتَمِسُها ، (ولَشتَّانَ ما بين النَّاهضِ والقاعدِ) ، ثم صلواتُ اللهِ على القائل : « ٱعْقِلْ وَتَوَكَّلْ » .

ـ مَثَلُ التَّوكُّلِ للمسلم في مزاولة الحياة مَثَلُ القوَّةِ المعنويَّة للجيش في ميادين القتال ، ولكنَّا أَسأْنا الاستعمال ، وإنْ كنت في ريب من ذلك . . فتدبر قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ .

ـ إنْ صحَّ أَنَّ التَّشجيعَ من أَكبرِ بواعثِ النَّجاحِ . . فإن عقيدةَ التَّوكُّل في الإسلامِ من أَكبرِ المشجِّعات ، ولكنَّا جعلناها من أَشنعِ المثبِّطات ، (فمتىٰ ننفض غُبار الجهلِ والخمول ، ونغسل ما لحق الجوهرَةَ من أدران ، ونعيدُ عصا معجزاتنا سيرتَها الأُولىٰ ؟) .

ـ رُحْماكَ يا مُسْلِمُ يا ابنَ النُّورِ وربيبَ الظَّلام .

ـ ثُمَّ رُحماكَ يا عَربيُّ يا ابن الثُّرَيَّا وحفيدَ الثَّرىٰ .

الفضيلة

ـ الفضيلةُ زهرةٌ ناضرةٌ ، ولكنَّها محاطةٌ بالأَشواك ، (لذلك قلَّ أَهلوها ، وكثُرَ منتحلوها) .

ـ التمستُ الفضيلةَ في كلِّ مكان : في دور العلم ومعاهد الفنِّ ، في مرافق الصُّناع وحوانيت التُّجار ، في بيوت الكبراء والأَغنياء ، في قصور الملوك والأُمراءِ .

ـ فما وجدتُها إلا حيثُ وجدتُ تمثالَ الأَخلاقِ مُزْداناً بزُهورِ العِلْم ، فعلمتُ أَنَّ الفضيلةَ شيءٌ غيرُ ما يظنُّه كثيرٌ من النَّاس .

ـ قُلْ لي ما حويتَ من عِلْمٍ أَو فعلت من خيرٍ . . أَعرف ما لكَ من الفضيلة ، (وإِلاَّ فعَلَيْها ـ وليس عليك ـ السَّلام) .

ـ تكثرُ الفضيلةُ حيثُ يكثرُ محترموها .

ـ ما قتلَ الفضيلةَ مثلُ إِنكارها ، ولا قَضىٰ عليها كلَّ القضاءِ مثل احتقارها ، (وهي في بلاد الجَهْلِ مُنْكَرةٌ محتقرةٌ في آن واحد) .

ـ مَثَلُ الجاهلِ وَرَبِّ الفضيلةِ مَثَلُ الخُفَّاشِ والنُّورِ .

ـ إِذا أَردتَ إِحياءَ أُمَّةٍ . . فاجعلْ شعارها هاتين الكلمتين : لا سلطة إِلا للنِّظام ، ولا ميزةَ إِلا للفضيلة .

ـ خيرُ صنوفِ الفضيلةِ المفاداةُ ، (وقلَّ المفادون) .

ـ لتهمَّكَ الفضيلةُ ، ولا يهمَّكَ موضعُها ، (فربَّما كانت في طِمْرٍ بالٍ ، ورداءٍ مرقوع) .

ـ ما أَجملَ الفضائلَ إِذا تكَلَّلَتْ بالفواضل[1] وما كان أَجملَ العربيَّ أَزمانَ رفلَ منهما بثوبٍ قشيب ، فأَفاض على الكونِ نوراً ، أَما اليوم . . فطمرٌ بالٍ ، ووِفاضٍ خالٍ ، يتقلَّبُ من مطارف زمانه علىٰ حسك ظلم وظلام ، ثم لا يذود عن حوض ، ولا يلتمسُ النُّور .

التَّرْبيَة

ـ هي حجر الزَّاوية من بناء الحياة ، وأَول مَن يضعها يَدُ الأُمِّ .

ـ لو أَنصفَتِ القوانينُ لأَخذَتِ المُرَبِّي بجريرة المُرَبَّىٰ ، فَشَرَكَتْهما في العقوبة ، (ويومئذٍ لا يُهْمِلُ طفلاً أَولياؤه) .

---

(١) يريد بالفضائل : جمع فضيلة ، وهو ما كان مقصوراً على الذات ، ويريد بالفواضل : الفضل ، وهو ما تعدىٰ إِلى الغير بالخير .

ـ للتَّربية عواملُ ، تبدأُ من حِجْرِ الأُمِّ ، وتنتهي بالسِّياحةِ ، وقَلَّ في الشَّرق من تيسَّرَتْ له بأَسرها .

ـ من لم يجدْ غيرَ الزَّمان مُربِّياً . . كان حقيقاً أَن يُسمَّىٰ بطلاً ، (وما أَكثرَ أَمثالَ هؤلاء في الشَّرق!) .

ـ التَّربيةُ غيرُ العِلْمِ ، وَهِيَ إِكْليلُه الوَضَّاء .

ـ العِلْمُ من غير تربيةٍ سلاحٌ مسموم .

ـ التَّربيةُ طابَعٌ ، فيا شَقاءَ المُربَّىٰ إذا كان نحاساً .

ـ إذا رسخَتِ التَّربيةُ . . استحالَتْ ملكةً في النَّفس ، (فانسِفْ هذا الطَّورَ إن استطعت) .

ـ إذا ساءَتِ التَّربيةُ . . لا ينفعُ معها العلم مهما كان غزيراً ، (قد يتجادلان في حومة التَّأْثير ، ولكن الغلبةَ للتَّربية في الغالب) .

ـ إذا رأَيتَ علماً كاملاً في شيءٍ من مخايل النَّقص . . ففتِّشْ عن التَّربية ؛ (فإن النَّقصَ لا يأْتي من وِجْهَة الكمال) .

ـ التَّربيةُ الفرديةُ غيرُ التَّربيةِ الاجتماعيةِ ، فلا عجبَ لمجتمَعٍ فَقَدَ الثَّانيةَ أَن يكون ظلاماً مهما شعَّتِ الأُولىٰ نوراً .

ـ تربيةُ الفردِ تسوقُه إلىٰ خدمةِ نفسهِ ، فإذا اجتمع بمثله . . كان كلٌّ في وادٍ ، فيفترقان علىٰ غيرِ شيء ، (ومن هنا تفشلُ المشاريعُ العامَّةُ ، ويخسرُ المجتمَعُ مواهب مُنوِّريه) .

ـ رُبَّ شعبٍ يشكو قحط الرِّجال وفيه رجال ، ولكنَّهم يجبُنون مجتمعين ، وينشطون منفردين ، فيراهُم كـ(لارجال) ، ولو تَدَبَّر . . لشكا فَقْدَ التَّربيةِ الاجتماعية ، (وفي أَنقاض الاستبداد تجدُ هاتيك التَّماثيل) .

ـ مَن أَرادَ إِحياءَ شعبٍ . . فليوحِّدْ تربيةَ أَبنائه .

ـ إِنَّ توحيد التَّربية والتَّعليم إِكْسيرُ حياةِ الشُّعوب .

الولد

ـ ولدُكَ جُزْءٌ مِنْكَ ، فياكُلُّ ؛ اخترْ لجزئك ما تشاء .

ـ الولد نعمة وفخار ، أو نقمة وعار ، والخيارُ إليك ، مادام زمامه في يديك .

ـ الصَّبِيُّ في العقد الأَول لغز يصعب حلُّه ، وفي العقد الثَّاني مِرْجلٌ اشتدَّ غليانه ، وبطلُ التَّربية من يفهمه حتَّى العشر ، ويصونه حتَّى العشرين .

ـ للتَّربية أَدوار وأَطوار .

ـ فإذا روَّضتَ ولدك ، ثم أَدبته وعلمتَهُ ، ثمَّ هذَّبته . . فقد قضيت ما عليك ، ولم يبقَ إلاَّ أَن تدعه حُرّاً .

الولدُ وأَبواه

ـ حق الولد علىٰ أَبويه أَن لا يدعاه أَعزل ، حتَّىٰ إذا فاجأَه المعترك . . كان قتيلاً أَو أَسيراً .

ـ وحقُّهما عليه أَن يخدمَهما بالسَّلاح الَّذي جهَّزاه به .

ـ لقد عرف الأَبوان أَنَّ لهما علىٰ ولدهما حقّاً ، فهل عرفا أَنَّ له عليهما حقّاً كذلك ؟ (وإنَّما لكلٍّ وجهةٌ) .

ـ ليس بِرُّ الوالدين إلاَّ من قبيل الوفاء لدَيْنٍ سابق ، (فأَكثرا من ذلك أَو أَقِلاَّ أَيها الوالدان) .

ـ قلَّما أَحْسَنَ الوالدانِ تربيةَ ولدِهما ثُمَّ لَقِيا منه عقوقاً .

ـ برَّ بوالديكَ ؛ ليكونَ ولدُكَ بكَ بارّاً .

الأُمُّ

ـ الولدُ صورةٌ مُصَغَّرةٌ من أُمِّهِ ، فاحذر أَن يكون الأَصلُ مشوَّهاً .

ـ رُبَّ والدةٍ تقودُ ولدها إِلىٰ غيابة جُبٍّ وتظنُّ أَنها ذاهبةٌ به إِلىٰ روض نضير ، (وما أَكثرَ أَمثالَ تلك الوالدات في الشرق) .

ـ إِنَّ أَوَّلَ درسٍ يتلقفه الولد من فَم أُمِّهِ ، فيا ويحه إِذا كانت دروس جهلٍ وغباوةٍ .

ـ الأُمُّ مَثَلُ الحنانِ الأَعْلَىٰ ، ولكنْ طالما أَورثَ هذا الحنانُ شقاءً إِذا لم يُقارنه العِلْمُ .

ـ الولدُ غرسُ أَبيه ، وأَوَّلُ نعمةٍ يُسدِيها إِليهِ قبل وُجوده أَن يختارَ لَهُ طِيبَ المَنْبِتِ ، وذلك حِجرُ الأُمّ ، وخيرُ ما قيل في هذا : (تزوَّجوا في الحجر الصالح) ، وأَدَقُّ منه معنىً وأَلطفُ إِشارةَ الحديث الآخَر : « إِياكم وخضراءَ الدِّمن ، فإِنَّ العرق دسَّاس » .

الأُسْرَة

ـ للأَكواخ تأْثيرٌ علىٰ تربية الأَفراخ .

ـ يَشِبُّ الطِّفلُ علىٰ تقاليد أُسرته ، ثمَّ تمحو الأَيامُ ما تشاءُ وتُثْبِتُ .

ـ ربَّما أَفسدتِ البيوتُ ما أَصلحت المدارسُ ، ثمَّ يُلْقون التَّبعة على المدرسة ، أَو المعلِّمِ المسكين .

ـ قلَّما ذوىٰ غصنٌ غرستْهُ يَدُ المدرسة ، وتَعَهَّدَه بالسَّقْي البيت .

الأَمْثالُ السَّائِرة

ـ الأَمثالُ في البلدان نموذج وترجمان ، فإمَّا يزدرينَّها مُزْدرٍ . . فلا تفوتنَّه ما نمَّتْ عليه .

ـ أَمثالُ كُلِّ بيئَةٍ عُصارة دماغ هيئتها الاجتماعية ، (فاعمد منها إِلىٰ أدلِّ عنوان ، وأَوضح برهان) .

ـ تتبعْتُ أَمثالَ بيئةٍ فإذا بضعة وثلاثون منها يحوي كلمة (كَلْب) ، ومثل هذا المقدار يحوي كلمة (حمار) ، فذكرتُ حديقة الحيوانات .

ـ من حُسن تربية الأَطفال أَن يجتنبوا ما خسَّ مِن الأَمثال ، (ولا ريبَ أَنَّ الكبيرَ أَحَقُّ بذلك من الصَّغير) .

ـ إِذا استوت الخاصةُ والعامَّة في الأَمثال . . فهما أَمثال ، (فأَجدرُ أَن تكونَ من أَهل الحشمة والثَّقافة ، والأَدب والتَّهذيب) .

ـ إِذا رَوَيْتَ أَحسنَ ما حفظتَ ، وحفظتَ أَحسنَ ما اقتنيتَ ، واقتنيتَ أَحسنَ ما رأَيت . . فقد دللت من نفسك علىٰ أَدبٍ ونبل وعقل .

ـ ربَّما بلغتَ بالمثَلِ السَّائر تُصيبُ به المحزَّ ما لا تبلغُه بكلِّ ما أُوتيتَ من قوة العارضة ، وفضل البيان .

الأَناشيد

ـ الأَناشيدُ تغاريد ، لها على الأَفراخ تأْثير شديد ، (ولاسيَّما يوم يستنسرُ البغاثُ) .

ـ قيمة الأُنشودةِ للتِّلميذ أَن يفقَهَ اليومَ معناها ؛ ليدركَ غداً مغزاها ، (وإِلاَّ . . فما أَغنى المدارس عن أَصوات الببغاء!) .

ـ ما دامت الغايةُ من الأَناشيد زرعَ العواطفِ الشَّريفةِ في قلوب الصِّغار . . فلا يفوتنَّ الزَّارعَ حسنُ انتقاءِ البذور .

ـ ليت شعري عاطفةُ أَيِّ شيخٍ لا تتحرك ، وأَعصابُ أَيِّ كهل لا تتهيَّج ، ثمَّ دَمُ أَيِّ شابٍّ لا يغلي ، وجدرانُ أَيَّةِ مدينة لا تطرب ، إِذا مشت قوافلُ النَّابتةِ ، بخطوات ثابتة ، فملأَت الشَّوارعَ والجوادَّ بدويِّ الأَناشيد الشَّجيَّة ، تتجاوب أَصداؤها في أَجواز الفضاء ، (مشهدٌ ـ لَعَمْرُ أَبيك ـ يهزُّ أَوتار القلوب ، فيبلغ بها حيث يريد) .

المدارس

ـ المدارس منبثق نور ونار ، وقد لا تأْكلُ نارُها إِلا الهشيم .

ـ المدارس دور العلم والفَنِّ ، وقد لا تخلو من الجراثيم ، (فاحذر من عدوى الأخلاق هناك) .

ـ أَفضلُ المدارس ما جمع بين العلم والتَّربية ، والفن والتَّهذيب ، (وقليلٌ ذلك الأَفضل) .

ـ بين طريقي المحكمة والسِّجن طريقٌ ثالث لا يؤدي إِليهما ، ذلك طريق المدرسة .

ـ لو خدمت دور العلم بقدر ما تخدم معامل السِّلاح . . لأَغلق كثير من السُّجون ، وخُفِّفَ من عنائه واضع القانون ، (ولكن لم تشأْ ذلك مدنيَّةُ عصر النُّور) .

ـ المدارس سلاح الأُمم الضَّعيفة ؛ (لذلك يأْباها جبابرة الاستبداد ، وعفاريت الاستعمار) .

ـ تبني الحكوماتُ المستبدةُ القلاع ، والأُممُ الضَّعيفةُ تبني المدارس ، والنَّصرُ لحملة الأَقلام في هذا المعترك الرَّهيب .

ـ لَيْسَتِ المدارسُ الَّتي تخرِّجُ أَدمغةً مُفَكِّرَةً بأَفضلَ من المدارس الَّتي تخرِّجُ أَيدياً عاملةً ، (إِنَّ حياة الأُمة لا تتمُّ بفريق من أُولئك دون الآخرين) .

ـ إِنَّ الأُمَّةَ الَّتي يكفيها مئتا مفكِّر لا يكفيها مليونا عامل ، (فلتستكثر من أيِّهما شاءت ، وهي الَّتي تريد الكفاف) .

ـ المدارس مغارس ، فانظر في أَيَّةِ تربة تغرس ، وأَيَّ ثمر ستقطف .

ـ خابت أُمَّةٌ لا ينبت في مدارسها غير عشاق الوظائف ، فإذا هي مسارح فخفخة ، ومعامل أَزياء ، وحقول اتِّكال .

ـ من ظن أَدمغةَ التَّلاميذ حقائب . . فقد أَخطأَ سبيل التَّعليم ، إِنما هي مَرايا تُصْقَلُ ؛ لتُجْتَلىٰ فيها صُوَرُ الكائنات .

ـ العِلْم روحٌ تنفخُ ، لا مسائل تنسخ ، (فلينتبهْ لذلك المعلمون والمتعلمون) .

ـ مَنْ عُنِيَ بحفظ المسائل وجهل شأْن الملكة . . فقد ضلَّ طريقَ العلم ، وسقط في هاوية الجمود .

ـ لا قيمةَ للعلمِ من غيرِ عملٍ ، (فالتمسْ منَ المدارسِ ما يعقدُ من حبلِ الحياةِ طرفيهِ) .

ـ مَثَلُ النَّظرياتِ لا تنتهي إِلىٰ عملٍ مَثَلُ الأَشجارِ لا تأْتي بثمرٍ ، (فاحذرْ منَ المدارسِ ما تذهبُ فيها متاعبُكَ سُدىً) .

ـ من كوَّن من دماغ التِّلميذ نظرةَ مفكِّر ، وريشةَ مصوِّر ، ووثبة مُتَجَمِّع . . فقد خرج من العهدةِ ، ووفَّى التَّعليمَ حقَّه .

العُشَراء

ـ إذا أَلقيت حبل الطِّفل علىٰ غاربه . . فلا تأْمن عليه من سوء العشير .

ـ ربما فعَل بالطِّفل عُشراؤه ما لا تفعله مدرسته وأَولياؤه ، (فاجهد أَن يكون عشير ولدك معواناً لك لا عليك) .

ـ أُنسُ ولدِك بعشيره أَكثر من أُنْسِهِ بك ، وإِذا امتزج الرُّوحان . . فليس لثالث عليهما سلطان ، (فاحذرْ من روحٍ هناك خبيث) .

ـ أَنت مرآة عشيرك ، (فاحذر سوء الانطباع من سيِّء الطِّباع) .

ـ عجبتُ لمن يخشىٰ عدوى المرض من السَّقيم ، ولا يخشىٰ عدوى الأَخلاق من العشير .

ـ من سمح لك بعشرته . . فقد برز لك عن قشرته ، (فإِن جهلت عشيرَك كنت غبيّاً) .

ـ مِن الغباوة أَن يجهل المرءُ عشيره ، ومن الحمق أَو الغرور أَن لا يجهد أَن يعلمه .

ـ اعرف عشيرك في غضبه ورضاه ، (فرُبَّ حَمَلٍ في الرِّضا ذئبٌ في الغضب) .

ـ إِذا رقَّ ثوبُ العشرة . . شفَّ عن ذات الصُّدور ، (وهنا المزالق) .

ـ العشرةُ خوانٌ ، ملحه التَّسامح ، (ولا تلذُّ بدونه ولا تدوم) .

ـ من اللُّؤم أَن ينشر بساط العشرة بعد الطَّيِّ ، (وإِنَّ يداً تمتدُّ لمثل ذلك جدير بها أَن تقطع) .

ـ أَفضلُ العشيرين . . مَن وَسِعَ صاحبَه ، (فاختر أَن تكون فاضلاً أَو مفضولاً) .

ـ رُبَّ عشير مجلبةُ عار ، (فإِمَّا عاشرْتَ . . فأَحسنِ الاختيار) .

ـ أَولُ ما يَبْدو الوَفاءُ بَيْنَ العَشيرين مِن أَكثرِهما كرماً .

ـ وأَوَّلُ ما يَبْدُو الجَفاءُ مِن أَشدِّهما لُؤْماً ، (وطالما استفادَ اللُّؤَماء مِن الكُرماءِ حتىٰ يكشفَ عَنْ وجهِهِ القِرْدُ) .

ـ فِي غَدْرِ اللَّئيم بالكريم ما يَجْعَلُهُ سُوءَ مِثالٍ ، ويَتَجاوَزُ بالجَريمة حدَّ بينهما ، (وهُنا البَلاءُ) .

ـ وَدَعْني أَتَنَفَّسُ الصُّعَداء وأَقولُ : (رُحْمَاكَ ربِّي ما أكثر الخَبيث) ، وسيقول معي كذلك كُلُّ مَنْ عَلَّمتْهُ الأيام ، وآلَمَتْهُ التَّجاريب .

كنتُ أقولُ لرهين المَحْبِسَيْنِ : ما حَمَلَهُ علىٰ أَنْ يقولَ :

فَظُنَّ بسائرِ الإخوانِ شرّاً ولا تأمَنْ علىٰ سِرٍّ فُؤادا

إلا أنَّه كانَ من فئةِ المُتَشائمين .

وكنتُ أقولُ : إذا أخذْنا بنصيحةِ الشَّيْخِ . . كَيْفَ تَطْمَئِنُّ النُّفوسُ لِتتآلَفَ ؟! وكيفَ تتقَارَبُ لِتتكاتَفَ ؟!

حتَّىٰ إذا سَبَرْتُ الغَوْرَ ، وأَماطَتْ يدُ الأَيّامِ النِّقابَ . . أَصْبَحْتُ في حَيرةٍ بين الشَّيخِ ومُعارضيه ، أتمثلُ مِن حينٍ إلىٰ حينٍ بقولِ سَمِيِّي أولِ الحكيمين :

إنْ شِئْتَ أَنْ يسْوَدَّ ظَنُّكَ كُلُّه فَأَجِلْهُ في هذا السَّوادِ الأَعْظَم

البيئة

ـ البيئةُ مِن أكبرِ عواملِ التَّربيةِ ، (فاحذرْ من جانٍ غيرِ مسؤول) .

ـ البيئةُ سَيْلٌ جارفٌ ، لا يَثْبُتُ أَمامَه إلاَّ الأَبطال ، (وقليلٌ ما هُمْ) .

ـ رُبَّ سابقٍ لولا ضيقُ بيئتهِ . . لكان المجلِّي في مِضْمارِ الحياة .

ـ كَمْ أَسَدٍ استَعْصَتْ عليهِ بيئته أن تكون له عَريناً ، فكان فيها ثعلباً .

ـ يتلوَّنُ الماءُ بلونِ إنائه ، فإمَّا شذَّ رجلٌ عن صِبغةِ بيئتهِ . . فاعلمْ أَنَّ فيه شيئاً من عُنْصُر البطولة .

ـ أَشدُّ النَّاسِ غمّاً وأكبرُهم مُصيبةً مَنْ ضاقَتْ سماءُ بيئتِهِ أَنْ تَسَعَ وَحْيَ أفكارِه .

ـ كم مِن أبناءِ بيئةٍ قَضَوْا شهداءَها ثم ذَهَبَتْ دماؤهم هَدَراً ، (القاتلُ مَجهولٌ ، والطَّبيبُ جاهلٌ ، ووليُّ الدَّم أَجْهَلُ) .

وإنَّ أَمثالَ هؤلاء الشُّهداءِ في الشَّرْقِ لَكثيرٌ ، فقلْ مع القائل إن شئت :

سأَقْضي شَهيدَ الجَهْلِ مِن أَهل بيئةٍ   قَضَوْا شُهَداءَ الجَهْلِ لم يَفْقَهوا أَمرا

يمـرُّ بهـم خيـرُ الحيـاةِ وشـرُّهـا   فمـا عَـرَفُـوا خَيْـراً ولا أَنكـروا شـرّا

المسلك

ـ لِكلِّ مَسْلَكٍ خواصٌ يخضعُ لها ربُّه ، (والتَّمرُّدُ عقوقٌ أَو شذوذٌ) .

ـ من تمرَّدَ علىٰ مَسْلَكٍ . . فجديرٌ أَن لا ينتسبَ إِليه .

ـ ربما لَحِقَ مَسْلَكاً لطائفٌ ليسَتْ من خواصِّه ، (فالشُّذوذُ عن مثلِها ضَرْبٌ من البُطولةِ وإِصلاح للمسلك) .

ـ ما كنتَ مُتَّخِذاً مَسْلكاً لولا شيءٌ فيه علىٰ شاكلتِكَ ، ثم تَزْدادُ تلك الجاذبيةُ جَلاءً وتَثْبيتاً .

ـ مناهجُ الحياةِ شتَّىٰ ، فاخترْ أَقْرَبَهُنَّ إِلىٰ فِطرتِك ، ثم استقمْ .

ـ رُبَّ ذي مَسْلَكٍ عارٌ علىٰ مُنْتَسبيه .

ـ ما أَفسدَ مَسْلكاً مِثلُ الدُّخلاء فيه ، ومن حقِّ (الدُّودة الزَّائدة) أَنْ تُقْطَعَ ، وإِلاَّ . . أَخلَّتْ بصحَّةِ الجَسَدِ كلِّهِ .

ـ أَكثرُ ما يكونُ الدُّخلاء في المسالك المُثْلىٰ ، (والمَوْرِدُ العَذْبُ كثيرُ الزِّحام) ، فيا مُصيبةَ علماءِ الأَبدان وعلماءِ الأَديان ، بل يا مصيبةَ المجتمعِ من جنايةِ الدُّخلاءِ على القُلوب والأَرْواح .

القومية

ـ الأَقوامُ كالأَفراد : ذاتُ غرائزَ متباينةٍ ، وخصائصَ متمايزةٍ ، كوَّنَتْهُنَّ عواملُ شتَّىٰ .

ـ لكلِّ قومٍ شخصيَّةٌ خاصةٌ منتزعةٌ من هيئتهم العامة ، ولكلِّ فردٍ من تأْثير تلك الشَّخصية نصيبٌ .

ـ ما انتقلَ مِنَ الأَصلابِ إِلى الأَرْحامِ لابدَّ أَن يَدَع أَثراً تعجز عن مَحْوه يدُ التَّربية ، إلاَّ أَن تكوِّنَ منه الأَحقابُ خَلْقاً جديداً .

ـ الأُمَمُ لا تَبيدُ ، وإِنَّما تَذوبُ واحدةٌ في بَوْتَقَةِ أُخْرىٰ .

ـ إِذا تجرَّدَتْ أُمَّةٌ مِن كلِّ غرائزِها . . برئتْ منها ذِمَّةُ التَّاريخ ، وتحوَّلَ معها مَجْراه .

ـ انقطاعُ السِّلسلةِ بين أُمَّةٍ وتاريخها خُسرانٌ من الوجهتين : المادية والأَدبية .

ـ قوميةُ الرَّجُلِ عِرْقُه النَّابض ، وقَلْبُه الخافِق ، فإِذا أَرَدْتَ أَن تعرفَ مَوْتَه من حياتِه . . فاغمزْه هناك .

ـ عَجِبْتُ لِمَنْ يَنْتَسِبُ إِلىٰ قومٍ كيف لا يَغارُ لهم ؟!

ـ وعَجِبْتُ لِمن لا يَغارُ لقومٍ كيفَ يَنْتَسِبُ إِليهم ؟!

ـ قُلْ لمن ينتسبُ إِلىٰ قومٍ وهواه مع آخرين : أَرأَيتَ حُواراً يَدَعُ النَّاقةَ ويتبعُ أَتاناً ؟ أَم لا تبالي أَن تكون دونَ البهيمةِ وفاءً وصِلةَ رحم .

ـ إِذا جَفَوْتَ قومَكَ في سَبيل آخرين . . فلا تأْمَنْ أَنْ يَجْفُوكَ الآخَرون (مَتَىٰ ما ٱسْتَغْنىٰ عن كلبهِ الصَّياد) .

ـ إِذا بِعْتَ قومَك . . فلا يَشْريك الغرباءُ إِلا شراءَ الآبقِ : عَقْدُ غَبنٍ ، وصَفقةٌ خاسرةٌ (فارْبَأْ بنفسِكَ يا حُرُّ أَن تكونَ عَبْداً) .

ـ اجهدْ أَن يكونَ لقومك كيان ؛ لتكونَ زهرةً في رَوْضٍ أُنُف ، لا تنالُك يدٌ أَثيمة ، ولا يطمع فيك عابرُ سبيل .

ـ إِنَّ شرفَك الشَّخصيَّ لا يتعدَّىٰ معكَ حدودَ مَنْبِتِك ، أَما شرفُكَ القوميُّ . .

فغمامةٌ تَفِيءُ عليك حيثما حَلَلْتَ أَوْ رَحَلْتَ ، فاجهدْ أَنْ يكونَ لكَ مِثْلُ الظِّلِّ الممدود .

الكتاب

ـ لكلِّ عاملٍ مِن عواملِ التَّربيةِ دَوْرٌ ، يَنْقَضي أَجَلُه ، ويَبْقَىٰ أَثرهُ ، إلاَّ الكتابَ ، فإِنَّهُ السِّحْرُ المُسْتَمِرُّ ، كُلَّما لَحَظَتْهُ عَيْناك . . أَخَذَ مِنْكَ أَوْ أَعطاكَ .

ـ الكتابُ أَنيسُ وَحْشَةٍ ، أَوْ رسولُ علم ، أَو راويةُ أَدبٍ ، ثم هو يُفْضِي إِليك ، ولا يَنُمُّ عليك ؛ لذلكَ كانَ خيرَ جليس .

ـ فيما تُنْبتُ الحُقولُ من الشَّجر مثمرٌ وعاقِر ، وفيما تُعْطي من الثَّمر شَهِيٌّ وغَيْرُ شَهِيٍّ ، وفيما تُنْبت من الزَّهْر شَذِيٌّ وغَيْرُ شذيٍّ ، كذلكَ مَثَلُ الكتبِ ومثَلُ ما حوَتْ من أَبواب وفُصول ، ومَعقولٍ ومَنقولٍ ، فاخترْ ما يلذُّ طعمه ، ويطيب ريحه ، واحذر ما سرَّ منظراً ، وساءَ مخبراً .

ـ الكلم الخالِدُ في الكتب عقد في جيدها ثمين ، فاحرص أَن تظفر بالقلائد والعُقود .

ـ إِذا رميتَ الكتابَ من يدك وما بيدِك منه شيءٌ . . فقد أَخذ منك وما أَعطاك .

ـ قبلَ أَن تنظرَ في الكتاب انظر في أَيِّ زمانٍ كُتب ، وفي أَيِّ مكان ، وتحت أَيِّ تأْثير ؛ لتكون علىٰ بيِّنة فيما تأْخذ منه أَو تُعطيه ، (لا تنسَ تطويرَ الأَيام ، واختلافَ العُرف والعادة باختلاف الأَقطار والعصور ، ثم اذكر « الصَّابىء » حين كان يُلَفِّق ويُنَمِّقُ) .

ـ لا تؤمن بما قال قبلَ أَن تفكر فيما قال ، فإِن حاطب اللَّيل لا يأْمن من أَن يلمس ثعباناً وهو يلتمس عيداناً .

ـ قيمةُ الكتابِ ما حواه من علمٍ نافعٍ ، أَو أَدبٍ جَمٍّ ، أَو نفوذٍ في أَعماق

الحياةِ بنظراتِ حكيم ، (فإنْ خلا من مثلِ ذلك . . فغُثاءٌ يقذِفُه السَّيل إلىٰ ساحِل الفَناء) .

ـ إنما تظهر قيمةُ الكتبِ القيِّمةِ إذا قُرئت بتدبُّرٍ وإمعان .

ـ عندَ كثيرٍ من النَّاسِ لأَجْلِ أَن يكونَ الكتابُ قيِّماً يجب أَن يكون قديماً ، (فكُنْ مع القليلِ إذا وُزِنَتِ الحقائقُ بمثل هذا الميزان) .

ـ لا تَخْدَعنَّكَ ضخامةُ الأَلقاب علىٰ ظهر الكتاب ، (فربَّما كانَتْ مِن قبيل إعلانات التُّجار وأَصْحابِ الشَّركات) .

ـ وفِّ المؤلِّف حُرْمَته ، واعرِفْ له فَضْله ، ثم لا تأْمَنْ خطأَهُ ، (فإنَّهُ مثلُك إنسان) .

ـ إذا احتجْتَ كتاباً في كلمةٍ . . فقد عوَّض ثمنَه ، (فلا تَسْتكثرْ مهما اقتنيت) .

ـ في نقدِ الكتاب تظهر قيمة الكتابِ ، وتسريحُ الطُّرَّةِ يزيدها حسناً .

ـ إذا غاظ مؤَلفاً نقدُ كتابه . . فهو إما مغرور ، وإما غيرُ واثقٍ من نفسه (يخاف كثرة الزَّيْف) .

ـ إنَّما فَسدَتْ خميرة العلم في الشَّرق مُذْ صارَ النَّقْدُ تَقْريظاً ، وكثرت في هذه المحكمة شهادة الزُّور ، (يَرْحَمُ اللهُ الحَريريَّ وأَضرابَه إذ نادَىٰ علىٰ مَقاماتهِ في سُوق الاعتراض) .

ـ لو تمكنتُ من إحراقِ كثيرٍ من الكتبِ . . لتقرَّبْتُ إلى الله بهذا العملِ الصَّالح .

ـ لا يَحْيا الشَّرْقُ حتىٰ تموتَ فيه الخُرافاتُ والأَساطيرُ ، وإنَّها في كُتُبٍ ما لَكَثيرٌ .

الرِّوايات

ـ الرِّواية هي الحقيقة في ثوبِ الخَيال ، (والعَبْقَرِيُّ مَن أَحْسنَ البِزَّةَ وأتقن الطِّرازَ) .

ـ لا يُسْتَغْنَىٰ عن الرِّوايةِ ما دامَتِ الحياةُ هي رِواية .

ـ خيرُ الرِّواياتِ ما جَمَعَتْ بين نبالةِ القَصْدِ ، وسُمُوِّ المُدْرَكِ ، وحُسْنِ البيان ، فَنَفَخَتْ روحاً ، وأَفاضَتْ نوراً .

ـ رُبَّ روايةٍ جلبَتْ غَوايةً ، (فاحذرْ على الأَفراخِ من هذه الفِخاخ) .

ـ إِذا اتَّقدت جمرة الشَّباب ، فغلىٰ مرجل الطَّيش ، وحمي وطيس النَّزق . . فاخشَ على الفتىٰ من حُلْم لذيذ تُوحِيه إِليه روايةٌ غراميةٌ ، (وأَحَقُّ من الفتىٰ بذلك الفتاة) .

ـ ربَّما انطَوَتِ الرِّوايةُ على سُم ناقعٍ ، ودواءٍ ناجع ، (فطوبىٰ لمن استضاء بالنُّور ، واجتَنَبَ اللَّعبَ بالنَّار) .

ـ إِذا غلبتكَ حلاوةُ الهَزْل علىٰ مَرارةِ الجدِّ . . فقد أَخطأْتَ الغايةَ من إِيجاد الرِّواية ، (وإِنما أُوجِد هذا الأُسلوبُ ليكون أَبعثَ على النَّشاط ، وأَعلقَ بالقلوب ، وليست الغايةُ من الهَزْلِ في الرِّواية إِلا أَن يكون قنطرةَ عُبورٍ إِلىٰ ما فيها مِن الجِدِّ) .

ـ مِن أَفضلِ النَّصائح الَّتي تجبُ للمربَّىٰ علىٰ مُرْشدهِ إِذا ما رآهُ مُولَعاً بقراءةِ الرِّوايات . . أَنْ لا يقف من قراءته عند حدود لذَّته ، (وما أَكثرَ المولعين والمولعات ، ثم ما أَكثرَ الغافلين عَن ذلك والغافلات) .

ـ رُبَّ راسِبٍ في نتيجةِ الامتحان وراسبةٍ حالَ دونَ نجاحِهما وَلَعُهما بالرِّواية ، فكانا لزملائهما درسَ عبرةٍ ، ومثَّلا لأَنْفُسِهما شرَّ رواية .

ـ نِعْمَتِ العِبْرةُ وحبَّذا الهدايةُ إِذا أَصابَ القارىءُ الغَرَضَ من الرِّواية .

ـ للحياةِ مواردُ ومصادِرُ ، وبواطنُ وظواهرُ .

ـ وللحياةِ أَشكالٌ متقاربة ، وصُوَرٌ متضارِبة ، ومظاهِرُ متباينة .

ـ ثم للحياةِ أَسرارٌ وأَلغازٌ ، وصدورٌ وأَعجاز ، وتمكينٌ وإِعجاز ، ولها مراوَغات ومُخاتلات ، وأَلاعيبُ وأَعاجيب .

ـ فإِذا أَطلَّتْ بك الرِّوايةُ علىٰ كل هذه المشاهد بنظرٍ نافِذ ، ورُوح يَقْظَىٰ ، وذِهن مَشْحوذ الغِرار . . فلَنِعْمَتِ الرِّواية هي ، ونِعْم الرَّاوية أَنْتَ ، وللرِّوائي عليكما الفَضْلُ المَشْهود .

ـ لقد أَهدىٰ شكسبير إِلى أُمَّته ما أَطفأَ ناراً ، وشَعَّ نوراً ، وخلَّدَ ذِكراً ، وأَورثَ فَخْراً ، فَمَنْ لِلْعَرَبِ بِروائي مثله يستفزُّ الرَّاقد ، ويستنهضُ القاعِد ، ويبعثُ الأَموات ، ويجمعُ الشَّتاتَ ، والعربُ أُمَّة الخيال ، وأُمة العواطف ؟!

ـ إِذا نُفِخَ من روح التَّاريخ في جُثمان الرِّواية ، وقِيسَ حاضِرٌ بغابرٍ ، وخامَرَ النُّفوسَ من ذلك مُخامرٌ . . فقد لا يصعُبُ علىٰ موتى العُصور أَن تُبعثَ مِن القبور ، (أَمَّا سِلْسلة رواياتِ ابنِ زَيْدانٍ . . فما هي عن رسالة ابن زيدون ببعيد) ، (كلاهما وليدُ هَوىً في النَّفس ، وحاجةٍ في نفسِ يعقوب ، وإِنْ راجَت في سُوق التِّجارةِ ، ونَبُلَتْ في أَعْيُنِ كثيرٍ من الأَغْرار) .

ـ عَجيبٌ شأْنُ العَرَبِيِّ ، لقد أَصْبَح نفسُه روايةً وما بَرِحَ عاكفاً علىٰ رواية أَبي زيدٍ الهلالي ، والمَلِكِ الظَّاهِرِ ، أَو عنترةَ بنِ شدَّاد مثلاً .

ـ والأَعجبُ من ذلك : أَنَّ أَعصابَه تهتزُّ حماسةً لهذا الجاهلي الشُّجاع ، ومضاربِ سيفهِ البتَّار ، ولا تهتزُّ غيرةً علىٰ نفسه من لطمات الذُّلِّ ، وصَفَعات الهَوان ، يُؤْلِمْنَ صفحاتِ وجهه وقَفاه ، (كذلك تكونُ الأُمَمُ الخامِلة إِذا أَعْماها الجَهْلُ ، وتَوَلاَّها الجُمود) .

من قال : الأَدَبُ العربيُّ تنقصهُ الرِّواية . . فقد تكلَّم من غير رَوِيَّة ، (قُلْ لمثل هذا ما قد قلنا لمثله : فأَينَ أَنْتَ من الهمذاني والحريريِّ ؟ أَلم يكُ كلٌّ

منهما روائياً في مقاماته ؟ ثم أَين أَنت من كتاب : « أَلْفُ لَيْلةٍ ولَيْلة » ، وقصَّة المُهَلْهَل وأَمثالهما ؟ فإن لم تكن تلك الكتبُ رواياتٍ . . فما عسىٰ أَن تكون ؟ إِنَّ أَدباءَ العربِ قَدْ هاموا من ذلك كما ترىٰ في أَودية شتَّىٰ يوم كان الغَرْبُ هائماً في وادٍ من الجَهْلِ ، حافتاه ظُلْم وظَلام ، ولكنَّا قد اعتَدْنا أَنْ نَرىٰ كلَّ شيءٍ عِنْدَنا غَيرَ شيءٍ حتَّىٰ أَصْبَحْنا (لا شيء) .

الجرائد ـ والمجلاَّت

ـ الجرائدُ للسِّياسةِ والأَخْبارِ ، والمجلاَّتُ للدِّراسةِ والإِخْبار .

ـ المجلاَّتُ ذخائر ، والجرائدُ مواردُ ومصادِر ، (وما هذا الفرق بينهما بيسير) .

ـ إِذا أَسَفَّ يَراعُ الكاتبِ . . فلا يَلْتَمِسَنَّ في المجلاتِ مَطاراً ، (فإِنَّ هذا الفضاءَ لا يصلحُ إِلا للنُّسور) .

ـ الجرائدُ تُخْطب لا تُوهب ، (وإِلاَّ . . كانَتْ ضريبةً) .

ـ الجرائدُ تُشْرىٰ لا تُسْتَعارُ ، (أَمَّا إِذا تناقَلَتْها الأَيدي اقتصاداً . . فهناك الخزيُ والعار) .

ـ مَن ضَنَّ علىٰ جريدةٍ بثمنِها . . فقد استرخص غالياً ، ثم أَرْخَصَ نَفْسَه .

ـ رُبَّ جريدةٍ مَغْبونٌ شاريها مهما كان ثمنُها بَخْساً ، ثم لا تُقْرأُ إِلاَّ هَمْساً .

ـ قل للذين يقولون : (الجرائد جرائم) : إِنَّهُنَّ بين سائقٍ من الحكومةِ ، وقائدٍ من الأُمَّة ، فمَنِ المَسؤول ؟!

ـ لكلِّ مَقامٍ مَقال ، ورُبَّ مَوْقفٍ لا يُغني فيه الجِدُّ عن الهَزْل ، (ولسدِّ مِثْلِ هذا العَوَز كانت الجرائدُ الهَزلية) .

ـ مِن أَماراتِ جَهْلِ الشَّعْبِ أَنْ تَكْسُدَ فيه المجلاَّتُ العِلْمِيَّةُ مِنْ حيثُ تَلقى الجرائدُ الهَزْلِيةُ لديه رَواجاً .

ـ رُبَّ مجلَّةٍ مِرآة اجْتِلاء ، (فاستكْثِرْ مما يُهدي إليك ثمراتِ العُقول ، ويُريك صُوَرَ الكائنات) .

ـ يَبْلُغُ صَوْتُ الجرائد حيث لا يَبْلُغُ صَوْتُ المجلاتِ ، (فيا شَقاءَ المسامِعِ إذا كانَ الصَّوْتُ من أنكر الأَصوات) .

ـ إذا أَطلَّت الجرائدُ من علٍ . . جَعَلَتْ أنظارَ الشَّعْبِ مُوَجَّهَةً إلى السَّماءِ ، (فطوبىٰ لأَحْرارِ الطَّيْرِ إذا أَحْسَنَتِ التَّغْريد ، وحَلَّقَتْ في أَعالي الفضاء) .

ـ إنَّما يَرْتَقي الإنسانُ بالتَّلَقِّي عَمَّنْ فوقَه ، فمِنْ وَجائِبِ الصُّحُفِ أَن تصعدَ بالقارِىء ، لا أَن تَهْبط هي إلىٰ مستواهُ .

ـ مَنْ قَطَفَ زَهْرةً . . لا بدَّ أَنْ تَعْبَقَ يدُه مِن أَريجِها ، كذلك تأْثيرُ الصُّحُفِ عَلى النَّاشِئينَ ، فليكنِ العَرْفُ شَذِيّاً .

ـ كما يجب للنَّاشئةِ على الصُّحف أَن تنير أَفكارها . . يجب أَن تقوِّم من أَلسنتها ، وتجلو من صفحة آدابها ، (فما عذر من يقول : « هذه لغةُ الجرائد » ينتحل للهفوةِ بذلك عذراً) .

ـ في صُحُفِ العِراق ما يَنُمُّ على الذَّكاءِ العراقيِّ ، ويُبَشِّرُ بمُسْتَقْبَلٍ لامعٍ إذا قيسَ حاضِرٌ بغابرٍ ، فكان قَطْعُ هاتيك الأَشْواطِ في عَقد واحد ، (وإني لأَرجو في العقد الثَّاني أَن يبلغ أَحدهما نصاب كماله ، ويدخل الآخرُ في عداد الآثار القديمةِ ، فتحصل الصَّحافةُ العراقيةُ علىٰ جائزتين إذا أُقيم مَعْرِضٌ لمثل ذلك) .

السِّياحة

ـ السِّياحةُ مدرسةُ الحياةِ الكُبْرىٰ ، وخَيْرُ مُؤَدِّبٍ هُناكَ الزَّمان ، وأَعْلَىٰ دَرْسٍ ثَمَّةَ ما يُلقيه لسانُ الكائنات ، (أَمَّا مقاديرُ الاستفادةِ . . فَتَخْتَلِفُ حَسْبَ مراتبِ الاستِعداد) .

ـ مادامَ مَصدرُ علمِك مَظَاهِرَ حواسِّكَ . . فلَنْ تَسْتَغْنِيَ عَنِ السِّياحةِ إذا أرَدْتَ أن تزدادَ علماً ، (وعلى المسلمِ أَنْ يتدبَّرَ قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ ، كيفَ عدَّ السَّيْرَ في الأَرضِ سَبَباً لاجتلاءِ صُورةِ العَقْلِ في مَرايا القُلوب .

ـ إذا قبع المَرْءُ في داره . . سَمَّيناهُ مُعْتَزِلاً ولا نَمْنَحُهُ هذا اللَّقبَ إذا ظلَّ قابعاً في بلدهِ ، مع أَنَّهُ أَحَقُّ به في الأُخْرىٰ بمراتب ، (لَشَتانَ ما بَيْنَ دارٍ وبَلَدٍ ، وبَيْنَ بَلَدٍ والدُّنْيا أَجمع) .

ـ بينَ المَهْدِ واللَّحْدِ خُطُوات ما كنتَ لتتعدَّاها ، ولكنْ بالسِّياحةِ يُبارَكُ لكَ في مَداها ، (فاخترْ أَن تكونَ طويلَ العُمْرِ أَو قصيرَه) .

ـ رُبَّ أَسرارٍ لا تنكشفُ إلاَّ لِمَنْ جابَ الأَقْطار .

ـ وإِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بالسِّياحةِ مَنْ يتحرَّشونَ بالسِّياسة ، ويحملون العَلَم ، ويَشْتَغلونَ على حِساب الأُمَم ، (ومِثْلُ رجالِ السِّياسةِ في ذلك رُؤساءُ الأَدْيان) .

ـ لَوْ لَمْ يكنْ في السِّياحة كبيرُ أَمْرٍ . . ما حَضَّ عليها كتابُ الله ، فاذكرْ قولَه تعالىٰ : ﴿ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، وقوله : ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ ، وأَمثالُهما في القرآن كثير .

ـ ربَّما كانت السِّياحةُ من نتائجِ الرُّقيِّ كما أَنَّها من بَواعثِه ، فإنَّا نراها تكثرُ في الأُمَمِ الرَّاقيةِ ، وتَقِلُّ في الأُمَمِ الخاملة .

ـ وفي حياة العَرَبِيِّ[١] في دَوْرَيْ إِقْباله وإِدْبارهِ مِن ذلك أَوْضَحُ مثال ، ومِثْلُه الغَرْبيُّ بعدَما انعكَسَتِ الحال .

---

(١) كان العرب يشرقون ويغربون يوم كان السفر قطعةً من سقر ، لا بواخر ولا قطار ، ولا طيارة ولا سيارة ، ولا برق ولا بريد ، وإنما يقطعون السهول والجبال على ظهور الخيل والجمال ، ويحملون الأثقال فوق الحمير والبغال ، يركبون البحار الطامية تحت رحمة =

ـ السِّياحة مِضمارُ فَوْزٍ ، ومِرآةُ عِرْفانٍ ، حتَّىٰ للشرائعِ والأَدْيان .

ـ لولا الهِجْرةُ النَّبويةُ إلىٰ (يَثْرِب) . . ما نَشَرَ الإسلامُ لواءَهُ علىٰ أَكثرَ مِنْ نِصْفِ المعمورةِ في حقب ، ولولا رِحلةُ (بُطْرس) إلىٰ (رُومِيَة) . . ما عَمَّتِ المسيحيَّةُ بلادَ الغَرْبِ .

ـ ولقد سافرَ الإمامُ الشَّيبانيُّ من بغدادَ إلى الكوفَةِ فبدَّلَ قولَه في الآبار ، ورحلَ الإمامُ الشَّافعيُّ من الحجازِ إلى العراق فأَخذَ بالرَّأي مع (أَهْلِ الرَّأي) ، حتَّى إذا رَحَلَ رِحْلَتَهُ الكُبْرَىٰ إلىٰ مِصر . . كان له قَوْلان : قديمٌ وجديدٌ ، (إنَّ في ذلك لذكرىٰ لأُولي الأَلباب ، وإنَّ في ذلك لَعِبرةً لِصَرْعى الخُمولِ والجُمود) .

ـ الأَسْفارُ كالأَسْفار ، ذاتُ أَبوابٍ وفُصول ، وفيها فَضْلٌ وفُضول ، فخذِ الخيرَ ، ودَعِ الشَّرَّ ، ولا يَفُوتنَّكَ مِن صحيفةٍ سَطْر ، فإنَّما هي غُرَر أَوْ عِبَر ، وعند (جُهَيْنَةَ) الخبر ، ثم كُنْ حيثُ تَرىٰ ، لا حَيْثُ تُرىٰ ، وحَيْثُ تَسْمَع ، لا حيثُ تُسْمَع ، إلاَّ أَن يكونَ مَنْظَرَ أَدَبٍ وحشمةٍ ، ومَخْبَرَ فِطنَةٍ وحِكْمة ، وتعرَّفْ وتنكَّرْ ، واحْذرِ المعرَّفَ والمنكَّرَ ، ولا تتجاوَزْ مَعروفاً إلىٰ مُنْكَر ، والْحَظْ مواقعَ أَقْدَامِك في إحْجامِك وإقْدامِك ، وتجاهَلْ ولا تَجْهَلْ ، وتَغافَلْ ولا تَغْفُلْ ، وخُضْ كلَّ عُباب وكأَنَّكَ على السَّاحِل لم يبتلَّ لك ثَوبٌ ، ولم يَهْتزَّ

= الرياح العاتية ، وتنقطع بهم الصلة والأخبار عن الأهل والديار ، أما اليوم وقد توحدت الأفكار بالكهرباء والبخار ، وأصبح السفر زيارة الجار للجار . . فقد حَبَّبَ إليهم سقوط الهمة عُقْرُ الدار ، فإذا هم خامدون جامدون ، لا يُفيدون ولا يَستفِيدون ، فكأن الأحياء أمواتٌ ، وكأَنَّ القُصورَ قُبور ، ورحم الله القائل :

إذا المــرءُ لــم يَتْــرُك قَــرارةَ داره   فمــا هُــوَ إلاَّ المَيْــتُ غيبَــهُ اللَّحْــدُ

ومَنْ للعرب اليومَ بأمثالِ ابنِ بطوطة وابن جُبَير رحمهما الله ؟! ولكن الذي يحملونه في حقائبهم غيرُ ما حَملاه .

لك كاهِل ، وبَعْدَ هذا وذاك فادَّرِعِ الصَّبْر ، وطهِّرِ الذَّيْلَ ، ونَقِّ الضَّمير ، (ولا يُنَبِّئُك مِثْلُ خبير) .

أَفْضَلُ ما يتزوَّدُ السَّائحُ : عَيْنٌ يَقْظَىٰ ، وفُؤادٌ ذَكِيٌّ .

وخيرُ دُسْتورٍ يَرجعُ إليهِ : قَوْلُ الجاهِليِّ الحكيم :

وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسَبْ عَدُوّاً صَديقَه   ومَــنْ لا يُكَــرِّمْ نَفْسَــهُ لا يُكَــرَّمِ

العادات

ـ كُلُّ عادةٍ عِلَّةٌ ، (فما أَكثرَ المَرْضَى ، ثُمَّ ما أَقلَّ الأُساة) .

ـ مَنْ زَرَعَ عادَةً . . حَصَدَ خُلُقاً ، (فانظُرْ ما أَنْتَ زارِعٌ) .

ـ قَوْلُ العامَّةِ : (العاداتُ قاهِراتٌ) كَلِمةُ حكيم تأَصَّلَتْ في النُّفوس ، وزادَتْ رُسوخاً مُذْ سارَتْ مَثَلاً ، (فلَيْتَها لا قِيلَتْ ولا ازداد سُلْطانُها بذلك قَهْراً) .

ـ إذا ما رأَينا العاداتِ تتغلَّبُ على الأَديانِ . . فما الحيلةُ إزاءَ سُلطانها القاهِر ؟ (وكثيراً ما نرىٰ ذلك) .

ـ العادةُ طَوْدٌ ، لا يَنْسِفُه إلاَّ جبابرةُ العِلْم ، وعُظماءُ النُّفوس ، (فانظُرْ أَيْنَ تَضَعُ نَفْسَكَ مِنَ الجِبالِ الرَّاسِيات) .

ـ مَنْ خَرَقَ عادةً . . كانَ بَطَلاً ، (وَهَلِ المُعْجِزَاتُ غَيْرُ خَرْقِ العادات ؟) .

ـ هُنَّ ثلاثٌ :

فما كان حَسَناً . . فزِدْهُ حُسْناً وعَضَّ عليهِ بالنَّواجِذِ .

وما كانَ سَيِّئاً . . فَطَأْهُ بالأَقْدامِ وَلَوْ عَضَّدَهُ الثَّقلان .

وما خلا مِنْ نَفْعٍ وَضُرٍّ . . فالاحتِفاظُ بهِ دليلُ الرَّزانة .

(علىٰ أَنَّ التَّقاليدَ الموروثةَ والعاداتِ المُنْتَقِلةَ تُعْطِي صُورةً مِن حياةِ الأَيَّامِ

الخاليةِ ، رُبَّما يَعْجزُ عَن تَصويرِها قَلَمُ المُؤَرِّخِ علىٰ صَفَحاتِ الطُّروس .

ـ في حُقولِ التَّربيةِ تَنْمُو العاداتُ ، وتَمْتَدُّ جُذورُها ، (فيا شَقَاءَ مَنْ وَجَدَ هناكَ حَنْظلاً) .

ـ أَشَدُّ الوَرَىٰ تَمسُّكاً بالعاداتِ هُنَّ النِّساءُ ، (فقوِّم هذا الضِّلَعَ الأَعْوجَ[1] إنِ اسْتَطَعْتَ) .

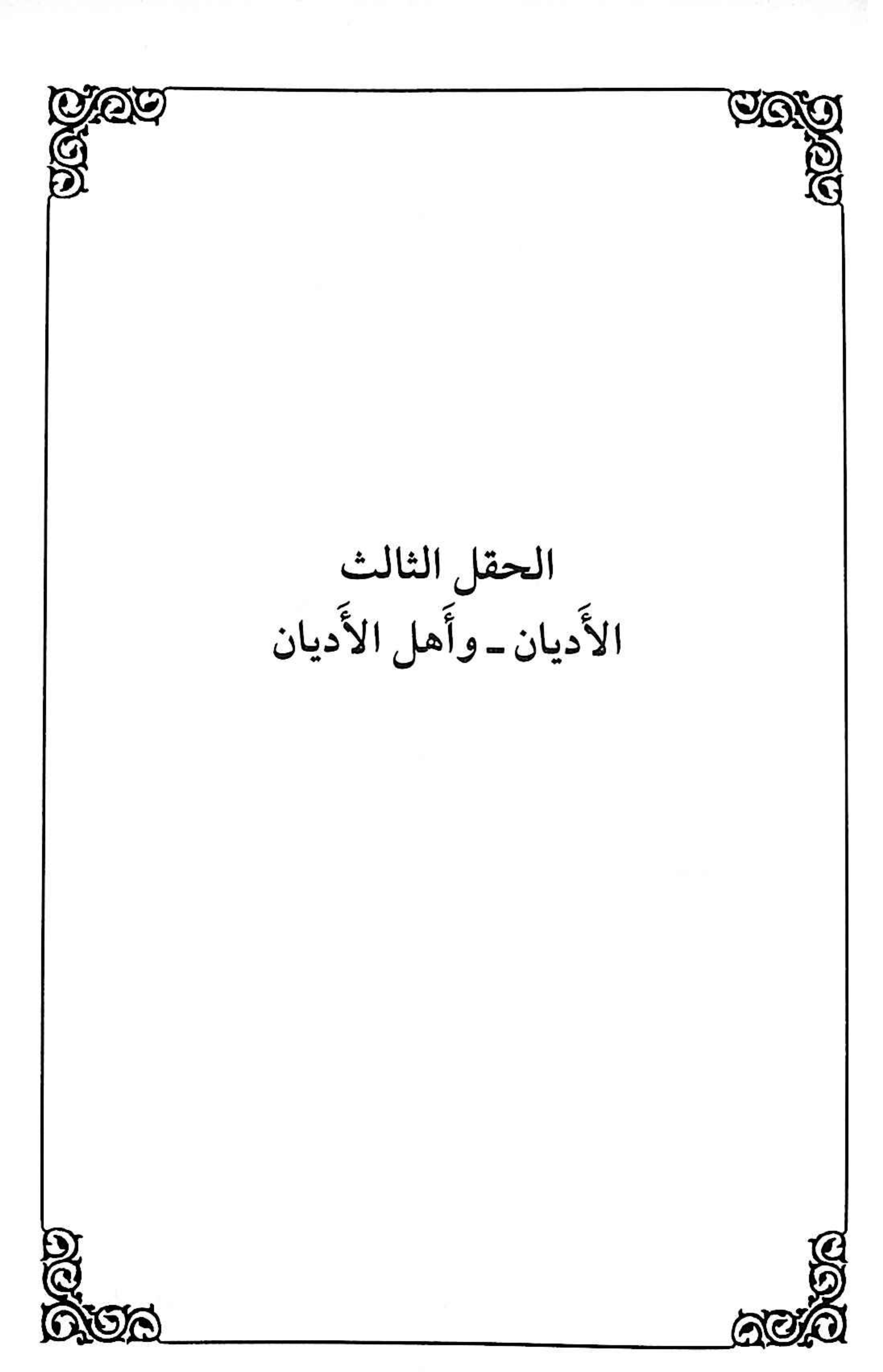
ـ في الأُمَمِ الجاهلةِ يَكْثُرُ السَّيِّءُ مِنَ العادات ، (فما أَشَدَّ الحاجةَ إلى البطولةِ ، وما أَصْعَبَكِ يا حياةُ) .

سلامُ اللهِ علىٰ باب مدينةِ العِلْمِ حَيْثُ يقول : (لا تُعَوِّدوا أَبناءَكم علىٰ آدابكم ، فإنَّهم خُلِقُوا لِزمانٍ غَيْرِ زَمانِكُم) ، إنَّهُ لَدُسْتورٌ حكيمٌ ، لو عَمِلَ بهِ الآباءُ والأُمَّهاتُ . لخففوا عنِ الأَوْلادِ كثيراً من أَعْبَاءِ الحياةِ .

* * *

---

(١) يشير إلى الحديث الشريف ، يرشد صلى الله عليه وسلم أُمَّته بذلك إلى الرفق بالنساء ، واحتمالهن علىٰ عِلاتهن ؛ إذ لابد منهن ، وذلك مبلغ جِبِلَّتهن .



الحقل الثالث
الأَديان ـ وأَهل الأَديان

الحقل الثالث

الأَديان ـ وأَهل الأَديان

* * *

الأَديان

ـ الأَدْيانُ شُرِّعَتْ للإِصلاح ، واستَعْمَلَهَا بَنوها للإِفساد (إلاَّ من عَصَم اللهُ) .

ـ الدِّينُ للهِ ، وكُلُّ الأَدْيان تأْمرُ بالخَيْرِ ، وتَنْهَىٰ عَنِ الشَّرِّ ، (فَلْيتَّقِ اللهَ الرُّؤساء ، ولا يُشَوِّشُوا علىٰ عبادِ اللهِ ؛ لِيضْرِبوا كُرَةَ الأَرضِ بِصَوْلَجانِ السَّماءِ) .

ـ لَوْ لَمْ تَثْبُتِ الأَدْيانُ مِن طريقِ المَنْقولِ . . لَوَجَبَتْ مِن طريقِ المَعْقول ؛ (ليكونَ للإِنسانِ وازِعٌ وُجْدانيٌّ في مُعْتَرَكِ الحياة) .

ـ رُبَّما كانَ الدِّينُ غَريزةً في البَشَرِ ، فإِنَّا لا نَجِدُ إِنساناً يستغني عن الوجدانيات مهما كان مادّياً ، (إِنَّ الَّذي لا يَتَحَنَّثُ من طريقِ الدِّينِ ، قَدْ يتحنَّثُ من طريقِ الأَخْلاقِ ، وكلاهما أَمْرٌ وُجْدَانيٌّ ، إِنَّ الَّذي لا يَمْلِكُ دِيناً يَحْلِفُ بِمُقَدَّساتهِ تَجِدُهُ يَحْلِفُ بِشَرَفِهِ أَو بِناموسهِ ، ولكنَّكَ لا تَجِدُ مَنْ يَحْلِفُ بِذَهَبِهِ وفِضَّتِهِ ولو ملكَ كنوزَ الأَرْضِ جميعاً) .

ـ ثِقْ بربِّ الدِّينِ ولو كانَ مَعْبودُه حجراً ، (فرُبَّما كانَ أَهْوَنَ مِن غَيْرِهِ شَرّاً) .

ـ الدِّينُ حُلَّةٌ نَزَلَتْ مِنَ السَّماءِ تُلْبَسُ ، ولا تُلْمَس .

ـ الدِّينُ غَيْرُ بَنِيهِ ، فلا تكونُ أَعمالُهم حُجَّةً عليه ، وإِنَّهُ مِنْ تَبِعَتِها لَبَراء .

ـ رُبَّ أَدْرانٍ لَحِقَتِ الأَدْيان فكانَتْ سِلاحَ جُحودٍ أَوْ إِلْحاد ، (فَلْيَنْتَبِهْ علماءُ الأَديانِ لهذا الأَمْرِ الخَطيرِ) .

ـ ما جَنَىٰ على الأَدْيان مِثْلُ الجُمودِ على القُشورِ حتَّىٰ ضاعَ بَيْنَهُنَّ اللُّباب .

ـ إِنَّ الرُّجوعَ بدينٍ إِلىٰ جَوْهَرِياتهِ أَفضلُ خِدْمةٍ يُقدِّمُها لعبادِ اللهِ رؤساؤه .

الدِّين والشَّريعة

ـ الدِّينُ حَقٌّ ، والحَقُّ لا يتعدَّدُ ، فمن أَينَ جاءَ اخْتِلافُ الأَديان ؟! (إِنَّما اختلفَتِ الشَّرائِعُ ، فالْتَبَسَ الأَمْرُ على البُسَطاء ، وزاد في هذا الالتباسِ أَهْلُ الأَهْواء ، فاذكر قولَ النَّبي العربيِّ عليه السَّلام : (الأنبياءُ أَبناءُ عَلاَّت ، دينُهم واحد ، وأُمهاتُهم شتَّىٰ) .

ـ الدِّينُ بَيْنَ اللهِ وَعَبْدِهِ ، وحقيقةُ اللهِ لا تتغيَّر ، أَمَّا الشَّريعةُ . . فمنهاجٌ لِعبادِ اللهِ يَسْلكونه ، وكُلُّ الطُّرقِ تُؤدي إِلىٰ منزلٍ واحدٍ ، وإِنَّما اختلفَتْ باختلافِ الأُمَمِ حَسْبَ أَطْوارِها وأَدْوارِها ، (ومِنْ هُنا صحَّ لِشَريعةٍ أَنْ تَنْسَخَ أُخْرىٰ ، وكِلْتاهُما تُمثِّلانِ صَوْتَ اللهِ ، يُرْشِدُكَ إِلىٰ هذا قولهُ جَلَّتْ حِكْمتُه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ ، ثم قوله عزَّت كلمته : ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ .

ـ الدِّينُ رُوحٌ ، جُثْمانُه الشَّرائِعُ ، وشَأْنُ الجُثْمانِ أَنْ يَبْدُو في صُوَرٍ شَتَّى ، (كلُّنا نُمَجِّدُ اللهَ في عَمَلٍ نُسَمِّيهِ الصَّلاة ، ولكنَّ مظاهرَ هذا التَّمجيدِ مختلفةٌ ، كلُّ الشَّرائعِ تُحَرِّمُ الخَبائِثَ ، ولكنَّ درجاتِ العُقوبةِ عليهن فيها مُتَفاوِتة) .

الطَّبيعة وروَّادها

ـ بَرَزَ الكَوْنُ بِرَوْعَةِ جَمَالِهِ وجَلالِه ، فأَدْهَشَ أقواماً مُهَوَّسين ، شَهِدُوا من أَنْظِمَتِهِ قانونَ الأَسبابِ والمُسَبَّبات ، فوقفوا مِنْهما عندَ حَدِّ دَعْوَه (بالطَّبيعة) ، لَفْظٌ أَطْلَقُوهُ ولم يَتَحَقَّقُوا معناه ، واسمٌ وَضَعُوهُ ولم يَثِقُوا بِمُسَمَّاه .

ـ دلَّهم الأَثر على الأَثير ، واضطرَّهم وجود الحادث إِلى الاعتراف بقديم ، فسَلَبُوا الوُجودَ عَنْ مُوجِدِهِ ، وأَسْندوه إِلى العَدَم ، فما صنعوا شيئاً سِوىٰ أَنِ اعترَفُوا بواجبِ الوُجودِ مِن حَيْثُ أَنكروه ، أَو أَنكروه من حَيْثُ اعترَفُوا به .

ـ أَلَمْ تَسْمَعْهم يقولون ـ إذا ما رأَوا مَعْلولاً مِن غيْرِ عِلَّةٍ ، أَو عِلَلاً تخلَّفت عن معلولاتها ـ : هذا ما فوقَ الطَّبيعةِ .

فنقولُ لأُولئكَ المُهَوَّسِينَ : إِنَّ هذا الَّذي تقولون إِنَّه ما فوق الطبيعة هو « اللهُ » ، وهكذا نَصِلُ نَحْنُ الغايةَ مِنْ حَيْثُ يَقفونَ هُمْ وَسَطَ الطَّريق .

ـ مِن الاستِدْلالاتِ المعكوسةِ وخَطَلِ الرَّأْي في المَنْطِقِ قَوْلُ بعضِ المتَّهَمِينَ بالزَّنْدَقةِ[1] :

كم عالمٍ عالمٍ أَعْيَتْ مَذاهبُه ... وجاهلٍ جاهلٍ تَلْقاه مَرْزوقا

هذا الَّذي تَرَكَ الأَوْهامَ حائرةً ... وَصَيَّرَ العالِمَ النِّحريرَ زِنْدِيقا

ـ فإِنَّ ما في أَمثالِ ذلكَ مِن تخلُّفِ الأَسبابِ عن مُسَبَّباتها أَدلةٌ تَدُلُّنا علىٰ أَنَّ هناك وراءَ مُدْركاتِنا قُوةً قاهرةً استطاعَتْ فَكَّ المُسَبَّباتِ عن أَسْبابِها ، وتِلْكَ القُوَّةُ قُوَّةُ « اللهِ » ، وهو القاهِرُ فوقَ عباده ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، دَلَّنا علىٰ ذاتِهِ بصفاتِهِ ، واحتجبَ في أَنوارِ سُبُحاتِهِ ، إِنَّ في ذلك ما يَسْتَلْزِم الإِيمانَ والاعتقاد ، لا الزَّنْدقةَ والإِلحاد .

---

(١) وهو ابن الرَّاوَندي الزنديق قاتله الله ، ترجم له الحافظ ابن كثير في « البداية » وغيرُه .

الوَثَنِيَّة ـ وعُبَّادُها

ـ كُنْتُ أَجْهَلُ مَصْلَحَةَ العَبْدِ في رَفْضِ الوثَنِيَّة وتمحيص العبودية لله ، فإِذا هي تكريمٌ للإِنسان أَن يعبد ما صَنَعَتْ يداه ، فلا يَمْلِكُ المَفْضولُ رِقَّ الأَفْضَلِ ، ولا يَنْزِلُ الأَفْضَلُ عَنْ مَرْتَبَةِ عُلاه .

ـ ما إِخالُ الوثنيَّةَ كانت إِلاَّ رَمْزاً ، ثُمَّ التَبَسَتِ الحقيقةُ بالمجاز بحكمِ الإِرْثِ وسُلْطة التَّقليد ، (إِنَّ فِكْرَ البَشَرِ مَهْمَا تَسَفَّلَ فإِنَّهُ أَرْفَعُ مِن أَنْ يتدهْوَرَ إِلىٰ مِثْلِ هذا الحضيض) .

ـ كُلُّنا فيما يَعْتَقِدُ يَعْبُد قُوةً ، بيدها مقاليدُ السَّعادة والشَّقاء ، فاتَّفقنا في المُسَمَّىٰ ، واختلَفْنا في الأَسْماء .

ـ يومَ يُكْشَفُ عَنِ البَصائِرِ والأَبْصار ، ويَعْرِفُ الإِنسانُ مِقْدارَ نفسهِ . . فلا وثنيَّةَ يومئذٍ ولا أَوْثان .

ـ زُرْتُ قلعةَ (بَعْلَبَك) ، فرأَيتُ مَعْبودَ الفينيقيين مَقْطوعاً رأْسُه وَقَدْ تَدَحْرَجَ إِلىٰ أَسْفَلَ مِن مَوضعِ قَدَمَيْهِ ، فنظرتُ إِليهِ ، وذكرتُ من عبدَه وقد صنعَه بيدَيْهِ ، ثمَّ قلتُ :

بكيتُ على الإِنسان يَنْحتُ صَخرةً ... ويعبدها للنَّفْع يوماً أَو الضُّرِّ
وَكَفَّاهُ أَوْلىٰ بالعبادةِ لو دَرىٰ ... هما نَحَتا هذي الصُّخور كما يدري[1]

---

(١) يقول المؤلف : هما من أبيات تتجاوز عدد الأصابع ، كتبتُها على أحد جدران القلعة ، ومنها :

بدائع آثارٍ تمثل عبرة ... من الأمم الماضين في مسرح الدهر
بنىٰ ذاك من أنقاض هذا مهيمناً ... عليه فمن طيّ هناك ومن نشرِ
لقد شاد قسطنطين معبد نسكه ... فليس سوى الناقوس يضرب للذكر
وقد ختمتْ بابن الوليد رواية ... به مثَّلتْ دورَ الهداية والفخر=

اليهوديَّة ـ واليهود

ـ لو اتَّخذَ اليهودُ مِن بدائعِ التَّوراة دَعائم ، وأَقاموا عليها البناءَ مِن غيرِ أَهْواء . . لَشادُوا صَرْحاً عظيماً ، وسَلكُوا صِراطاً مُسْتَقيماً .

ـ لم يُقَدِّروا لِموسَىٰ رَجُلِ اللهِ نِعْمَةَ التَّحريرِ ، فَعُوقِبوا بضدِّها أَبَدَ الدَّهْرِ ، ومِنْ هُنا كُتِبَ عليهم الشَّقاء ، فَللَّهِ الأَلْواحُ وما حَوَتْ لو كانوا علىٰ لمحةٍ من نُورها سائرين .

ـ يُريدُ اليهودُ أَنْ يَبْلُغوا شَأْواً بينَهم وبَيْنَهُ مسيرةُ ثلاثينَ قرناً ، (فيا بُعدَ الثُّرَيَّا مِن يدِ المُتناوِل !) .

النَّصرانية ـ والنَّصارىٰ

ـ كانت النَّصرانيةُ رسولَ السَّلام ، حتىٰ إذا انفلق فَجْرُها . . استحال خَيْطُ هذا الفَجْرِ حُساماً ، (وشَتَّانَ ما بينَ رسولِ السَّلامِ ورَبِّ الحسام) .

ـ يُريدُ النَّصارى المُلْكَ ، وتَدْعُو النَّصرانيةُ إِلَى الملكوت ، ولو اجْتَمَعا في مُلْتَقى الطُّرُقِ . . لَعاشَ الإِنسانُ في هَناء .

ـ لو تفيَّأَ النَّصارىٰ ظِلالَ الإِنجيلِ . . لمشَى الإِنسانُ في عَوْنِ أَخيهِ أَكثرَ من مِيل ولو صَهَرَهُ حَرُّ الشَّمس .

الإِسلام ـ والمسلمون

ـ ما رأَيتُ حقّاً أَشْبَهَ بباطِلٍ ، ولا باطلاً أَشْبَهَ بِحَقٍّ مِنَ الإِسلام والمسلمين ، (والمُشْتَكَىٰ إِلى اللهِ من هذا الاشْتِباه) .

= هذا ما أذكره منها ، وكان ذلك سنة ١٣٢٧هـ . ينظر ديوانه « ذكرىٰ حبيب » (ص٩٥) .

ـ الإسلام بَدْرٌ كامِلٌ ، حُجِبَتْ أنواره بغمامةٍ سَوْداء مِن أعمالِ بَنيه ، (وقد آنَ للغمامةِ أَنْ تقشَّعَ ويعودَ الفَلَكُ إلىٰ دورتهِ الأُولىٰ) .

ـ الويل للمسلم من رَقْدةٍ رَقَدَها لولا عينٌ من دينهِ ساهِرةٌ تحرسُه مِن ورائه ، (وقد آنَ للرَّاقدِ أَنْ يستيقظ مادام كابوسُ الجَوْرِ يُنَغِّصُ عليهِ رُقادَه) .

ـ إنَّ الدِّينَ الَّذي جعلَ رعاة الإبل أبطال فتحٍ ، وساسةَ ممالك ، وأصحاب عروش ، حتَّى امتدَّ ظِلُّ سُلطانِهم علىٰ أكثر من نصفِ المعمور . أَلَيْسَ مِن جهلِ أَبنائهِ ومكرِ أَعدائه أَنْ يُعَدَّ عقبةً في سبيلِ رُقيِّ ذويه، ذلك هو دين الإسلام؟!

ـ يقولُ أعداءُ هذا الدِّين : إنه يرفعُ منَ الحضيض ، ولكنَّهُ يَقْصُرُ دونَ الأَوْج ، فقل لهؤلاءِ المُخادِعين : أَيُّ أَوْجٍ لم يَقْتَعِد غاربَ ذِروتِه أَبناءُ هذا الدِّين يوم كانوا به مستمسكين ؟ وإنما هبطوا إلى الحضيض من بعد ما استزلَّهم الشَّيطانُ ، فضلُّوا السَّبيلَ ، وأَضاعوا ذاك الحبل المتين .

ـ مَثَلُ الإسلام والمسلمين مَثَلُ مِصْباحٍ كهربائيٍّ ، خَشِيَ رَبُّه أَنْ يُصيبَ زجاجتَهُ غبارٌ يَنْقُص من بهائه ، فاتَّخذ له غِلافاً من وَرَقٍ ، ثُمَّ عَنَّ له أَنَّ الوَرَقَ لا يَقْوَىٰ علىٰ وَقْعِ القَطْر ، فزاده غِلافاً آخرَ مِن جِلْدٍ ، ثُمَّ فَكَّرَ في أَنَّ الجِلْدَ لا يَصونُه مِن حجرٍ يُصيبه فيُحطِّمُه ، فصنع له حُقّاً من نُحاس ، فما شَعَرَ إلاَّ أَنَّهُ قد طمس علىٰ ضيائه في سبيل الخوف من نقص بهائه ، (كذلك يفعلُ الغلوُّ في الدِّين) ، ومن أَجل ذلك نَهى اللهُ عنهُ عبادَه علىٰ لسانِ رسولهِ الكريم : ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ .

وفي الحديث : « أَوْغِلوا في الدِّينِ بِرِفْقٍ ، فإِنَّ المُنْبَتَّ لا أَرْضاً قَطَعَ ، ولا ظَهْراً أَبقَىٰ » وفيه : « لا تُشادُّوا هذا الدِّينَ » .

ـ إذا أَرادَ المسلمونَ أَنْ يَسْتَضيؤوا في مَجاهِلِ الحياةِ بِنُورِ مِشْكَاتِهم . . فعليهم بالتَّعاليمِ الصَّحيحةِ من دينهم الحنيف ، ولا يَدَعُوا على الزُّجاجةِ من غِلاف .

ـ ويحَ الإِسلام من المسلمين ، دُرَّةٌ في يَدِ طِفْل ، لا يعرف قيمتها هو ، ولا تأمَنُ مَغَبَّةَ جهله هيه ، (ولن يَبْرَحوا كذلك حتَّىٰ يُمزِّقوا أكفانَ الجُمود ، ويَسْتَجْلُوا أسرارَ الشَّريعةِ الغَرَّاء ، ويتمسَّكوا بالثَّقَلَيْن) .

الاتِّحاد الإِسلامي

ـ وَهْمٌ مَحْضٌ مَا نُسمِّيهِ (الاتِّحاد الإِسلامي) حتَّىٰ يَفقهَ المُسلمُ حكمَ الإِسلام من دينه ، ويَعْتصِمَ المسلمونَ بحبلِ اللهِ جميعاً .

ـ الاتِّحادُ الإِسلامي حُلْمٌ ذَهَبِيٌّ ، سوفَ تُعَبِّرُه الأَيَّامُ بلسانِ الحوادثِ ، (ولولا الحربُ العامَّةُ . . لأَبْطأَ زمنُ التَّعبير) .

ـ البأْساءُ تَجْمَعُ ، والنَّعماء تفرِّق ، وسيتمُّ الاتِّحاد الإِسلامي بحكم هذا النَّاموس ، (لكن بالأَفعال لا بالأَقوال) .

ـ المسلمون فِتْنَةٌ ماداموا مُسْتَضْعَفِين .

ـ لَيْسَ في الاتِّحادِ الإِسلامي مِنْ خَطَرٍ على المجتمع ، إِنَّما الخطرُ في اختلالِ التَّوازُنِ فيه ؛ ببقاءِ بعضِ أجزائه في حَمْأَةِ الفَوْضىٰ ، كلما زادَها اضْطراباً . . زادته تكديراً ، (فلا يَحُولَنَّ بينهم وبين الحياة مَنْ يَهْوى السِّلْمَ ولا يروقُه لَهَبُ النَّارِ) .

القرآن

ـ لولا القرآنُ . . لَجُحِدَتِ الأَدْيانُ ، فللهِ كلامُ علاَّمِ الغُيوب كيف يَجْلُو الصَّدأَ عن القُلوب .

ـ مِلْءُ القرآن رُموزٌ وإِشاراتٌ ، وآياتٌ بيِّناتٌ ، تَقِفُ برائِدِه مِن صُوَرِ الكائناتِ أَمامَ مرآةٍ صَقِيلٍ ، (فطوبَىٰ لأُولي الأَبْصار ، وكشَفَ اللهُ عَنْ قلوبِ عَماها) .

ـ في القرآنِ مِن أَسْرارِ الحياة ما إذا قارنَه التَّدَبُّرُ . . عَبَرَ بِصاحبهِ إِلىٰ ساحلِ السَّعادَةِ مهما كان البحرُ مُتلاطمَ الأَمْواج .

ـ القُرآنُ مرآةُ اجْتِلاء ، يُريك صُوَرَ الكائِناتِ أَمثالاً وأَضداداً ، ثمَّ يُهيبُ بكَ فيما يَخُصُّ الفَضائل بصوتِ الآمِرِ المُشْفِقِ ، وفيما يخصُّ الرَّذائِلَ بصوتِ الزَّاجرِ الجَبَّار ، (مَثَانِي تَقْشَعِرُ منه الجُلودُ ، وتَلينُ لهُ القُلوبُ ، لو أُنزلَ علىٰ جَبَلٍ . . لَرأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خشيةِ اللهِ) .

ـ في القرآن طمأْنينةُ العابدِ ، وزمجرةُ القائدِ ، ودَعَةُ الزَّاهدِ ، وصولةُ البطلِ المجاهدِ .

ـ في القرآن سَطوةُ الحُكم ، ومقاومةُ الظُّلم ، وغَضاضة الشُّورَىٰ ، وصَوْلجانُ المُلْك مِن غَيْرِ عَرْشٍ ولا تاج .

ـ في القرآن حماسَةُ الوَطَنيِّ ، ودهاءُ السياسيِّ ، وذكاءُ الاجْتماعيِّ ، وتَعَبُ الصَّانعِ المَشْغوف ، وَنَصبُ الزَّارعِ المَلْهوف .

ـ وفيه شُحُّ الأَغْنِياء ، وقناعةُ الفُقراء ، وحدودُ الجَمْعِ والمَنْع ، والتَّقْتيرُ والتَّبذيرُ ، والبُخلُ والسَّخاءُ ، وما يمثِّلُ رُوحَ الاقتصادِ تمثيلاً حكيماً .

ـ وفيه حظُّ التَّاجرِ ، وشُؤْمُ المُرابي والمقامِر ، وحبُّ العَمَلِ ، وحَقُّ التَّملُّك ، والتَّكافُل الاجتماعيُّ ، ثُمَّ نِظامُ الاشتراكيةِ علىٰ حدِّ المعقول .

ـ في القرآن حُريَّةُ الرَّأْيِ والمَسْعىٰ ، وفَحْصُ مَناحي الفِكر ، وتحكيمُ العَقْلِ المجرَّد ، والرَّفعُ من شأْنِ العالم ، والحطُّ من قَدْرِ الجاهِل ، ثُمَّ التَّعْويلُ على العِلْم النَّافِع ، والعَمَلِ الصَّالح ، مشفوعَيْنِ بالبُرهان والإِخلاص .

ـ في القرآن عَفْوُ المُقْتَدِرِ ، وبَطْشُ المُنْتَقِم ، وسَلْوى البائِس ، وتَرَفُ المُنْعَم ، ولَذَّةُ الكَسْب ، وطِيبُ الإِنفاقِ ، وثَمَرُ التَّعاوُن ، ثُمَّ مَوْتُ اليَأْسِ ، وحياةُ الأَمَلِ .

ـ وفيه فَشَلُ التَّنازُع ، وظَفَرُ الوِئام ، والاستمساكُ بعُروةِ الاتِّحاد ، والتنويهُ

بشأنِ القُوَّةِ ، ثمَّ تنازعُ البقاءِ ، وبقاءُ الأنْسَبِ ، والسِّلْمُ المُسَلَّح ، والحَرْبُ ذاتُ الإصلاح .

ـ وفيه ظَرْفُ الأَديب ، ونَظْرَةُ الحكيم ، وخَيالُ الشَّاعرِ ، وحِكمةُ الفيلسوف ، ثُمَّ لَحَنُ الجَدلِ ، وحِجاجُ المَنْطقيِّ إفحاماً وإلزاماً .

ـ في القرآن أَخْبارُ الأُمَمِ الماضية ، والقُرونِ الخالية ، وحدودُ الخَيْر والشَّرِّ ، والسَّعادةُ والشَّقاء ، والكُفْرُ والإيمان ، والجُحُود والإذعان ، ونواميسُ المُلْكِ والمَلَكوت ، وشُؤون الأَرْضِ والسَّماء ، والآخرةِ والأُولىٰ ، ثمَّ القَصْدُ في الأمُور ، وارتيادُ الخُطَّةِ المُثْلىٰ ، وأَن تكونَ الكلمةُ العليا لله ولرسوله وللمسلمين .

كلُّ ذلك يجدُهُ المسلمُ في القرآن ، فماذا أَصابَ مِن كُلِّ ذلك وماذا أفادَ ؟!

ـ يوم استمْسَكَ المسلمونَ مِنَ القرآنِ بالعُرْوة الوُثْقَىٰ ، واعْتَصموا بِحَبْلِ اللهِ المتين ، وَمَشَوْا علىٰ ضَوْءِ تعاليمهِ في مناهجِ الحياة . . أَصَابُوا مُلْكاً عظيماً ، وسَلَكوا صِراطاً مُستقيماً ، حتَّىٰ دانَ لهم وَجْهُ الثَّرَىٰ ، وطَمِعُوا في عُنْقودِ الثُّرَيَّا يَقْطِفونَه مِن صَحْنِ السَّماءِ .

سَلَبُوا الأَمْلاكَ ثَوْبَيْ عِزِّها ... دَوَّخُوا الأَقْطارَ في عِشْرِينَ عاما

كُلُّ أَرْضٍ وَطِئَتْ أَقْدامُهم ... أَنْبَتَتْ عِزّاً ومُلْكاً واحْتِشاما[1]

ـ إنما أَفل نجم المسلمين منذ غام أُفق القرآن ، وغُمَّ عليهم هلالهُ ، فغمرتهم حنادس الأهواءِ بحالكةِ السُّتور .

ـ من قرأَ كتاباً يجهل مبناه ، ولا يتدبر معناه ومغزاه . . كيف يستضيء بنور هداه ؟! ذلك مثل المسلم اليومَ ومثل كتابِ الله .

---

(١) من قصيدة للمؤلف بعنوان : (تحية وادي النيل) ، ينظر ديوانه « ذكرىٰ حبيب » (ص١٦٢) .

ـ إِنما مات المسلم بموت القرآن ، فإن أَراد الحياة . . فليلتمِسْها هناك .

إِنما مات القرآن بموت لغته ، فمن أَحياها . . أَحيا كلام الله .

وإِنما ماتت لغة القرآن منذ انقلب الذَّوق صناعةً ، وفشت عدوى الأَعاجم في فلسفة الأَلفاظ .

ـ ومن هنا ظهر الجمود في فئةٍ ، ووجدت الأَهواء مجالاً لآخرين ، وكلا الأَمرين من بواعث الموت .

ـ مَن سعىٰ لإِحياء العرب بغية إِحياء القرآن . . كان له أَجر مجدِّد ، (ولكلِّ امرىءٍ ما نوىٰ) .

ـ القرآن لسان عربيٌّ ، وبين حياة الأُمة وحياة لغتها ملازمة لا ينكرها إِلا جاهل أَو غويٌّ ، (فهل فكَّرَ المسلمونَ في أَنَّ القضيةَ العربيةَ قضيةٌ إِسلاميةٌ ، فهمَّهم أَمر دينهم ، وعرفوا أَين ينبوع الحياة ؟) .

ـ أَنزلَ اللهُ القرآنَ لنَدَّبَّرَ آياتهِ ، وَلِنَقْرأَهُ تَعبُّداً ، ثُمَّ لا نخجل من الله ولا من أَنْفُسِنا إِذْ حَرَمْناها نورَ هُداه .

أَمَتْنا القرآن فأَماتَنا اللهُ .

حَوى القرآنُ مِن التَّعاليم ما يَكْفُلُ سعادةَ الدَّارين ، فاقْتَصَرْنا من ذلك علىٰ صلاةٍ لا تَنْهىٰ عن الفحشاء والمنكر ، وعلىٰ صيامٍ لا نفقَهُ منه غيرَ العَطَشِ والجُوع ، وعلىٰ حَجٍّ لا نَصيبَ لنا منه غَيْرُ مشقَّةِ السَّفَرِ ، وتقبيلِ الحَجَر ، حتَّى الزَّكاة مما فَرَضَ اللهُ ـ وهي الرُّكن الثَّالث مما بني عليه الإِسلام ـ وادَّعْناها بسلام .

هكذا أَمَتْنا القرآنَ ، ثُمَّ نَعْجبُ مِن مَوْتِنا ، وأَهْمَلْناه كلَّ هذا الإِهمال ، ثمَّ لا نَخْجَلُ حينَ نَخلفُ به ، ونكبرُ الأَمرَ في ذلك تَعْظيماً لِشأْنهِ وتَوْقيراً ، ثم لا نَزْدادُ خجلاً حين نَتْلوه مِن غَيْرِ تَدبُّرٍ ، نَجُذُّه جَذَّ الشِّعر ولا نُرَتِّلُهُ تَرْتيلاً ،

والأَقْطَعُ مِن ذلكَ التَّغَنِّي بهِ تَكَلُّفاً وحَظَّ نَفْس[1] .

ـ القُرآنُ كتابُ اللهِ إلىٰ عبادِهِ أجمعين ، يَدْعُو مُخالفيه إلىٰ حَظيرةِ قُدْسِه ، ويُشَرِّعُ أَحكاماً لمُتَّبعيه ، أنزلَهُ علىٰ خَتْمٍ من الرُّسُل ، يُنْذِر به مَن بَلَغَ برسالةٍ عامَّةٍ ، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ .

ـ فزَوَيْناه عن أُمَّة الدَّعوة حتَّىٰ حُرِموا الاهتداءَ ببيِّناتهِ .

ـ ثم زَوَيناهُ عن أُمَّةِ الإجابة فحرَمْناهُم الاقْتِداء بحكمياته .

ثم ما زلنا نَزْويه عن عبادِ الله شيئاً فشيئاً حتَّى اختصَّ بالأَمواتِ والعُميان ، يَسْتَجدونَ به في الطَّريق ، ويتلونه في المقابرِ ، فغارَ اللهُ لكتابه ، فإذا بالأُمَّةِ أَمواتٌ وعُميان ، ليتَ شعري ماذا عَسىٰ أَن يكونَ جوابُنا يومَ اللهِ إذا وقفنا بين يديه ، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ .

ـ الجَهلُ لا يكونُ عُذراً ، فإذا اعتذرنا إلى اللهِ ورسولهِ بأَنا كُنا نَجْهَلُ لُغةَ كتابهِ ولا نفقَهُ معناهُ.. فهل يكون عُذْرنا مقبولاً ؟ ثم ماذا نصنع حينئذٍ بقوله عَزَّتْ كلِمَتُه : ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ ؟

---

(١) الغناء : بقيةُ هواجسَ ومدركاتٍ للنفوس والأرواح ، عجزت اللغة عن تصويرها ، فأبرزها الإنسان علىٰ صورة تقاطيعَ ونبراتٍ ماسمَّاها أنغاماً ، ولعل هذا هو الأصلُ في وجود الغناء الذي لم يخلُ من طابعه ذو روح ، فضلاً عن الإنسان ، والذي جدير به أن يدعىٰ : (لغة الأرواح) .

ولا ريب أن القرآن سهم موجه إلىٰ تهذيب النفوس ، وإلىٰ أخذ الأرواح قسطها من نور الصفاء ، فالتغنِّي فيه يلطِّف من النفوس ، ويزيد مرايا الأرواح جلاءً ، وصور المدركات اجتلاءً ، ولعل هذا هو السرُّ في قول من أنزل عليه القرآن : « ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن » ، فقل لمن يتغنَّىٰ بكلام الله : إنَّ الغناء فرع تلاوته ، وليست تلاوتُه فرع الغناء ، فاعرف المقصود عرضاً من المقصود بالذات ، ثم لا تعكس القضيَّة بينهما ، واعلم : أن الأعمال بالنيات ، فإن أبيت إلا الغيَّ.. فكن في جوقة الغناء خيراً لك من أن تكون في زمرة القراء .

ـ القرآن أكبر معجزةٍ أُوتيها نبيٌّ مُنْذُ بَدْءِ الوَحْيِ وعَهْدِ النُّبُوَّات ، (إنَّ كُلَّ مُعْجِزَةٍ أَتىٰ بها الأَنبياء والمرسلون لم تتجاوزْ عهدَ الرِّسالة وزمنَ التَّبليغِ غيرَ القرآن) .

القرآن هو المعجزةُ الباقيةُ في عَقِب المِلَّة ، مهما بَعُدَ الأَمَدُ ، وتقادَمَ العَهْدُ ، (فكأَنَّهُ ينادي بلسان النَّبيِّ العربيِّ في كل زمانٍ ومكانٍ : عبادَ اللهِ ؛ إني رسولُ اللهِ إِليكم ، وهذه مُعْجزتي لديكم ، فاتقوا الله وأَطيعونِ) .

ـ نحن نؤمن أَنَّ عيسىٰ كان يُحْيي الموتىٰ بإِذن ربِّه ، وأَن عصا موسىٰ كانت تَلْقَفُ ما يَأْفِكون ، ولكنْ إذا أَنكرَ الخَصْمُ هذا ، وطلبَ مُعْجزةً يراها بأُمِّ رأسهِ ، تَتَمَثَّلُ لهُ كما مُثِّلَتْ للَّذين مِن قبله . . فماذا يَضَعُ أَمامَ عَينيهِ أَتباعُ موسىٰ وعيسىٰ عليهما السَّلام ؟

أَمَّا نحن . . فنضعُ أَمامه القرآنَ ، وحَسْبُنا منه ما تحدَّىٰ به صاحبُه معانِديه ، فاتلُ قولَ ربِّهِ في تبكيت مُعارضيه : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ، (وقد تكرر هذا التَّحدي في آيات أُخر)[1] .

ـ حسبُ القرآن أَنَّه أَخرس (عُكاظ) حتَّىٰ تكلَّمَتْ عنه السُّيوف .

---

(١) منها قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ ، وقوله : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

بذلك تحداهم وفضح أمرهم ، فليت شعري أيّ صارف صرف هاتيك الجموع ؟ ألم يتّسع الوقت لبليغ منهم أن يفكر ساعة من زمان ، ويأتي بسورة واحدة من مثله ، ويذهب بالشرف الأوحد ، ويتبجح في جموعهم بصيت طائر ، وفخر سرمد ، فيريحهم من المعاناة وذل النكوص ؟ أليس ذاك أسهل عليهم من خوض غمار الحروب ، وسفك الدماء ، ونهب الأموال ، وسبي الذراري ، وأسر الرجال ، وكذلك حقت كلمة ربك صدقاً ، ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ؟ .

ـ حسبُ القرآن أَنَّكَ لا تجدُ مَن حَدَّثَتْهُ نفسه بمعارضته ثم استطاع إِلىٰ ذلك سبيلاً ، (وقد مضىٰ عليه نَيِّفٌ وثلاثةَ عَشَرَ قرناً) .

ـ أَعظمُ ما رُزِيء به المُسْلِمُ أَن جعل القرآنَ حُجةً عليه بعد ما كان حُجةً له .

ـ مما جَنىٰ على القرآنِ وبَنيه فتحُ سُوق التَّأْويل فيه ، (فأَين نحن من قوله عزَّت كلمته : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[١] .

لقد أَعْرَضْنا عن (المحكمات) بتعطيل أَحْكامِهِنَّ .

وتَعَرَّضْنا (للمتشابِهات) لا نبالي باقتحامِهِنَّ .

ثم لا نذكر أَننا بهذا قد أَسأْنا إلى القرآن في قِسْميه ، وضاعفنا الجنايةَ عليه .

ـ ما زال القرآن بِكْراً (بالرَّغم مما قالوا في صاحب « الكشاف »)[٢] .

ـ لو مَلَكْنا مِن السَّليقية ما كان يملكهُ الصَّحابيُّ . . لاستغنينا عن التَّفاسير مِثْلَه ، (فقل لمن يريدُ أَن تحلَّ العاميَّةُ محلَّ الفُصحىٰ : إنك تريدُ أَن تُجْهِزَ على القرآن يا عدوَّه اللَّدود) .

ـ رُبَّ تفسيرٍ فيه كلُّ شيءٍ إلا التَّفسير ، (ومثلُ هذا ما أَجدرَ صاحبَه باللَّوْم لولا أَنَّ كلامَ اللهِ لا تنتهي عجائبُه) .

ـ مما يُؤْثَر عن ابن عباس رضي الله عنهما : في القرآن مَعانٍ سوف يُفسِّرُها

---

(١) حتىٰ في هذه الآية نفسها طرق باب الاحتمال ، فقال قائل بعدم وجوب الوقف علىٰ لفظة الجلال ، خلافاً للجمهور .

(٢) هو الإمام الزمخشري من أئمة اللغة والاعتزال رحمه الله ، و« الكشاف » تفسير له على القرآن الكريم ، وقد قالوا فيه : (لولا الكوسج والأعرج . . لظل القرآن بكراً) .

الزَّمانُ ، (فلا يتكلَّفنَّ متكلِّفٌ ، ولله حَبْرُ الأُمَّة ، ولله هاتيك النَّظرات ، فإنَّ كتاباً أُنزل علىٰ ختم من الرُّسل بدعوةٍ عامة جديرٌ به أَن يكون كما قال) .

ـ من تناولَ التَّفسيرَ بنظرياتٍ لم تبلغْ بعدُ مرتبةَ اليقين . . فقد عرَّضَ كلامَ الله للاضْطراب ، (فلا يَعْجَلَنَّ متأَثِّرٌ بروحِ العصر يريدُ أَنْ يرفعَ بذلك من شأْنِ القرآن ، رُبَّ رَأْيٍ أَخَذَ به الرَّازيُّ قبلَ عُصور تَرى الجوْهري اليومَ يأْخذُ بغيره ، وفي هذا بلاغ) .

ـ لقد تناوَلْنا كلامَ الله بالتَّأْويل والتَّفسير والتَّقرير ، وخير من الاثنين ثالثهما .

ـ فأَما (التَّأْويل) . . فلا يتعدَّىٰ حدودَ الظَّنِّ ، ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ ، وأَما (التَّفسير) . . فبطَرْقِ بابِ الاحتمال فَقَدْنا الاطمئنانَ منه إلى اليقين ، وأَما (التَّقرير) . . فاجتلاءُ صُوَرٍ رائعةٍ ، والْتِقاطُ حِكمٍ عاليةٍ ، وكَشْفُ رُموزٍ وإِشارات ، ولطائفَ ونُكات ، يُهْتَدَىٰ إِليهنَّ مِن طريقِ التَّدبُّر والسِّياق ، والصَّنعة والبيان ، وفيما نُسمِّيهِ حسنَ النِّظام ومزايا التَّركيب .

ـ الاحتمالُ في الكلامِ يَجْعَلُ معناه فوضىٰ ، فما أَحقَّ كلامَ الله أَن لا يُساءَ إِليه بمثل ذلك ، وقد أَفرطَ فيه المتأَخرون .

ـ لقد رأَيت في بعض التَّفاسير في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ﴾ : أَنَّ (ما) الثَّانية يحتمل أَن تكون موصولةً ، وأَن تكون نافيةً ، (ولشتانَ ما بين النَّفْي والإِثبات) .

ـ ثُمَّ أَيُّنا يرضىٰ لنفسه أَن يُعْقَدَ كلامه علىٰ طرفي نقيض فلا يكون مفهوماً ؟ (فسبحان الله عمَّا يصفون ، وتعالى الله عُلُوّاً كبيراً) .

ولو كان المفسِّر رحمهُ اللهُ عالماً بتأْريخ (جمعية البنائين)[1] . . لما وقع فيما وقع فيه .

---

(١) يقول المؤلف : لما عظم ملك سليمان عليه السلام . . استراب ملك بابل ؛ إذ كانت له =

ـ لَقَدْ أَضَعْنا القرآن من فَرْطِ عنايتنا بالقرآن ، (أَدْهَشَتْنا رَوعَتُهُ ، ومَلَكَتْ مشاعِرَنا عَظَمَتُه ، ثم باعدَ بيننا جَهْلُنا بِلُغتِهِ ، فاعْتَرَضَتْنا في مجاهلِ تفسيرِهِ العَقَبات) .

ـ لَوْ لَمْ يَسْتعْجِم العَرَبيُّ ويستعرب الأَعجميُّ . . لما لَطَمَتْنا الأَمواج في بَحْرٍ خِضمٍّ ، ساحلاه التَّأْويل والتَّفسير ، ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

ـ مَن وَقَفَ علىٰ أَسبابِ النُّزول ، وعرف اللُّغَةَ صناعةً وذَوْقاً ، ثم اجتنبَ التَّنطُّع ، ونجا مِن الغُلُوِّ . . كان جديراً به أَنْ يفقه معنىٰ كلامِ الله .

ـ لقد يَسَّرَ اللهُ كتابَه تيسيراً ، فما خَطْبُ مَن رآهُ عَسيراً ؟ !

ـ إِنَّما هي جِنايةُ ثلاثةٍ : العُجْمة ، والتَّنطُّع ، والغُلُوُّ ، واتلُ قوله عزَّت أَسماؤه : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

ـ لقد تناولَ القرآنُ كلَّ مناحي الحياة مِن كِلا طَرَفيْها الجُثْماني والرُّوحاني ، (فمَنْ حدَّثتْهُ نفسُه بعُبورِ هذا البحر تأْويلاً وتَفسيراً وتَقْريراً . . فقد غرَّرَ بها دون السَّاحِل ، وطوَّحَ بفُلْكِهِ في العُباب ، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ

= مطامع في بلاد الشام وفلسطين ، فأوفد إِلىٰ بيت المقدس رجلين من دهاة بطانته ؛ ليعملوا علىٰ تقويض ملك سليمان ، فأظهرا الزهد في الدنيا والتقشف باسم الدين ، وانخدع بهما أناس كثير ، فأخذوا يوغرون الصدور علىٰ ما عليه سليمان من أبهة الملك ورغد العيش فيه ، حتىٰ رموه عليه السلام بالكفر ، ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ .

فكان مؤسسا هذه الجمعية بظاهر حالهما من الزهد والعبادة والصلاح (ملكين) ، وكانا هما وأتباعهما في نشر آرائهم ومهارتهم (شياطين) ، وكانت هاتيك التعاليم في نفوس السامعين (سحراً) ، وكذلك كان يهود الحجاز يكيدون للنبي العربي صلى الله عليه وسلم ، اقتداء بالمارقين من أسلافهم ، وتقف علىٰ هذا المعنىٰ وقفة تدقيق وإمعان في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾ .

﴿قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ .

ـ لعلَّ في مجموعةِ التَّفاسير تَفْسيراً للقرآنِ ، (فَقَدْ أَصابَ كلٌّ قِسْطَهُ من مواهبهِ ولم يألُ جُهداً ، فَرَحِمَ اللهُ أَئِمَّةَ العلمِ ، وجَزاهمُ اللهُ عن كتابهِ خَيْرَ الجزاءِ) .

ـ لَو عُنِي المسلمونَ مِنَ القرآنِ بفقهِ معانيه وتَدَبُّر مغازيه عنايَتَهم بضَبْط قراءاته وحفظ مبانيه . . لما اعترضتْهم ظُلمةٌ في مناهج الحياة وهم سائرون على نور هداه مَعاشاً ومعاداً ، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ .

الدِّين ـ والعادات

ـ دَأْبُ المرآةِ أَنْ يعلوهَا الصَّدأُ ، (فاحذرِ العاداتِ إذا أَردْتَ أَنْ تَقِفَ مِنَ الدِّينِ أَمامَ مِرآةٍ صَقيلٍ) .

ـ شَرُّ ما مُنِيَ بهِ الدِّين عاداتٌ صَبَغَتْها الأَهواءُ بلونهِ ، فرسَخَتْ في بَنيه ، يُقَدِّسونَها بتقديسهِ ، ويَلْعَنُها هوه .

ـ ليست الغرابةُ أَنْ يدخلَ ديناً ما لَيْسَ منه ، إِنَّما الغريبُ تغلُّبُ الدَّخيل على الأَصيل .

ـ وأَغربُ منه : أَنَّ الدَّهماءَ أَشدُّ تَمسُّكاً بما كان دخيلاً منهم بما كان أَصيلاً .

ـ العادةُ طبيعةٌ ثانية ، والدِّينُ تطبُّعٌ ، وبطلُ الرِّوايةِ من يَخْرُجُ ظافِراً من حربٍ بينهما عوان .

الدِّين ـ والحكومات

ـ سُلْطتان تتنازعان النُّفوذَ والحربُ بينهما سِجال : الدِّين والحكومات .

ـ مادام الأَديان والحكومات كلاهما داعيةُ إِصلاحٍ في المجتمع ، وقسطاسُ

عَدلٍ ، يرميان إِلىٰ هَذْي البَشَرِ وإسعاده ، وبَثِّ روح الفضيلةِ بين أَفرادِهِ . . فما بالُهما لا يَضْرِبانِ يداً بيدٍ ، ويمشيان جَنْباً إِلىٰ جَنْبٍ في سبيلِ الوُصولِ إِلىٰ تلك الغاية الشَّريفة ؟ ولماذا كان بينهما مِنَ النُّفور والعدوان ما مثَّلَهما ضِدَّيْنِ لا يَجْتَمِعان ؟

ـ لا خلافَ بينَ الأَديانِ والحكومات ، ولا تَبايُنَ في الغاية منهما .

ـ إِنَّما كان الخلافُ بين رجالهما على الصَّوْلجان ، فلبَّسوا في ذلك على النَّاس ، واشتهر هذا الالتباس .

ـ لو نَظَرَ دَهاقِينُ السِّياسةِ وجَهابِذَةُ الدِّينِ إلى الغاية بعينٍ واحدةٍ ، وتجرَّدوا عَنِ الأَغْراضِ ، وعُنُوا بالجواهِر ، وأَعْرَضُوا عن الأَعْراض ، فمَشَوا علىٰ قَدَمٍ واحدةٍ . . لَسَلَكُوا بالمجتمعِ صِراطاً مُستقيماً ، وعاشَ الإِنسانُ في حظيرةِ القُدْس علىٰ أَريكةِ هَناءٍ ونعيم ، (إِنَّ أَشدَّ الأُمَمِ احتياجاً إِلىٰ ذلك هم المسلمون) .

ـ لا يتمُّ صلاحُ المجتمع مِن غيرِ مبادِىءِ دينٍ صحيحةٍ ، ودساتيرِ حكومةٍ صالحةٍ ، (فيا رجالَ السِّياسةِ والدِّينِ ؛ وحِّدُوا المَسْعَىٰ إِنْ كنتم قَوْماً صالحين ، إِنَّكُمْ لمسؤولون عن هذا المجتمع المَفْتُون ، ثُمَّ إِنَّكم مِن أَوزارِه لحاملون) .

ـ ربَّما كان فَرْطُ الجُمودِ في فئةٍ ، وفَرْطُ الأَثَرَةِ في أُخرىٰ مِن أَكبرِ عواملِ التَّفريقِ بينَ السِّياسةِ والدِّين .

ـ وقفَ رجالُ الدِّينِ بمَعْزِلٍ عن علوم الدُّنيا .

ـ ووقف رجالُ الدُّنيا بمعزلٍ عن علوم الدِّين ، وقد ظن كلٌّ منهما أَنَّ الَّذي عند صاحبه . . الَّذي عِنْدَهُ ، ثم مشَى الفريقان ، فاختلف بهما الطَّريقان .

ـ ولو أَنَّ كلاًّ منهما أَصابَ نَصيبَهُ مما عندَ صاحبِهِ ، وخبرا رُوحَ الشَّريعةِ وأَسرارَها . . لَجَمَعَتْهُما طريقٌ واحدةٌ ، هي طريقُ العِلْمِ المُطْلَق الَّتي تنتهي

بسالكها إلىٰ سعادة الدَّارَيْنِ ، فسارا معاً إلى الغاية الأَصْلية ، أَلا وإِنَّ الدِّينَ والعِلْمَ صِنوان ، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ، (ولعلَّ ما عَرَفْتَ مِن اختلافِ الطَّريق كان أَكبرَ عواملِ التَّفريق) .

ـ مادامتِ الخِلافةُ بَيْعةً ، والأَمْرُ شورىٰ ، والحُقوقُ قَضاءٌ ، ثُمَّ الدِّينُ يُسْرٌ ـ بهذه الأُصولِ الأَربعةِ جاءَت الشَّريعة الغَرَّاء ـ فَفِيمَ الخلافُ بين رجالِ الحكومة والدِّين ؟ أَفي الصُّوَرِ والأَشكال والشُّعَب والفُروع ؟ إِنَّ كلَّ ما خلا مِن أُولئكَ عَن نصٍّ في كتابِ اللهِ ، أَو سُنَّةِ نَبيِّهِ ، فإِنَّهُ مَثارُ اجْتِهادٍ ، فَأَيُّ حَرَجٍ هُناك ؟ علىٰ أَنَّكَ لا تَجِدُ نَصّاً في شيءٍ من ذاك القَبيل .

الدِّين ـ والعلم

ـ لا خيرَ في عِلْمٍ يأْباهُ الدِّينُ ، ولا خَيْرَ في دينٍ يَأْباهُ العِلْم .

ـ الدِّينُ الحقُّ والعلم الصَّحيح كفَّتا ميزان ، لا يُقيمان للسَّفْسَطة وَزْناً ، وقسطاسُهما البرهان .

ـ كلُّ عِلْم لا يُؤَدي إلى الرَّذيلة ، ولا يَخْرِقُ حِجابَ الفَضيلة فإِنَّ الدِّينَ يتلقاهُ بِصَدْرٍ رَحْبٍ ، (وهل هناك عِلم يُؤدي إلىٰ شَيءٍ من ذلك إلا أَنْ تكونَ تسميتهُ بالعلم مَجازاً ؟!) .

ـ العلم معرفة الشَّيء بما هُو عليه .

ـ فما كان حقّاً في نفسه . . كان في ميزان العلم حقّاً ، وما كان زَيْفاً . . كان في ميزانه زَيْفاً .

فالرَّذيلةُ والفَضيلةُ ، والدِّينُ الحقُّ والدِّينُ الباطِلُ ، وسائر الحقائق مما طابَ أَو خَبُثَ في ميزانِ العِلْمِ هِيَ هِيَهْ ، وإلاَّ . . لتخلَّفَ العِلْمُ عن المعلوم فاستحال جهلاً ، والعلم والجهل ضدَّان ، واجتماع الضِّدَّين مُحال ، وما أَفضىٰ إلى المحال محال ، (فقل ـ ولا غبارَ علىٰ ما تقولُ ـ : مِنَ

المُسْتحيلِ أَنْ يُخْطِىءَ سَهْمُ العِلْمِ مَرْماهُ ، فإِنْ رأَيتَ شيئاً من ذلكَ . . فإِنَّما هُوَ خطأُ الرَّأْيِ ، أَو قِصَرُ نظرٍ من الرَّائي ، أَما العِلْمُ . . فلا يتخلَّفُ عنِ المعلوم ، وإِنَّه من التَّبِعَةِ لَبراءٌ ، اللَّهم إِلا أَنْ يكونَ ظَنّاً أَوْ وَهْماً وتُسمِّيهِ عِلْماً) .

ـ مَهْمَا اتَّسعَ نطاقُ العِلْمِ . . فإِنَّ نطاقَ الدِّينِ أَوْسَعُ مِن أَنْ يَضيقَ عنه إلاَّ أَنْ يُقارِنَهُ هوىً في النَّفْس ، أَو مَرَضٌ في القَلْبِ ، فَإِنَّما يَقْبَلُه بعد التَّمحيص كما ينفي الكِيرُ الخَبَثَ .

ـ كلُّ علمٍ يَجلِبُ مَغْنماً من حِلِّهِ ، أَو يَدْفَعُ مَغْرماً في غَيْرِ مَحلِّهِ فالدِّينُ يتقبَّلُه قَبولاً حَسَناً .

ـ إِنَّ ديناً يُكثِرُ من الحَثِّ علىٰ طَلَبِ العِلْمِ ، ويَعُدُّ تَعَلُّمَهُ فريضةً ، ويَرفعُ أَهلَهُ درجاتٍ ، ويُثْني على الرَّاسخين فيه . . يَقْرُن عِلْمَ الأَبدانِ بعِلْمِ الأَديان .

ـ يَعُدُّ ما تَمسُّ إِليه حاجةُ المجتمع مِن علمٍ وفنٍّ وصناعةٍ وزراعةٍ من فروض الكِفاية ، ثم يُنادي ـ تنويهاً بشأْنِ العِلْم ـ فيمن يجهلون : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

إِنَّ ديناً هذا شأْنه ، أَليس من الجهل بحقيقتهِ ، أَو المكابرةِ معه ، أَو الحقدِ عليه أَنْ يُتَّهَمَ بأَنَّهُ عدوٌّ للعلم ، تتجافىٰ جنوبُه عن مضاجِعه ، وتَنْبو عن مظانِّه تعاليمه ؟ ذلك هو دِينُ الإِسلام .

ـ هل يُتَصَوَّرُ لعدوٍّ أَنْ يرفعَ من شَأْنِ عَدُوِّهِ ويدعو إِلىٰ مُؤازَرَتِهِ ؟ !

ـ فلو كان دينُ الإِسلام عَدُوّاً للعلم . . لما حثَّ علىٰ طلبه ، ورفعَ من شأْنِ ذَويه ، وأَثنىٰ علىٰ مؤازريه ، والأَكبر من هذا إِكثارُه مِنَ الدَّعْوةِ إِلى (التَّفكير) ، والتَّفكيرُ هو سُلَّمُ الفِقْهِ النَّاضج ، ومَدْعاةُ العِلْمِ الصَّحيح ، (مَنْ تَتَبَّعَ الحديثَ والقرآنَ . . وَجَدَ فيهما من ذلك ما لَمْ يَجِدْه في أَيِّ موضعٍ كان) .

ـ مِن دَسائِسِ الملاحدةِ تَسْمِية اللاَّدينية بالعِلْمانية ، يُشيرون بذلك إِلى أَنَّ الدِّينَ والعِلْمَ لا يَجْتمعان .

ـ ما أَدري حين يقولون : (العِلْمُ والدِّينُ ضِدَّان) أَيَّ دينٍ يُريدون ؟

ـ فإِنْ أَرادوا المَعْقول . . فإِنَّ المَنْطِقَ لم يُقِمِ الدَّليلَ علىٰ بُطلان الأَديان ، بل الأَمرُ على العكس من ذلك ، غايةُ ما في هذا الباب أَنَّ الخَصْمَ استطاع أَنْ يَقِفَ هناكَ مَوْقِفَ المانعِ ، وهو مَوْقِفٌ مُباحٌ لِكُلِّ سائلٍ في كلِّ قضيَّةٍ حتَّىٰ في البديهيَّات الأَوَّليَّات ، وأَيُّ شيءٍ أَسْهَلُ على اللِّسانِ من أَن يقول : (لا نُسَلِّمُ)[1] .

ـ وإِنْ أَرادوا ذلك من طريق المادةِ والمحسوساتِ . . قُلْنا : إِنَّ طبيعةَ الموضوعِ تَأْبَىٰ تناوُلَ البَحْثِ فيهِ مِن هذا الطَّريق ، لأَنَّ الدِّينَ في مباحثه هذه يَرْمي إِلىٰ ما وراء عالم المادة .

ـ علىٰ أَنَّ ما نَستطيعُ أَنْ نُسَمِّيه بالعُلوم الماديَّةِ مما تتعلق بالمادَّة والمحسوسات لم يفرغْ بعدُ الباحثون من وَضْعِ قواعدها ، ولا أَتمُّوا جهةَ وَحْدَتِها تحت ضابطٍ من الحَصْرِ والاستِقْصاء ، بل ربَّما كان الكثيرُ من هاتيك القواعدِ لم يَبْرَحْ بعدُ قابلَ النَّقْضِ والإبرام ، وإِنَّما نَصيبُه منهما في ذِمَّةِ ما لَمْ يَزَلْ بَعْدُ مَستوراً مِن أَسْرارِ الكائنات ، لم تتناوَلْه يَدُ الاكتشافِ .

ـ وليسَ ما قَدْ وصلَتْ إِليهِ يدُ الاكتشافِ حتَّى الآنَ بالإِضافةِ إِلىٰ ما قَدْ عَجَزَتْ عنه وترجو الوُصولَ إِليه . . إِلا قطرةً مِن بحر ، (فليخفِّفْ من وَطْأَته المغرور ، فإِنَّه ما برحَ بَعْدُ على السَّاحل ، ولله القرآن حين يقول : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ، وحين يقول : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ .

---

(١) إن اقتصر الخصم علىٰ كلمة (لا نسلّم) في دعواه ، أو دليله ، أو إحدىٰ مقدماته . . فهو مانع ، وكلمته (منع مجرد) ، فإن أردفها بمستند . . فهي (منع مع السند) ، فإن تعرض بها لإنكار (البديهيات الأولية) . . فحينئذٍ يسمىٰ : (مكابراً) ، وينسدّ معه باب المناظرة ، وللمعلل أن يختم البحث بقول الشاعر :

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهارُ إلى دليل

ـ وإن أَرادوا : ما يُسَمُّونَهُ بـ(العُلومِ الحديثةِ) ـ وإنَّ كثيراً منها غَيْرُ حديثٍ ، وإنَّما تَوَسَّعَ فيه مُنْتَسِبوه ، أَو حَوَّروه ، أَو نَحَلوه ثم نَحَلُوه هذا اللَّقبَ فانْتَحَلُوه ـ . قلنا : إنَّ الدِّينَ قد قبِلَ العِلْمَ المُطْلَقَ ، ولا يأْبَىٰ منه ما يعودُ بالمَنْفَعَةِ على الإِنسان في معاشِه أَو معادِه ، أَو في كليهما ، وليس في استطاعة أَيِّ مؤمنٍ أَوْ مُلْحِدٍ أَنْ يأْتي بمنطوقٍ أَوْ مفهومٍ من الدِّين يدلُّ علىٰ خلافِ هذا ، وما هي إلا فِرْيَةٌ على الدِّينِ افتراها بعضُ أَعدائهِ من دُعاة الإِلحاد ، وأَعانَهم علىٰ رَواجِها ـ ويا لَلأَسَفِ ـ جُمودُ بَعْضِ مُنْتَسِبيه ، أُولئك الَّذين يَنْصُرون الدِّينَ من غيرِ طريقه .

أَيُّ مُسْلِمٍ تَصدَّىٰ لاستخدامِ الكَهْرباء والبُخارِ تَحْتَ إِشارةِ العِلْم والفَنِّ فقيل له : إِنَّ الدِّينَ لا يُبيحُ دَرْسَ هذهِ العُلومِ ؟ !

أَمَّا إِنَّهم يُهْمِلونَ مثل هذا مِن أَعالي الأُمور ، ويَهْتَمون بمثلِ نَظَرِيَّةِ (دَرْوين) مِن سَفْسافِها ، ثُمَّ يُريدونَ أَنْ يقالَ لهم : لَقَدْ أُوتِيتُم العِلْمَ كلَّه ، والدِّينُ ضلالةٌ ، وكُلُّ أَهْلِ الأَديانِ جاهِلون مُخْطئون ، وليس وراءَ ما يُريدونَ من خيرٍ دُنْيوي يُصيبه النَّاسُ ، ومن هنا نَخْسَرُ معهم الصَّفْقَتَينِ ، ونَجْلِسُ تحت قول الشَّاعر :

نُرقِّعُ دُنيانا بتمزيقِ ديننا فلا ديننُا باقٍ ولا ما نُرقِّعُ

فذلك ما نَدَعُ الحُكْمَ فيهِ لِمَنْ كانَ له قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وهو شهيد .

ـ إِنَّ الحُكْمَ في قَضيَّةٍ يَسْتَدْعِي العِلْمَ بطرفيها ، فالحكمُ بأَنَّ العِلْمَ ضِدُّ الدِّين ، أَو الدِّينُ ضِدُّ العلمِ ممن يعلم أَحدهما ويجهل الآخر . تَهَوُّرٌ أَوْ جَهْلٌ أَو غرورٌ ، (فقل للفريقين من علماء الدُّنيا والدِّين : أُعيذكما بالله من مثلِ هذه الوصمات)[1] .

(١) لعل إفاضته هنا في حديث لا ينازع فيه عاقل لما وجد من جهل أبنائه وقصورهم ، أو =

الدِّين ـ والتَّعصُّب

ـ الدِّينُ مَبْدَأٌ ، والتَّعَصُّبُ للمبادِىءِ مِن سُنَنِ الحَياة .

ـ ما أَحْسَنَ التَّعصُّبَ عَنْ بَصيرةٍ ، وما أَقْبَحَهُ عَنْ عَمىً في البَصائِرِ والأَبْصار .

ـ يَحْمَدون التَّعَصُّبَ لِكُلِّ ذِي مَبْدأٍ ، يُسَمُّونَهُ حَزْماً وثباتاً ، أَمَّا في الدِّينِ . . فَيَعُدُّونَهُ غَباوةً وجُموداً ، (ما أَنْصَفْتُمُ الدِّينَ وأَهْلَهُ أَيُّها المُخَادِعون) .

ـ لِتنازُع البَقاءِ أَسْتارٌ وأَلاعيب .

ـ وقَضِيةُ التَّعَصُّبِ فيما اتَّخذَهُ الغَرْبُ تُجاهَ الشَّرْقِ مِن أَشَدِّها شَعْوذَةً وتأثيراً ، رآهُ أَعْزلَ مِن كلِّ سلاحٍ غيرَ الدِّين ، فأَتاهُ من طريق ذمِّ التَّعصُّب فيه ؛ لِيَسْلُبَهُ السِّلاحَ الأَخير ، ويَلْوي منه عُنُق ظَبْيٍ غَرير ، (فهل فكَّرتُم في هذا أَيُّها المخدوعون ؟!) .

ـ رُبَّ عاداتٍ سيِّئاتٍ لَيْسَتْ مِنَ الدِّينِ في شيءٍ ، وإِنَّما أُلْصِقَتْ بهِ إِلْصاقاً ، فَتَعَصَّبَ لها الجُهَلاء ، وكانت سِلاحاً بيدِ الخُصماءِ ، (فاتقوا الله أَيُّها الجامِدون) .

ـ التَّعصُّبُ للجواهرِ والتَّسامحُ في الأَعْراضِ مِن أَفْضَلِ ما امتازَتْ به شِرْعةُ الإِسلام ، فاذكروا قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ، وقول الشَّارع الأَعظم صلى الله عليه وسلم : « بُعِثْتُ بِٱلْحَنِيفِيَّةِ ٱلسَّمْحَةِ » ، وقوله : « ٱلدِّينُ يُسْرٌ » .

ـ يَرْمُوننا بالتَّعصُّب والقَوْمُ ـ واللهِ ـ أَشَدُّ مِنَّا تَعَصُّباً ، ولكنما يُحْسِنونَه

= تقصيرهم عن اللحاق بغيرهم من الأمم الراقية في سُلّم العلم ، فماذا على الإسلام من جهل أبنائه ؟ .

ونُسيئُهُ ، يَتَعَصَّبونَ لِلُّبابِ ونتعصَّبُ لِلْقُشور ، فحفِظوا القُشورَ وأَضَعْنا اللُّباب ، (كذلكَ رَبِحَ العِلْمُ من حيثُ خَسِرَ الجَهْلُ) .

ـ ما كانت لِتَنْجحَ دِعايةُ الغَرْبِ في ذَمِّ التَّعَصُّبِ في الشَّرْقِ لولا شُيوخٌ عُمْيان ، وشَبابٌ أغْرار ، (وفي الشَّرْقِ مِن كلا الفَرِيقينِ غَيْرُ يَسير) .

ـ في البَرِّ الجديدِ مَراكزُ التَّبْشير ، ولِفَرنْسَا اللاَّدينيَّة ـ ضَرَّةِ الفاتيكان ، وحالِقَةِ ذُقونِ الرُّهْبان ـ حمايةُ الكَثْلكةِ في الشَّرْقِ ، أَمَّا نَحْنُ . . فَخُلُوٌّ مِن كِلَيْهِما ، ثُمَّ هُمُ المُتَساهِلُونَ ، ونحْنُ المُتَعَصِّبونَ !

ـ فيا مَهْدَ الحُرِّيَّة ويا بلادَ النُّور ما هذا الخِداع ؟ (ومتىٰ نَفْقَهُ معاشِرَ الشَّرْقيين أَنَّنا مَخْدوعون ؟!) .

ـ حقٌّ علىٰ من انتمىٰ إلىٰ دينٍ أَنْ يتعصَّبَ لَهُ ؛ حفظاً لكرامةِ نَفْسِهِ على الأَقل ، (لكنْ بِشَرْطِ أَنْ يَفْقَهَ معنَى التَّعَصُّب) .

ـ مَن طعنَ في دينٍ ينتمي إليه . . فالأَجْدَرُ بِهِ أَنْ يبرأَ منهُ ، وإلاَّ . . فَهُو جَبانٌ أَوْ خائِنٌ أَو مُنافق .

ـ معنى التَّعصُّب في الدِّين :

ـ التَّمسُّكُ بجوهرياتهِ ، والحُرمةُ لِشَعائِرِهِ ، والذَّبُّ عن حَوْزَتِهِ مَتىٰ وَلَغَ في إِنائهِ والِغٌ .

ـ لا أَن يكونَ ستارَ أَهْواءٍ ، وآلةَ قطيعةٍ ، وداعيةَ كراهيةٍ وشقاقٍ بين مُتَّبعيه ومخالفيه ، ثم مِعْوَلَ تَخْريبٍ في نظامِ الهيئةِ الاجتماعية .

ـ إِنَّ الأَديانَ أَجَلُّ وأَقدسُ مِن أَنْ تكونَ مهواةَ جهالةٍ ، فمدعاةَ فسادٍ ، فمحراثَ شقاء ، وإِنَّما التَّبعة في ذلك على الجُهلاء وذَوي الأَهْواء ، والدِّينُ من كُلِّهِ بَراء .

- إنَّ أَفضل دستور لبني الإِنسان في مملكة التَّعصُّب للمذاهب والأَديان : ما جاء به القرآن ، ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ .

المذاهب

- لولا هوىً مُتَّبعٌ وشُحٌّ مُطاع . . ما كَثُرَ عَدَدُ المذاهبِ في دينٍ واحد .

- كم حَبْرٍ ضاقَتْ بهِ الحِيَلُ فلَعِبَ من وراءِ سِتارِ الدِّينِ ، فإِذا هناكَ مَذْهَبٌ جديد ، (إلاَّ مَنْ رَحِمَ ربُّكَ) .

- خيرُ المذاهبِ ما قامَ علىٰ دعائمِ البُرهان ، وشَرُّها ما قامَ بإِغْواءِ العامة ، واسْتَنَدَ إلىٰ قُوَّةِ الدَّهماء .

- كم بين دفَّتَي التَّاريخ مِن أَحزابٍ سياسيةٍ استحالَتْ إلىٰ مَذاهبَ دينيَّةٍ .

- رُبَّ مُغَفَّلٍ أَرْعَنَ يَحْقدُ علىٰ أَخيهِ ؛ لاختلافِ مَذْهبهما اخْتِلافاً في الفروعِ مَنْشَؤهُ الاجْتِهادُ ، ولا يذكر أَنَّ كلمةَ التَّوحيدِ الَّتي تجمعُه وأَخاهُ علىٰ خَطَرٍ عظيمٍ ، وأَنَّ حِقْدَهُ هذا يَزيدُها خَطَراً .

الاجتهاد

- الاجتهادُ بابٌ ، في فَتْحِهِ بَلاءٌ ، وفي سَدِّهِ بَلاءٌ .

- وكلُّ الخيرِ فيهِ إذا قامَتْ بهِ أَرْبَابُه ، وتطهَّرَتْ مِنَ الدُّخلاءِ أَعْتابُه .

- الاجتهادُ مَجْلَبَةُ اليُسْرِ ، واليُسرُ مِن أَكبرِ مقاصدِ الشَّرْعِ ، وأَبدعِ حِكَمِ التَّشريع .

- بالاجتهادِ يتلاطمُ مَوْجُ الرَّأْي ، فيقذفُ جوهرَ الحقيقةِ على السَّاحلِ .

- الحوادثُ لا تتناهىٰ ، وللعُصور مُحدَثات ، فإِذا جَمَدْنا علىٰ ما قيل . .

فما حيلتُنا فيما يَعرضُ من ذاك القبيل ؟ أَنبتُّ فيه مبلغَ الجُهْدِ في الاستنباطِ ، ونُثْبتُ بذلكَ فضلَ الشَّريعة ، وننقذُ عبادَ اللهِ من مَظانِّ الشُّكوك والأَوهام ؟ أَم نَدَعُ الأَمرَ غفلاً نقول : إِنَّ نطاقَ الشَّريعةِ أَضيقُ مِنْ أَنْ يسعَ هذا ، فنجعلُ عبادَ اللهِ في رَيْبٍ من أَمْرِ دينهم ، ونَدَعُهم في مَجاهلهِ حَيارىٰ ، ونُحَمِّلُ الشَّريعةَ مَعَرَّةَ نَقْصِنا (وهي مِثالُ الكَمال ؟) .

ـ يجبُ أَنْ نَجْتَهِدَ لِنَجْتَهِدَ ، (أما طَرْقُ بابِ الاجتهادِ بيدٍ شَلاَّء . . فجنايةٌ على الدِّينِ وذَويه ، وضَلالةٌ ضَلْعاء) .

ـ بَيْنَ مانِعي الاجْتهادِ ومُجيزيه شُقَّةُ خلافٍ تُمثِّلُ الإِفراطَ والتَّفْريط ، (ولقد رأَيتُ مَنْ يُريدُ الاجتهاد وهو يَجْهَلُ عِلْمَ الأَطْفالِ عِلْمَ النَّحْو) .

ـ إِنَّ القولَ بسَدِّ بابِ الاجتهادِ اجتهاد ، (فقلْ للقائلِ به : إِنَّكَ قائلٌ غيرَ ما تفعلُ ، أو فاعِلٌ غيرَ ما تقول) .

ذلك بأَنَّه رأْي لم يَقُلْ بهِ أَحَدُ الأَئمةِ الأَربعةِ الَّذين خُتِمَ بطابَعهم بابُ الاجْتهاد ، بَلْ إِنَّهُ مخالفٌ لما رُوِيَ عنهم رضوان الله عليهم في ذلك الباب ، أَما إِذا كنتم مقلِّدين فيه لغير أَئمة المذاهب من بعض المتأَخِّرين . . فإِنَّ هذا يُسمَّىٰ جُموداً لا تقليداً ، وأَما العُدولُ عن رأْي صاحبِ المَذْهَبِ إِلىٰ قَوْل بَعْض مُقَلِّديهِ . . فيجبُ أَنْ نَنْقُرَ له علىٰ كلمةٍ أُخرىٰ في القاموس .

ـ اختلف اثنان في العملِ بخَبَرِ البَرْقِ ، فقال أَحدهما : جائز ، وقال الآخر : غير جائز ، وكانت حجة الثَّاني : أَن باب الاجتهاد مسدود ، فليس لنا أَن نجتهد ، فقلْتُ له : إِنَّك تمنع الاجتهاد من حيث إِنَّك فاعِلُه ، إِنَّك في قولك : (غيرُ جائزٍ) مُجتهدٌ مثلُ صاحِبك في قوله : إِنَّهُ جائزٌ ، غايةُ ما في الباب أَنَّكُما مُختلفان في السَّلْب والإِيجاب ، والاجتهاد لا يختصُّ بأَحدِ طَرَفَي القَضِيَّة ، بل يكونُ في كليهما .

التَّقليد

ـ في الدِّماغ شعلةٌ جوَّالة ، لا يُطْفِىءُ نورها إلا الموتُ وأخوهُ التَّقليد .

ـ التَّقْليدُ ضَرْبٌ مِنَ العَمىٰ ، فاحذرْ أَنْ لا يكونَ مِن نوع العَمى الأَسْودِ .

ـ مَنْ قَلَّدَ مُسْتَدِلاً بَعْدَ النَّظَرِ في دليلِهِ . . كان مُسْتَدِلاً مِثْلَه ، أَما التَّقْليدُ في المدلول فقط . . فَهُوَ المُسمَّىٰ بـ(التَّقليد الأعمىٰ) ، (وهذا الفَرْقُ بَيْنَ التَّقليدَيْنِ يَجبُ أَنْ يكونَ الحدَّ الفاصِلَ بينَ تقليدِ الخواصِّ وتَقليدِ العَوامِّ) .

ـ لو أَرادَ اللهُ مِنَ الإنسانِ التَّقْليدَ . . لَخَلقَ بعضَ الرُّؤوسِ مِن غَيْرِ أَدْمِغةٍ ، وإلاَّ . . كانَ بعْضُ خَلْقِهِ عَبَثاً ، (فيا أُسَراءَ التَّقْليدِ ؛ لا تَظْلِموا حِكمةَ الخالِقِ ، ولا تكونوا علىٰ خلافِ ما أَرادَ اللهُ ، أَلَمْ تَسمَعوا قولَه عزَّ اسمُه : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

ـ التَّقليدُ شَلَلٌ في الدِّماغِ ، وجمودٌ في الرُّوحِ ، ومَوْتٌ في العاطِفَةِ .

ـ إذا كُنْتَ في كلِّ الأُمورِ مُقَلِّداً لِماذا تُرَىٰ أَعْطاكَ خالقُكَ الفِكْرَا ؟[1]

ـ لا شيءَ أَدلُّ علىٰ فَقْدِ المرءِ ثِقتَه بِنَفْسِهِ مِنَ التَّقليد .

ـ التَّقليد عنوان سقوط الهمَّة ، وضعة النَّفس ، وخور العزيمة .

ـ خَطَأٌ ـ وهو أثر اجتهادي ـ أَلَذُّ لنفسي وأشرفُ من صوابٍ أُقلِّد فيه غيري ، (ولا أقول : أَحْسَنُ) ، (فإنَّ الخطَأَ لا يكون خيراً من الصَّواب) .

ـ أَكثرُ ما يكونُ التَّقليدُ بين الأفضل والمفضول ، والغالب والمغلوب .

ـ (ومِنْ هُنا يَحْمِلُ العلماءُ تَبِعةَ الجُهلاء ، والآباءُ تَبِعةَ الأَبناء) .

ـ ثُمَّ مِنْ هُنا ارتبكَ الشَّرْقُ تُجاه الغَرْبِ ، فعامَ مِن تقليدِهِ في بحرٍ عَماء .

---

(١) من قصيدة للمؤلف ضاع أكثر أبياتها ، ينظر ديوانه « ذكرىٰ حبيب » (ص٩٧) .

ـ إذا قلَّدْتَ في أَمرٍ وقد سَبَرْتَ غورَه وظَهَرَتْ لكَ محاسِنُهُ . . فقد نَشَلْتَ نفسَكَ من هُوَّةِ التَّقليدِ إلى بَرْزَخٍ يُقَرِّبُكَ مِن مُسْتوى الاجتهاد .

ـ إذا قلَّدْتَ في حَسَنٍ . . فاجتهد أن تُحَوِّرَه إلىٰ أَحْسنَ منه ، (فإنَّكَ بذلك تَمْحُو عَنْكَ مَعَرَّةَ التَّقْليد) .

ـ التَّقليدُ يُخَفِّفُ مِن وَزْنِ صاحبِهِ ، فكن حيث يُقَلِّدُكَ غيرُك ، لا حيثُ تقلِّدُ غَيْرَكَ إِنْ كانَ لكَ وَزْن .

ـ التَّقليدُ في الأُمَمِ أَشَدُّ منه في الأَفراد (وإِنْ كانَ مَصْدَرُهُ الفَرْدُ) .

ـ إذا أفضَى التَّقليدُ بِأُمَّةٍ إلى الانسلاخِ مِن تقاليدِها . . عادَ مَسْخاً ، (فَلْيَقْتَصِدِ المُفْرِطُ فاتِناً كانَ أَوْ مَفْتوناً) .

ـ إذا ما أُمَّةٌ قَلَّدتْ أُخرىٰ في سَفساف الأُمورِ دونَ أَعاليها . . فمصيرُها البَوار ، (وهي خائرةٌ أَو طائشةٌ أَو مخدوعةٌ) .

ـ أَشَدُّ النَّاسِ عاراً مَن أَعجزَهُ التَّقليدُ في الفضائل ، فتعدَّاه إلى الرَّذائل .

المساجد ـ والمعابد

ـ هي بيوتُ اللهِ ، وشدَّ ما لجأَ إليها الشَّياطين .

ـ مَنْ لم يكنْ قلبهُ بيتاً للهِ . . كانَ دَنِساً في بيوتِ اللهِ إمَّا يَدْخُلَنَّها .

ـ أَسِّسُوا بيوتَ اللهِ على التَّقوىٰ ؛ ليستقيمَ البِناءُ ، وخُذوا الزِّينةَ مِنها والرِّياشَ إِلىٰ بيوتِكم ، أَمَّا بيوتُ اللهِ . . فبِذِكْرِهِ تَزْدان .

ـ رُبَّ مساجدَ ومعابدَ آضَتْ قِلاعاً وحوانيتَ يَتَّجِرُ فيها قومٌ ، ويحاربُ منها آخرون ، فياوَيْحَ البُسطاءِ مِنْ ذِئَابٍ في جُلودِ ثَعالب .

ـ المساجِدُ بُيوتُ اللهِ ، لا تكونُ ميراثاً ، (فَلْيَتَّقِ اللهَ في بيوتِ اللهِ عبادُه) .

ـ ما كانتِ المساجدُ تُراثَ الآباءِ للأَبناءِ حتَّىٰ صارَ العِلمُ قيافةً ووِراثةً ،

(وإلى اللهِ المُشْتكىٰ مما جَنَتِ اللَّيالي على العِلْمِ والدِّينِ) .

ـ ما كانتِ المساجِدُ مَضاجِع عطالةٍ ، ودُورَ رَهْبانية ، ولكن هي عدوى الأَدْيرة والصَّوامع ، فيا رُهْباناً تَسمَّوْا بالدَّراويش! لقد خالفتم سُنَّةَ رسولِ اللهِ ، وعَصَيْتُم أَمْرَ اللهِ ، ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ، وأَحلَّ لكم الطَّيباتِ من الرِّزق ، ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ .

ـ ما سوَّغَ لأَهْلِ الصُّفَّةِ إِيواءَهم إِليها إِلاَّ أَنَّهم كانوا مُرابطين ، مَتَىٰ دُعُوا إِلى الجهادِ . . هَبُّوا خِفافاً ، وكانوا طُلاَّبَ فقهٍ ورُواةَ حديثٍ ، يَلْتَمسونَهما في صُحْبةِ النَّبيِّ الكريم .

ـ أَمَّا رُهْبانُ مساجِدِنا . . فلا رجالَ حَرْبٍ ، ولا مُتَفَقِّهَةَ دينٍ ، ولكنَّهم طلابُ كسيراتٍ وحتاماتٍ ، تجودُ بها عليهم أَيْدي المتفضِّلين ، وربما كان فيهم مَن لَمْ يأْوِ إِلى المساجِدِ إِلاَّ فراراً مِن أَنْ يُدْعىٰ إِلىٰ سُوحِ القِتال ، وقد أَرَتْنا الأَيام من هؤلاء غيرَ قليلٍ ، أَمَّا حَظُّهم مِنَ الفِقْهِ . . فحدِّثْ عَنْ حمارِ الطَّاحُونِ ولا حَرَج .

الزُّهاد ـ والعباد

ـ الزُّهَّادُ بَرَكةُ اللهِ في أَرضهِ ، يُسْتَسْقَىٰ بِهمُ الغَيْثُ ، ويُرْفَعُ بِهمُ العَذاب .

ـ كَمْ مِن زاهِدٍ وَضَعَهُ الصَّيارفةُ على المَحَكِّ فوجدوه زَيْفاً ، (فياويحَ الأَصيلِ مِنَ الدَّخيل) .

ـ رُبَّ زاهِدٍ في الدُّنيا بعدَ ما زَهِدَتْ فيه ، (ازهَدْ في دُنْياكَ وهي مُقْبِلَةٌ عليك إِمَّا كُنْتَ صادِقاً) .

ـ الزُّهْدُ أَنْ تَزْهَدَ عمَّا في أَيدي النَّاس ، لا أَنْ تَقْعُدَ عن العمل وتكونَ عالةً علىٰ هذا وذاك ، ثُمَّ تُسمِّي نفسكَ زاهِداً .

ـ بِئْسَتْ طريقةُ الزُّهْدِ ما اصطلحَ عليهِ العامَّةُ مِن تَرْكِ العَمَلِ ، والانغماسِ

في حَمْأَةِ الكَسَلِ ، (إِنَّ تعاليمَ الشَّريعةِ الغَرَّاءِ حَرْبٌ لِما اصْطَلَحَ عليهِ الجُهلاءُ) .

ـ لو احترمَ الدَّهْماءُ الفَضيلةَ الصَّادقةَ احْتِرامَهم الزُّهْدَ الكاذبَ . . لأَصابُوا قادةً هُداةً يُخفِّفون عليهم من عَناءِ الحياة ما جرَّهم إِليه خَطَؤهم هذا ، (ائتِني بزُهَّادٍ يُرْشِدونَ الأُمَّةَ إِلىٰ ما يُكْسِبها نجاحَ الدَّارَيْنِ أُقَدِّسْهُم تقديساً ، وأَرفعهُم على الرَّأْسِ والعَيْن) .

ـ أَيُّ الاثنينِ خيرٌ : مَن كان ليلَه قائماً ، ونهارَهُ صائماً ، ولا يُهِمُّهُ مِنْ أَمْرِ الأُمَّةِ شيءٌ لو استَعْبَدَتْها الأُمَمُ ، وطَحنتْها الكوارِثُ ، وحقَّتْ عليها كلِمةُ البوار ؟ أَمْ من كان بوصيريَّ المَذْهَب[1] ، ولكنه يَغارُ لدينِ اللهِ ، فيَسْعىٰ لإِعلاءِ كلمتهِ ، ويَعْرفُ واجبَهُ تُجاه أُمَّتهِ ، فيَدْعُو إِلىٰ توحيدِ كلمتِها ، وجَمْعِ شملِها ، ويُفادي في سبيلِ خيرِها ، وحفظِ حُقوقها ، وتأْمينِ مصالِحها ، في أَمرِ دينها ودُنياها ؟ (إِنَّ الحكمَ العَدْلَ في ذلكَ قولُ الشَّارعِ الأَعظمِ صلى الله عليه وسلم : « خيرُ النَّاسِ أَنْفَعُهم للنَّاسِ ») .

ـ ما أَكثرَ الطُّرُقَ المؤديَةَ إِلىٰ رضوانِ اللهِ ، وإِنَّ أَفضلَها ما جَمَعَ بينَ عبادةِ اللهِ وخِدْمَةِ عبادهِ ، (فقولوا لمدَّعي الزُّهْدِ : هَلاَّ اخْتَرْتَ الطَّريقَ الأَفضَلَ) .

ـ ما قَبَعَ صاحبُ الشَّريعةِ الإِسلاميةِ في مُصَلاَّهُ ، وإِنَّما خاضَ المعامِعَ ، واقْتَحَمَ العَقَباتِ ؛ لإِعلاءِ كلمةِ اللهِ ، في يمينهِ القرآنُ ، حُجَّتُهُ البَيْضاءُ ، يَدْعُو إِلى مَحَجَّتهِ السَّمْحاءِ ، وفي شِمالهِ السَّيْفُ ، يَحْمِي بهِ دعْوَةَ الحَقِّ ، ويُدافعُ معارضيه ، ولقد ظاهَرَ بينَ دِرْعَيْنِ ، وشُجَّ وَجْهُهُ ، وكُسِرتْ رَباعِيَتُهُ[2] ،

---

(١) يشير إِلىٰ قول صاحب « البُرْءة » : (ولم أُصَلِّ سِوَىٰ فَرْضِي . . .) .
(٢) كان ذلك في غزوة (أُحُد) .

وأُذمِيَ كَعْبُه[1] ، وكَمْ قُتِلَ قَبْلَهُ مِن نَبيٍّ كَريم ، ولقد مشىٰ علىٰ سُنَّتِه مِن بعدِه الخُلفاءُ الرَّاشِدون ، ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

العلماء

ـ كانوا يُدْعَوْنَ القراء ، ثم سُمُّوا بالفقهاء ، واليوم يُقال لهم : العلماء .

ـ وبالرَّغم من ذلك لا أَستطيع أَن أَقول : اتَّحدَتِ المسميات واختلفت الأَسماء .

ـ العلماءُ رجالُ الدِّينِ ، والدِّينُ فوقَ كلِّ شيءٍ ، فليذكرِ العلماءُ ما يُسَمِّيهِ الأَديبُ : (مراعاة النَّظير) ، لئلا يُرَخِّصُوا غالياً ، ويُدَنِّسُوا نَقِيّاً .

ـ الأُمَّةُ في ذِمَّةِ عُلمائِها ، وعُلماؤها في ذِمَّةِ أَبنائها ، (ومِنْ خَفْرِ الذِّمَّةِ هَتْكُ الحُرْمَةِ) ، (فَلْيَتَّقِ اللهَ الفَريقان) .

ـ بَيْنَ الأُمَّةِ وعُلمائها وجائبُ متقابلةٌ ، ومُذْ قَصَّرَ بواجبهما الفريقان . . حقَّتْ علينا كلمةُ الخُسران .

ـ كانوا حملةَ الكِتابِ فصاروا رِجالَ التَّشريعِ ، ثم وَقَفُوا عندَ حدِّ النَّقْلِ والتَّقليد ، فقصَّروا دونَ الغايةِ في المِضْمار ، (وهل وراءَ الوُقوفِ غَيْرُ الجُمود ؟ ثم هَلْ بعدَ الجُمودِ غيرُ المَوْتِ ؟) .

ـ الفقهاءُ حُقوقيو هذه الأُمَّةِ ، وقد بذلوا من الجُهْدِ علىٰ عهدِ إقبالها ما جَهِلَتْ مقدارَهُ بعدَ إدبارِها ، وقَدْ جَمَعُوا مِنَ الأَنْقَاضِ ما يَشيدُ صُروحاً شامِخاتٍ ، وراشُوا مِن السِّهامِ ما بَزُّوا بهِ فطاحِلَ الرُّومان ، فما دارُ الشَّرائعِ (رُوما) ، ولكنَّها (دارُ السَّلام) .

---

(١) كان ذلك في الطائف ؛ إذ غالىٰ أهل مكة في عدائه بغياً وعناداً ، فذهب إلىٰ هناك ينشر دعوته ، ويلتمس معواناً ، فكانت ثقيف شراً من قريش .

ـ بينَ أَيدي العُلماءِ مِن تُراثِ الفُقهاء ما لو جَمَعُوا كنوزَه ونَقَدُوا جوهرَهُ . . لزانُوا جِيدَ المجتمعِ الإنسانيِّ بِعِقْدٍ ثَمِينٍ .

ـ مِنْ أَعْظَمِ ما رُزِئَتْ بِهِ الأُمَّةُ وُقوفُ العُلماءِ مِنَ الفُقَهاءِ مَوْقِفَ الجُمود ، ووقوفُ الجُهلاءِ موقِفَ الجُحود ، فضلَّ الجُهلاءُ ، وما هداهم العُلماء ، (وبين أُولئك وهؤلاء ضاعَ فضلُ الفُقهاء) .

ـ أَليس من غباوة الوارث أَن ينقم من مورثه كثرة المال الموروث ؟! (ذلك مثل الجهلاء الَّذين ينقمون من الفقهاء كثرة الاختلاف والآراء) ، (ما ذنب المال الموروث وما ذنب مُوَرِّثِهِ إِذا كانَ الوارثُ سَفيهاً لا يُحْسِنُ التَّصَرُّفَ فيه ؟!) .

ـ جَزى اللهُ عنا الفقهاءَ خَيْرَ الجَزاء ، إِنَّهُمْ بفَرْطِ اخْتلافِهم هذا قد أَلْقَوا إِلى الأَجيالِ بمفاتيحِ العُصور ، فضيَّقْنا واسعاً ، وَوَقَفْنا دونَ الأَبواب مُقْفَلَةً مُوصَدَةً .

ـ لا اجتهادَ في مَعْرِض النَّصِّ ، وفيما عدا ذلك لا نكادُ نَجِدُ مَسْأَلَةً واحدةً إِلاَّ وفيها عدة أَقوال ، ثم إِنَّنا نرىٰ هذا من سادتِنا الفُقهاءِ رِضوانُ الله عليهم ونَجْمُدُ عِنْدَ قولِ أَحَدِ المتأَخِّرين : (وبه يُفتىٰ) ، فلا نَجْرُؤُ على الأَخْذِ بِثانٍ مما قالُوا وإِن كانَتْ فيه مصلحةُ الدُّنيا والدِّين لِتَغَيُّرِ الزَّمان .

ـ لو عَضَدَتِ الأُمَّةُ علماءَها . . لما فَقَدَتْ فيهم مَن لم تَقْعُدْ بهِ هِمَّتُه عَنْ مَرْتَبَةِ التَّرجيح ، فيَهْتدي بِهَدْي السَّلَفِ الصَّالح ، وينهجُ بالأُمَّةِ صِراطاً سَوِيّاً .

ـ يُريدون من العُلماءِ أَنْ يَنْزلوا إِلىٰ مُعْتَرَكٍ لَمْ يُؤَهِّلوهم لِمثلهِ ، وقَدْ فقدوا سِلاحه مُنْذُ عُصور ، (إِنَّ كلا الفريقين مَعْذولٌ ومَعْذُورٌ) .

ـ يُكَلِّفونَ العُلَماءَ بأَشياء ولا يتكلَّفون لَهُم بِشَيءٍ ، (فهَلْ هذا مِنَ الإِنصافِ في شَيْءٍ ؟) .

ـ ضَنُّوا عليهم بالحُطام ، وسَخَوْا لهم بشيءٍ من الاحْترام ، حتَّىٰ إِذا تدنَّس

مَسْلَكُهم النَّزيهُ بالدُّخلاءِ فيهِ . . حَرَموهم كُلَّ شَيءٍ ، ثم اتَّخذوهم هَدَفاً للسِّهام ، (فَهَلْ هذا مِنَ المُروءَةِ في شَيءٍ ؟) .

ـ لَئِنْ قَصَّرَ العُلَماءُ بالواجِبَيْنِ : نُصْحِ الأُمراءِ ، وإرشادِ الأُمَّةِ . . فقد قَصَّرَ الأُمَراءُ والأُمَّةُ بواجِبَي المعونةِ والحُرْمَةِ ، (ولقد لَقِيَ كُلٌّ مِنَ الثَّلاثةِ جَزاءَ تَقْصيرِهِ ، فهل من مدكر) .

ـ ما أُسِيءَ إلى العُلماءِ بِشَيءٍ مثلِ الإساءَةِ إليهم بِتَرْكهم روضةً مِنْ غَيْرِ سِياج لا تأمَنُ بَهيمة تَرْعاها ، ومَنْبتاً مِن غيرِ رَقيبٍ يُخْشَىٰ عَلَيه مِنَ الأَدْغالِ .

ـ عمامةٌ بَيْضاءُ وجُبَّةٌ سَوْداء مِنْ بَزَّازٍ وخَيَّاط تَكْفِيان لِحَشْرِ الجاهِلِ في زُمْرَةِ العُلَماءِ[1] ، (ومن هنا اختلط الحابلُ بالنَّابل ، والتبس الأَمر على العامَّة ، ولَحِقَ الأَصيلَ دَنَسُ الدَّخيل ، وهذه جِنايةُ الأُمراء من حادث وقديم منذُ سُمِّيت وظائف العلماء (عَلُوفَةً) ؛ لِيَسْتَبِدُّوا في الأَمر ، وينفردوا في الصَّوْلجان)[2] .

---

(١) شاءت الأيام أن لا يكون لرجل الدين ما لِأصغر شرطي من نظام يرجع إليه ويعوّل عليه في معرفة حقوقه ، وصونها من يد عابث ، أَو ضحكة هازىء ، أو غطرسة جائر ، ومنها قضية الشعار ، بل ربما كانت أدناها .

أجل ؛ مما يدمىٰ له القلب أسفاً : أن لكلّ مسلك نظاماً يحوطه من مفاسد الفوضىٰ إلا المسلك الديني المقدّس ، فما برح هملاً .

هذا الشرطيّ لو تزيىٰ غير الشرطي بزيّه . . لسماه القانون منتحلاً ، وفرض عليه شيئاً من العقوبة .

أَما العالم من رجال الدين . . فلو تزيىٰ بزيّه جاهل مُتَخرِّجٌ من مدرسة (البزاز والخياط) ، فأَضلّ العامة المخدوعة بمنظره ، الجاهلة بمخبره . . فليس إلىٰ إصلاح حاله وإنقاذ الأمة من إضلاله من سبيل .

ولعل الدهر يفيق من سكراته في مستقبل الأيام ، ونرىٰ لرجل الدين ما للشرطيّ مثلاً من سياج يحوطه ، ونظام يصونه ، (وما ذلك علىٰ رجال العمل ورواد الإصلاح بعزيز) .

(٢) يقول المؤلف : تذكرت هنا كيف يصرع المبارزُ قِرْنَه ، بعد ما رأيت يد السياسة قد شطرت العلماء شطرين ، تضرب من أدبر من الأصلاء بمن أقبل من الدخلاء ؛ ليخلوَ لها وجهُ =

ـ لَيْسَ (أُولو الأَمْرِ) الَّذين وَجَبَتْ طاعتُهم في كتابِ اللهِ إلا الأُمراءَ والعُلماءَ على اختلافٍ بين المفسرين يؤول إلى اتِّفاق ، (فما كانَ أجدرَ بالعُلماءِ أَن لا يَضَعُوا أَنْفُسَهم إلا حيثُ رَفَعهم اللهُ ، ثم يَفْهَمُوا ويُفْهِموا : أَنْ لا طاعةَ لِمَخْلُوقٍ في مَعْصيةِ الخَالِقِ) .

ـ ما رأَيتُ قَوْماً أَلْحَقَ بِهم الحَيْفُ مِنَ العُلماء ، (لا دُنْيا أَصابوا ، ولا يَدَعُونَهم يَحْتَفِظونَ بدينٍ ، وهُمْ باحتِمالهم هذا الحَيْفَ كانوا لأَنفسهم ظالمين) .

ـ لن يَسْتقيمَ أَمْرُ الإِسلام والمسلمين حتَّىٰ يتَّخِذوا من عُلمائهِ مصابيحَ هُدىً وأَعلامَ رُشْدٍ لا يَضِلُّون ولا يُضِلُّون ، (تَهْتَزُّ من تحتِهم المنابرُ ، ويُفيضون من فوقِها نوراً ، وهم بحبلِ اللهِ مُعْتصمون) ، (وفي أَوقافِ الأُمَّةِ ما تستطيعُ بهِ تكوينَ سماءٍ تَزْهُو بمثلِ هاتيكَ النُّجوم) .

ـ مَظْلومٌ الدِّينُ ، ومِسْكينٌ رَجُلُ الدِّين ، (مِنْ أَجْلِهما كانَت الأَوْقافُ ، وغيرُهما يتمتَّعُ بخيراتها إلاَّ رَشْحَ القِرْبَةِ وثُمالَةَ الكأْس) ، (رُبَّ بلادٍ رأَيتُ لا يتقاضىٰ فيها خمسةُ خُطَباءَ راتبَ جابٍ واحدٍ ، ويتقاضَىٰ فيها الفَرَّاشُ الأُمِّيُّ ثلاثةَ أَضعافِ ما يتقاضاهُ الخطيبُ المِسْكينُ) .

الأُمراء ـ والعلماء

ـ خَيْرُ ما قيل فيهما :

(نِعْمَ الأُمراءُ علىٰ أَبوابِ العُلماءِ ، وبِئْسَ العُلماءُ علىٰ أَبوابِ الأُمراءِ) .

ـ خاصَّةُ الأُمَّةِ أُمَراؤها وعُلَماؤها ، فَأَصْلِح الخَاصَّةَ تَصْطَلِحِ العامَّةُ ، ومِن هذا القبيل : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ .

= الملك ، ويَخلُوَ لها الاستبداد فيه .

ـ العُلَماءُ والأُمَراءُ سائق وقائد ، (فلتنظرِ الأُمَّةُ في أيّ وادٍ هِيَه) .

ـ قُلْ للذين يَتَشَدَّقون في مَدْح الأمراء وإطراء العلماء : أيَّ الأُمَراءِ تَعْنون ؟ وأيَّ العُلَماءِ تُريدون ؟

ـ إنَّ الَّذين وَجَبَتْ طاعتُهم في كتابِ اللهِ هُم أمراءُ الحقِّ ، وعلماءُ الحقيقةِ .

ـ (أُولئك هم ظِلُّ الله في أَرْضهِ ، وأُولئك هُم وَرَثَةُ الأَنْبياء) .

ـ ما بَرِحَت الأُمَّةُ بخيرٍ حتّىٰ صارَتِ الإِمْرَةُ استبداداً ، والعِلمُ قِيافةً ، (وإنَّما ابتُلِينا معاشرَ العربِ بهذا الدَّاءِ مِنْ عَدْوَى الأَعاجِم) .

ـ ما أَوجدَ علماءَ السُّوءِ إلا أُمراءُ السُّوءِ ، (وبين لصٍّ من هؤلاء ، وشصٍّ من أُولئك ذهبَت الأُمَّةُ ضَياعاً ، ووقعَتْ في المهالِك ، ومَنْ دَقَّقَ التَّاريخَ . . رأى الدَّاءَ قديماً ، وعَرَفَ يدَ أيِّ سارقٍ يَقْطَعُ) .

ـ إلى اللهِ المُشتكَىٰ مما يُمْلِي علينا التَّاريخُ ، (هم زَرَعُوا الحَنْظَلَ ، ونَحْنُ أَدْرَكْنا مَوْسِمَ الحَصاد) ، وهل حياةُ الأُممِ إلاَّ سِلْسِلَةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِن حَلقات ؟

ـ إذا أَخْلَصَ الأُمَراءُ ، واسْتَيْقَظَ العُلَماءُ ، ثُمَّ مَشَوْا علىٰ قَدَمٍ واحدةٍ . . استطاعوا أَنْ يُصْلِحوا ما فَسَدَ مِنْ أَمْرِ الإسلامِ والمُسْلمين .

ـ رُبَّما يودُّ كُلٌّ مِنَ الأُمَراءِ والعُلَماءِ : أَنْ يَعْضُدَ صاحبَهُ ، وأَنْ يَعْتَضِدَ بهِ ، وإنَّما التَّبِعَةُ على الزَّمانِ الَّذي تركهما وراءَه ، فطوَّح بهما ، ثمَّ طوَّرَ فريقاً دونَ الآخرِ ، وفاقِدُ الشَّيْءِ لا يُعطيه ، ومِنْ هُنا افترقَ الأَخوان ، (ولَعَلَّ الزَّمانَ الَّذي فرَّقَ بينهما بحوادثِهِ سَيَجْمَعُ بينهما بكوارثِهِ) .

التَّعصُّب والتَّسامح

ـ للتَّعصُّبِ والتَّسامُح تأْثيرٌ على الحياةِ كبير .

ـ هُما ضِدَّان ، وكلاهما لِلْحياةِ ضَرورِيان .

ـ التَّعصُّب سِياجُ المبادِىء ، ولولا المبادِىءُ . . لاضْطَرَبَتْ سفينةُ الحياة بينَ أمْواجِ التَّذَبْذُبِ وعواصِفِ الرِّيَبِ .

ـ أَمَّا التَّسامحُ . . فبَصيصٌ منَ الأَمَلِ ، يَقي السَّفينةَ مِن الغَرَقِ إذا اصْطَدَمَتْ بالصُّخور .

ـ بالتَّسامُحِ من دون تَعَصُّبٍ قَدْ يَموتُ الحَقُّ .

ـوبالتَّعصُّبِ من دونِ تسامُحٍ قد يَحْيا الباطِل ، (فخُذْ منهما ما تُحيي به حقّاً ، وتُميتُ باطلاً) .

ـ التَّعصُّبُ وليدُ الرُّسوخ ، والتَّسامحُ ثمرةُ الحكمةِ ، فعَن أَيِّهما تَسْتَغْني في ساحةِ الوُجود ؟ (ولكنْ لِكُلٍّ منهما حَدٌّ مَحدود) .

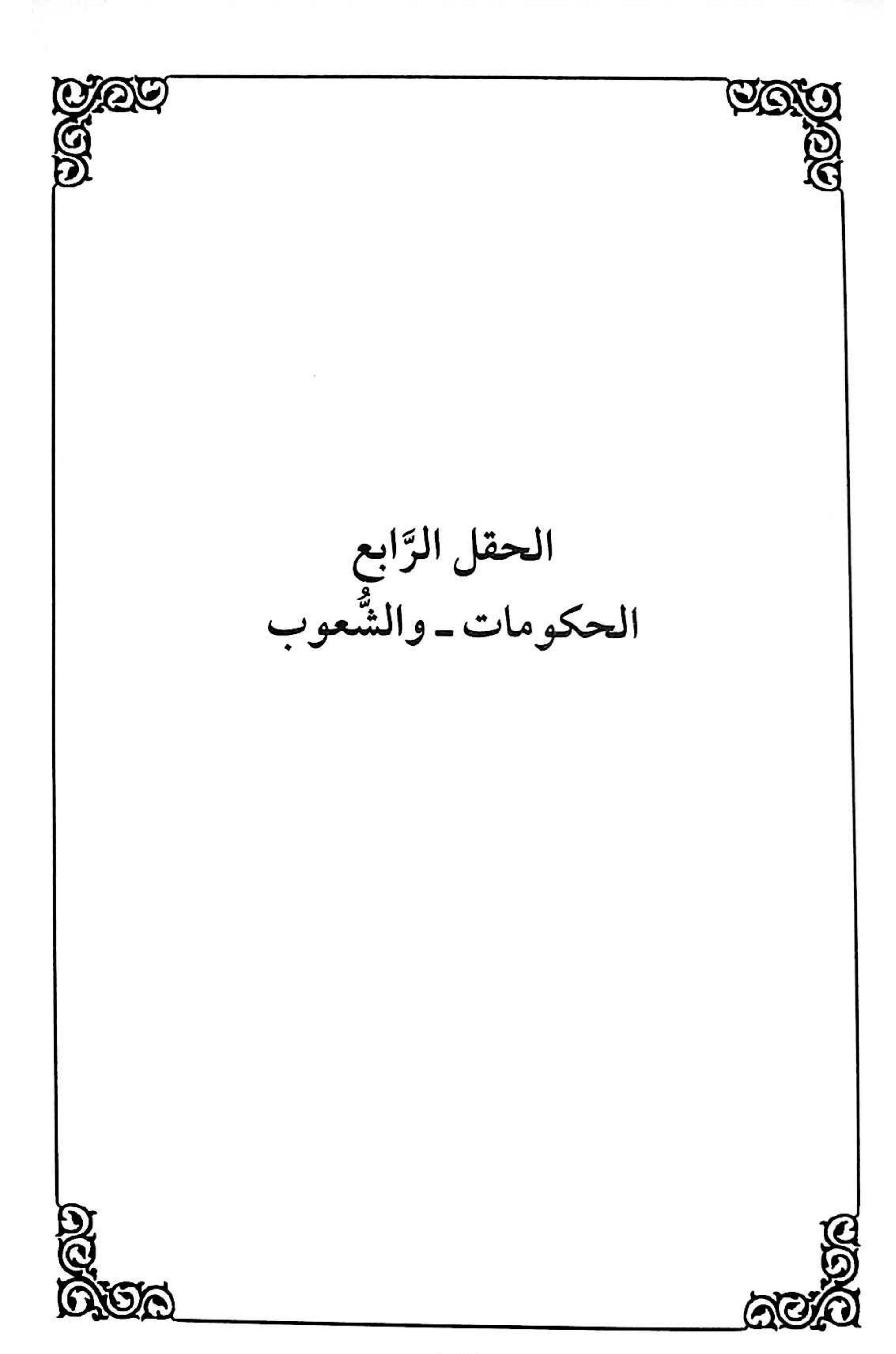
ـ لقد مُنِي دِينُ الإسلامِ بِمُتَعَصِّبٍ يَغْضَبُ لعادةٍ تَوَهَّمها من فُروعه ، وبمتسامحٍ لا يُبالي بِهَتْكِ شعائرِهِ ، وهَدْم أُصولِهِ ، (وليسَ الأَوَّلُ بأَقلَّ ضَرراً عليهِ من الثَّاني) ، (وليسَ الفريقانِ مِن أَبنائهِ أَخفَّ مصيبةً عليهِ من أعدائهِ) .

ـ ولولا أَنَّ الأُسُسَ متينةٌ ، والقواعدَ مُحْكماتٌ . . لما ثَبَتَ البُنْيانُ أَمامَ هاتيكَ المَعاوِلِ ، ولكنْ صَدَقَ اللهُ العظيمُ : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ .

ـ أَلا وإن حظ العرب مثل حظ ربيبهم في المصاب ، (وهل دينُ الإسلامِ إلاَّ ربيبُ العَرَبِ ؟) ، عَلَيْهِم نَزَلَ وَحْيُه ، وفيهم قامَتْ حُجَّتُهُ ، وبِسُيوفِهم استقامَ أَمْرُه ، يُنافِحون بها عَنْهُ كلَّ مُعْتَدٍ أَثيمٍ .

ـ يَوْمَ يَحْمِلُ في حقائبِهما الأُمراءُ والعلماءُ مِنَ التَّعصُّبِ والتَّسامُحِ ما يَحْيا بهِ حقٌّ ، ويموتُ باطِلٌ . . فلا قيودَ يومئذٍ ولا أَغْلاَلَ ، (وما زالَ الشَّرُّ في طَرَفَيِ القَصْد ، وإنَّما الخيرُ في الاعْتِدال) .

* * *



الحقل الرَّابع
الحكومات ـ والشُّعوب

الحقل الرَّابع

الحكومات ـ والشُّعوب

* * *

الرِّئاسة

ـ الرِّئاسةُ طبيعة في البشرِ ، حتَّىٰ إِذا اجتمع منه اثْنان . . تمثَّلَتْ في أَحَدِهما ، وقد لا يَخْلُو عنها كثيرٌ من الحيوان .

ـ كثيرٌ عشاقُ الرِّئاسةِ ، ولكنَّ الأَكْفاءَ قليلٌ ، (ورُبَّما كانَ هذا أَكبرَ منابعِ الشَّقاءِ لِنَسْلِ حَوَّاء) .

ـ بِمخالِب حُبِّ الرِّئاسةِ كَمْ تَمَزَّقَ لِلأُمَمِ أَديم .

ـ مَنْ لَمْ يُوَفِّ حَقَّ الرِّئاسةِ . . كانَتْ لهُ خَساسَة ، (ولكنَّ جَهْلَ المرءِ نفسَه قَدْ يَحُولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ معرفةِ ذلك ، فلاَ يُحِسُّ بِأَلَمِ الوَخْز) .

ـ إِذا تَعَدَّدَتِ الرِّئاسةُ . . تَوَزَّعَتِ القُوىٰ ، وتَنَافَسَ القَوْمُ ، وكفَىٰ بِذلكَ نَذير شُؤْم .

ـ حَسْبُكَ مِن أَنَّ الرِّئاسةَ لا تتعدَّدُ : أَنَّ اللهَ خَلَقَ بينَ الكَتِفَيْنِ رأْساً واحِداً .

ـ رُبَّ قَوْم أَرادوا أَنْ يكونوا كُلُّهم رُؤوساً فكانوا كلُّهم أَذْناباً ، (وأُعيذُ قومي العَرَبَ مِن أَنْ يكونوا مِن ذاكَ القبيل) .

الحكومات

ـ الحُكوماتُ وُضِعَتْ لِلْعَدْلِ ، وقامَ بِناؤها على الظُّلْم .

ـ هِيَ مِلْحُ الأَرْضِ ، ولكنْ طالَما أَفْسَدَ هذا المِلْحُ الطَّعامَ ، وهي ظلُّ اللهِ

المَمْدودُ ، ولكنْ طالما تَفَيَّأَ هذا الظِّلَّ الشَّياطينُ ، ومهما كانَتِ الحالُ . . فلا يَسْتَقيمُ الأَمْرُ مِنْ غَيْرِ حُكومةٍ .

ـ الحكومةُ شَبَحٌ مَوْهوم ، تُمَثِّلُه المقَاعِدُ ، ولكنَّهُ شَبَحٌ رَهِيبٌ .

الحكومة والأُمة

ـ إنْ كانَت الحكومةُ رُوحاً . . فالأُمَّةُ هي الجَسَد ، أَو كانَتْ جَسداً . . فالأُمَّةُ هي الرُّوحُ ، (فَمَنْ أَرادَ منهما المَوْتَ . . فلْيَنْفَصِلْ عَنْ صاحبهِ) .

ـ الحكومةُ يَدُ الأُمَّةِ ، ولا تَأْمَنُ الأُمَّةُ بَطْشَها .

ـ حُرِّيَةُ الحُكومةِ إِسارةٌ للأُمَّةِ ، وحُرِّيَةُ الأُمَّةِ إِسارَةٌ للحكومةِ .

ـ ونجاحُهما مَعاً في تَوازُنِ القُوَىٰ ، وصَوْنِ الحُقوقِ المتقابلةِ بَيْنَهُما .

ـ تَجاوُزُ سُلْطَةِ الحُكومةِ حَدَّها يُفْضِي إِلى الاسْتِبْداد ، وتجاوُزُ حُرِّيةِ الأُمَّةِ حَدَّها يُفْضِي إِلى الفَوْضَىٰ ، (وما في كلَيْهِما : الاسْتِبْدادِ والفَوْضَى نَجاحٌ) .

ـ الأُمةُ فَوقَ الحُكومةِ ، فإِذا جَهِلَتْ مِقدارَ نَفْسِها . . عَاشَتْ في شَقاء ، (فيا ويحَ الأُمَمِ الجاهلةِ ، ثُمَّ أُعيذُ الأُمَّةَ العربيةَ أَنْ تكونَ مِنَ الجاهلين) .

الرَّاعي والرَّعيَّة

ـ كانَتِ الرَّعيَّةُ في ذمَّةِ الرَّاعِي ، أَمَّا اليومَ . . فالرَّاعي في ذمَّةِ الرَّعيَّة .

ـ (والفضلُ في هذا لِدِينِ الإِسلام لولا عَدْوَىٰ كِسْرىٰ وقَيْصَر في بلادِ الشَّام) .

ـ كلُّ راعٍ مَسْؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ ، فلْتَكُنِ الرَّعيةُ في مُقَدِّمةِ السَّائلين .

ـ إِذا خارَ عَزْمُ الرَّاعي . . استَبَدَّت الرَّعيَّةُ ، وإِذا خارَ عَزْمُ الرَّعيَّةِ . . استبَدَّ الرَّاعي ، (وجِماعُ الأَمْرِ أَنْ يَحْتَفِظَ كلٌّ مِنْهُما بِمَقامِهِ) .

الأُمم ـ والأَفراد

ـ الأُمَمُ جُثْمانٌ ، أَعْضاؤه أَفرادُها ، ويأبىٰ عِلْمُ وظائفِ الأَعضاءِ أَن يَسْتَغْني جَسَدٌ عَن أَيِّ عُضْوٍ كان ولو ظُفُراً في خِنْصِر ، فإِنَّ نَقْصَهُ يُشوِّهُ مِن بَهائِها .

ـ خيرٌ مِن بَتْرِ العُضْوِ الفاسدِ مداواتهُ ، إلاَّ أَنْ يُخْشىٰ علىٰ جارهِ مِن عَدْواه ، (فَبَتْرُهُ حينئذٍ أَفضلُ) .

ـ أصلِحِ الفردَ تصطلحِ الجماعاتُ ، وهنا سِرُّ نجاحِ الأُمَمِ .

ـ تتأَلفُ الأُمَّةُ مِنَ الأُسَرِ ، والأُسْرَةُ تتأَلفُ مِنَ الأَفرادِ ، (فأَحْكِمْ هذهِ العُرَىٰ ، وإِلاَّ . . نَبَتِ الظُّهور عَنِ الأَحْمَالِ ، فتَعَطَّلَ السَّيرُ ، وتعَرَّضَ الرَّكْبُ للأَخْطار) .

ـ إذا فَشَتِ البَطَالَةُ في الأَفْرادِ . . دبَّ داءُ الشَّلَلِ إلى الأُمَّةِ ، (وهناك الموتُ) .

ـ عُنوانُ حياةِ الأُمَّةِ تَمَرُّنُ أَفرادِها على العَملِ .

ـ إذا أَرَدْتَ نجاحَ أُمَّةٍ . . فلا تَحْتَقِرْ فيها عَمَلَ عامِلٍ ، فقد مَلأَ فراغاً مهما كان صغيراً .

ـ مَرِّنْهُ على العملِ ، ثُمَّ تَدَرَّجْ بهِ من صِغار الأَعمالِ إلىٰ كبارِها تظفرْ بِسِلْسِلَةٍ للحياةِ مُسْتَحْكِمَةِ الحَلَقاتِ .

الوطن ـ وحُبُّ الأَوطان

ـ الوطنُ مِرآةُ تكوينِ بَنيهِ ، (وربما كانت هذه هي الكُبْرىٰ مِن علائقِ الحُبِّ بينهما) .

ـ مِنْ أَجْمَلِ ما قيلَ في حُبِّ الأَوطان : (لولا حُبُّ الوَطَنِ . . لَخَرِبَ البَلَدُ السُّوء) .

ـ (ورُبَّما كانت هذه الحقيقةُ البارزةُ أَشدَّ أَسرارِ حُبِّ الوَطَنِ غُموضاً) .

ـ مَن خانَ وطنَهُ . . فَقَدْ خَانَ نَفْسَهُ ، ولَيْسَ لخائنِ نَفْسه مِن شَفيع .

لعــن الله مــن يخــون بــلادا عــاشَ كَهْـلاً فـي ظِلِّهـا وغـلامـا
حَضَنَتْـهُ طِفْـلاً وحَـاطَتْـهُ شَيْخـا أَرَأَيْــتَ الْــوُرُودَ والأَكمــامــا
أَنْبَتَتْــهُ وَرْداً فَــأَصْبَــحَ وَغْــدا لَيْسَ يَرْعىٰ للرَّوْضِ يَوْماً ذِماما[1]

ـ مَنْ لا يَغارُ علىٰ وَطَنِهِ . . فاتَّهِمْهُ بما شِئْتَ .

ـ وَطَنُ كُلِّ نَسْمةٍ مُستَقَرُّها ، وطالما نَرى الطَّائرَ يَغارُ علىٰ وَكْره ، والضَّبَّ علىٰ حُجْرِه ، (فلا يكونَنَّ الإنسانُ أَقلَّ عاطِفةً مِنَ الحيوان) .

ـ للوطن حقوق ، وإِهمالُها ضَرْبٌ من العُقوق .

إِنَّ مــن عــقَّ والــديــه لملعــو نٌ ومــن عــقَّ منــزلاً بــالعقيــق

ـ مَن خُلِق مِن تُرابِ بَلَدٍ . . أحبَّه .

ـ الوَطَنُ أَجلُّ من أَنْ يُفسَّر معناه بعُنصرِ التُّرابِ .

ـ الوطنُ مجموعةُ عنعناتٍ وتقاليدَ ومصالحَ ووشائج ، نبتتْ مع وارثها من خلالِ ذرَّات ذاك التُّرابِ ، فربطتهما بسلكٍ كهربائي يهتزُّ لأَدنىٰ عاملٍ ولو انفصَمَتِ العُرىٰ وبَعُدَت الشُّقَّةُ بين المكان والمكين .

ـ لا وطنَ لمن كان مَغلوباً على أمره في وطنِهِ .

ـ بِحَسْبِ الوطنِ أَنَّ اللهَ أَباحَ سفكَ الدِّماءِ في سبيلِ الاحتفاظِ به ، فاذكروا قوله تعالىٰ : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ

---

(١) من قصيدة للمؤلف ، عنوانها : (الميثاق) ، نظمها عقب انتحار عبد المحسن السعدون رئيس الوزارة العراقية سنة ١٩٢٩ وهي تصور وضع العراق يومذاك .
ينظر ديوانه « ذكرىٰ حبيب » (ص١٥٣) .

أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ، وقوله جلَّ ثناؤه : ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ .

الحضارة والبداوة

ـ لولا لذة العلم . . لكان أَهنأَ للإِنسان بقاؤه على الفطرة .

ـ كثير من مفاعيلِ التَّمدُّن مظاهرُ وحشة .

ـ وكثير من مظاهر الحضارة تشويه لوجه الطَّبيعة .

ـ يسخر المدنيُّ من جهل البدوي ، ويُنكر البدويُّ على المدنيِّ فسادَ أَخلاقه ، (وخيرٌ من الاثنين ثالثهما) .

ـ ما بَرِحَ الإِنسانُ يأْكلُ أَخاه الإِنسان ، لم يُفِدْه التَّمدُّنُ في ذلك شيئاً ، إِنَّما كانَتِ الأَضْراسُ عِظاماً فصارَتْ حَديداً ، والثَّانيةُ أَشَدُّ فَتْكاً من الأُولىٰ ، (وهذا هُوَ الفَرْقُ بَيْن مُتَوَحِّشِ الإِنسانِ ومتمدِّنِهِ في الغِلْظَةِ والبَطْشِ ، فسلامٌ علىٰ عَهْدِ الحَجَر ، وَليسَ عَلَيْكَ يا عَهْدَ الحديد السَّلامُ) .

ـ الحَضارةُ تَرَفٌ ، والبَداوَةُ شَظَف ، ولكنَّ في البداوة عِزّاً يَشْفَعُ لِشَظَفِها ، وفي الحضارة ذُلاًّ يُنَغِّصُ لذة تَرَفِها ، (وكلٌّ قَدْ أَلِفَ ما اعْتاد ، ولولا ذلك . . لَتَحَضَّرَ البَدَوِيُّ تَخَلُّصاً مِن شَظَفِ العَيْشِ ، وتَبَدَّى الحَضَرِيُّ تَمَلُّصاً مِن رِبقَةِ الذُّلِّ) .

ـ البَداوةُ أَصْلٌ ، والحضارةُ فَرْعٌ ، ولكنْ قَلَّما رَجَعَ الإِنسانُ القَهْقَرىٰ فعادَ إِلىٰ أَصْلِهِ ، أَمَّا نَحْوَ الحضارةِ . . فما زالَ سائِراً في طريقه يولِّي وجْهَه شطرها ، (ولعلَّ السَّبَبَ في ذلك ما زُيِّنَ للإِنسانِ مِن حُبِّ الشَّهَوات) .

الاشتراكية

ـ الاشتراكيةُ خيالٌ ذَهَبيٌّ ، يُزَوِّقُهُ أَهلُ الأَهواءِ ، وتُخْدَعُ بهِ البُسَطَاءُ .

ـ في حَقْلِ الاشتراكيةِ تَنْبُتُ أَشْواكُ الفَوْضَىٰ (ولَوْ بَعْدَ حِين) .

ـ لولا أَنَّ في الاشتراكيةِ مَعْنىً يَنْزِعُ إِليهِ طَبْعُ البَشَرِ . . لَخَفَتَ صَوْتُها لأَوَّلِ صَيْحَةٍ ، ولكنْ خُلِقَ الإِنسانُ شَحيحاً ، (وهذا الدَّاءُ نَفْسُهُ أَحَدُ أَدْوائِها ، فانظُرْ هَلْ يمكنُ أَنْ يعيشَ هذا الطِّفْلُ غَيْرَ سقيم ؟) .

ـ إِذا أَمْكَنَ جَمْعُ القُلوبِ علىٰ عاطِفةٍ واحدةٍ ، وقَصْرُ العُقول علىٰ تَصوُّرٍ واحد ، وتخلِّي الإِنسانِ عن مظاهرِ التَّطور ، ثم قَمْعُ كثيرٍ من غرائزهِ وطباعهِ ، إِذا أَمْكَنَ كلُّ ذلك . . أَمْكَنَ تحقيقُ معنَى الاشتراكيةِ كما يَهْوَىٰ غُلاتُها ، (ولكنْ هل يَستطيعُ أُولئِكَ المهوَّسون أَنْ يُعيدوا الإِنسانَ خَلْقاً جديداً ؟) ، (مَن أَرادَ الاشتراكية الحقَّةَ . . فَلْيعْتَنِقِ الإِسلامَ يَظْفَرْ بنظامٍ لَها ذَهَبِيٍّ ، يُؤَلِّفُ بيْنَ الفقيرِ والغَنِيِّ ، يُعينُ ذاكَ علىٰ شَقائهِ ، ولا يَنْقُصُ هذا في غِناه ، تِلْكَ هي الزَّكاة ، (وما أَفْلَحَ المُسْلِمونَ مُنْذُ عَصَوْا فيها أَمْرَ اللهِ) .

البلشفة

ـ ما كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أَتَكَهَّنَ لِوطنٍ خُلِقتُ مِنْ تُرابهِ بما يَطْعَنُهُ في السُّويداء ، ويُفْسِدُ عليهِ أَمْرَ دينهِ ودُنياه ـ وأَنا الَّذي أُحِبُّ الفأْلَ وأَكرهُ الطِّيرَةَ ـ لولا أَنَّ كَتْمَ الدَّاءِ شرٌّ مِنَ الدَّاءِ ، وأَنَّ صَوْتَ النَّذيرِ قد يَفْضُلُ صَوْتَ البَشير ، (وَقَدْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ) ، يقولُ مجنونُ عامر :

فإِنْ يَمْنَعُوا لَيْلَىٰ وَيَحْمُوا بِلادَهَا ... عَلَيَّ فَلَنْ يَحْمُوا عليَّ القَوافِيا

ـ فإِنْ كانَ التَّكهُّنُ السِّياسيُّ مثلَ الشِّعرِ الغراميِّ غيرَ مَحْظورٍ . . فلا مندوحةَ لِعراقِيٍّ يَغارُ علىٰ بلاده غَيْرَةَ العاشِقِ علىٰ سالبةِ لُبِّهِ مِنْ أَنْ يتطيَّرَ مِنْ شَوْكِ البَلْشَفَةِ

أَنْ يَنْبُتَ في صَعِيدِها الطَّيِّبِ مادامَ الزَّارِعُ لم يُحْسِنِ الحَرْثَ ولم يُعْنَ بانْتِقاءِ البُذورِ .

ـ إنَّما مدارسُ البلادِ صَعيدُها الطَّيِّبُ ، وإنَّما هُنالِكَ يُخْشَىٰ مِن أَدْغالِ البَلْشَفَةِ أَنْ تَلْقَىٰ أَرْضاً صالحةً للنُّموِّ والإنبات .

ـ التَّطوُّرُ تيَّارٌ لا يَقِفُ أَمامَهُ شَعْبٌ حَديثُ عهدٍ ، وإنَّ العَيْشَ الجديدَ قَدْ أَفضَىٰ بالعراقِ إلىٰ عَجْزِ الدَّخْل عَن الخَرْجِ عَجْزاً فاضِحاً مِن حيثُ كَثُرَتْ مصادِرُ هذا وقَلتْ مَوارِدُ ذاك ، إلاَّ ما كانَ مِنْ شَأْنِ الوَظائفِ مَعْشوقِ الشَّعْبِ القديم .

ومِن هُنا شَخصَتِ الأَبصارُ نحو دُور الحكومةِ ، وازْدَحَمَ النَّاسُ علىٰ أَبوابِ المدارسِ سُلَّم الوصول ، ولا رَيْبَ أَنَّ الماءَ المَعِينَ إذا تَوَلَّىٰ أَرْضاً فَسقاها لا يَلْبَثُ أَنْ يَغْمرها (إذا لم يَتَبَدَّلْ مَجراه) ، ثُمَّ يَفيضُ مِنَ الأَطْرافِ ، ويَطْغَىٰ ذاتَ اليَمينِ وذاتَ الشِّمالِ ، وهناكَ تَنْبُتُ الأَشْواك ، وتَنْمو الأَدْغال .

ـ لَيْسَ في استطاعةِ الحكومةِ أَنْ تُهَيِّىءَ لكلِّ خِرِّيجِ مدرسةٍ كُرْسِيّاً في دُورِها .

ـ فإنَّ المتناهي لا يَسُدُّ عَوَزَ غَيْرِ المتناهي .

ـ ولَيْسَ في استِطاعةِ الشَّابِّ المتخرِّجِ أَنْ يعيشَ مِن غيرِ كُرْسِي ، فإلىٰ أَين تذهبُ بِهِ أَحْلامُهُ اللَّذيذةُ إذا فتحَ عينيْهِ ولا شيءَ منها في يَدَيْهِ ؟

ـ يَخْرُجُ الشَّابُّ مِنَ المدرسةِ وقَدِ اعتادَ حياةً غيرَ حياتِهِ الأُولىٰ ؛ حياةَ البِيئَةِ ، يعوزُهُ كلُّ شيء ، ويُعْجِزهُ ثَمَنُ كُلِّ شيء .

ـ تُعوزهُ البَزَّةُ الإفْرَنْجيَّةُ ، مِن السِّدارةِ الإنجليزية ، إلى النَّعْلِ الأَمريكاني من كلِّ سنةٍ في فصولها الأَربعة .

ـ يُعوزُه الطِّيبُ (قولونيا) حِينَ يفرقُ شَعرَ رَأْسِهِ ، والسّحوقُ الأَبيضُ (بودرة) بعدَ حَلْقِ شعرِ وجههِ عند كلِّ صباح .

ـ تُعوزُه النَّظارات علىٰ عينيه والعصا بيمينه يتوكَّأُ عليها حين يَجُرُّ مِن أَذيالِ الشَّبابِ مَشْيَ المُعْجَبِ المُختال .

ـ يُعوزُه كلُّ ما يعوز إِخوانَه في النَّوادي والمقاهي ، والحدائق والمتنزَّهات لِبَسْطِ النَّفْسِ ، ومصافحةِ أَيْدِي النَّسائم عندَ كلِّ مساء ، (وما هذا باليسير ولاسيَّما إِذا كان من أَهل الموضة) .

ـ يعوزه كلُّ ذلك ، ويعجزه ثمنُ كل ذلك ، فماذا يصنع ؟

ـ يَنظرُ إِلىٰ جهاتهِ السِّتِّ ، فلا الأَرضُ تَفيضُ لُجَيْناً ، ولا السَّماءُ تُمْطِرُ ذَهَباً ، يعودُ إِلىٰ نَفْسِهِ ، فإِذا شِمالُه مغلولَةٌ ، ويمينهُ شَلاَّء ، لا يَسْتَطيعُ حرفةَ أَبيه ، ولا سِلْعَتُه نافقةٌ ، فيُعيدُ النَّظرَ إِلىٰ أَطرافه ، فإِذا ظلامٌ في ظلام ، فتعلو بصرَه غِشاوةُ الحائرِ ، وهناك مِن خِلال هاتيك الظُّلمات يَتَراءَىٰ له شَبَحٌ ضَئيلٌ ، تَلوحُ عليه ابتسامةُ الأَمَلِ ، يُذكِّرُهُ بأَحلامهِ الذَّهبية يومَ وَطِئَتْ قَدماهُ عَتَبَةَ المدرسةِ لأَوَّلِ مرَّةٍ ، فإِذا بالشَّابِّ المُتَنوِّر وقد انطبعت علىٰ ثَغره تلك الابْتِسامةُ مُحاكاةً وانعكاساً ، فأَخَذَ يُنْعِمُ النَّظَرَ مِن ورائِها ، لعلَّهُ يَهتدي إِلىٰ بابِ الفَرَجِ سَبيلاً ، فما لَبِثَ أَنْ وجدَ نفسَه أَمامَ بابِ طالما طَرَقَهُ مِن قبلُ ، فباءَ بالفَشَلِ ، (وهلِ يَطْرُقُ خِرِّيجو المدارس غيرَ بابِ الوظائف ؟) ، هنالك يتولاَّهُ اليَأْسُ ، وتُحيطُ بهِ الوَساوسُ ، وتتلوَّنُ له الهواجِسُ ، وتأْخُذهُ سِنَةُ الاستِغْراق ، لعلَّهُ يَظْفَرُ بطَيْفِ خيالٍ مِن فصيلةِ أَحلامهِ المدرسيَّة ، يُخفِّفُ مِن شُجونه ، أَو يَجدُ فيه سَلْوةً وعزاءً .

ـ وبينما هو علىٰ كُرْسِيِّ استِغْراقهِ هذا في زاويةٍ هادِئةٍ من زوايا المَقْهَىٰ . . إِذا بِصَوْتٍ رَخيم يَسْتَفِزُّ سَمْعه بِنبراتِ خَطيب مِصْقَع ، أَو زَمْجَرةِ فارس مِغْوار : (أيشْ هذا يا بيك ؟ أيشْ هذا يا أفندي ؟ أيش هذا يا سَيِّدي ؟ ألمثلِ هذا الكُرسيِّ الحقير في مثلِ هذا المَقْهى الكئيب أَضَعْنا السِّنين الطِّوال بَيْنَ جُدْرانِ المدارس ، وخَسِرْنا بَهْجَةَ الصِّبا بَيْنَ المحابِر والدَّفاتِر ؟!) .

ـ ساءَتْ مُقَدِّماتٌ تأْتي بمثْلِ هذه النَّتائج ، وأَشَدُّ النَّاسِ حُمْقاً مَنْ لا يَتَمَرَّدُ على الأَقدارِ تأْتيه مِن هذا القبيل .

ـ لم يَكَدِ الصَّديقانِ البائِسان يتصافَحان حتىٰ عَزَّزَتْهما البطالةُ بثالثٍ ، وما مَضَتْ سُوَيْعَةٌ مِن زمان حتىٰ كان الأَفرادُ جماعاتٍ وكلُّهم صَرْعىٰ سَهْمٍ واحدٍ ، سَهْمِ البَطالَةِ والإِفلاسِ ، وخَيْبَةِ الآمالِ ، وضَيْعَةِ الأَعْمالِ .

ـ وبعدَ ما تأْخُذُ الشَّكْوىٰ مَأْخَذَها منَ القَوْم ، ويَبْلُغُ البَثُّ نِصابَهُ ، ثُمَّ يَضيقون بالأَمر ذَرْعاً ، وقَدْ مَلَّ ثاوياً مَثْواه ، فإِذا كُلٌّ قد امتَطَىٰ نَعْلَه إِلىٰ بَعْضِ المُتَنَزَّهات ، وإِذا هُم هُنالك مُجْتَمعون بكثيرٍ مِن أَمثالِهم زَرافاتٍ وَوُحْداناً .

ـ وبينما يَشْكُو جَمْعٌ إِلىٰ جَمْع ، ويروي له أَحاديثَ يومهِ ، وكلُّها فصولُ روايةٍ واحدةٍ ، إذا بإِشاراتِ أَيْدٍ وأَكفٍّ مِن سياراتٍ ضَخْمةٍ فَخْمةٍ تَمُرُّ بالجُموعِ مَرَّ الخاطِف ، تُلْقي عليهم سلامَ الوفاءِ لعهدِ المدرسةِ القديم .

ـ فحدِّثْ حينئذٍ ما شِئْتَ عن جُرحٍ دلكْتَ بِمِلْحٍ ، وعَنْ هَشيمٍ أَصابَتْهُ نار .

ـ تُفيضُ الجُموعُ فيما تُفيض ، فَتَمْقُتُ الاستِئْثار ، وتَلْعَنُ مِن ورائهِ الاحتِكار ، ثم تتقاذَفُ سفينةَ أَفكارِها أَمواجُ الهواجس ، فتبرأُ إِلى التَّاريخ مِنْ عِلمٍ يُثْمِرُ بَذَخاً عِنْدَ فِئَةٍ ، وإِفلاساً عِنْدَ آخرين ، ثُمَّ تَسْتَمْطِرُ سحائِبَ الخزي والعار علىٰ زمانٍ لا يُريد أَنْ يَميزَ الغَثَّ مِنَ السَّمين ، ثم يَكِيلُ جُزافاً ، ولا يَزِنُ بقسطاس مستقيم .

ـ ولم تتمثلْ هذه الرِّواية في بلد دون آخر ، بل حيثما تذهبْ تَجِدْ أَجواقاً عديدةً ، ومَسْرحاً عتيداً .

ـ ثم لا تزالُ تتسعُ دائرةُ هذا التَّمثيلِ وتزدادُ فصولُه حتَّىٰ ينتهي بطبيعةِ الحالِ إلى الفَصْلِ الأَخير ؛ إِلى البَلْشَفَة ؛ إِلىٰ شُيوعِيَّةٍ عَمْياء .

ـ فإِذا هُناكَ في طُولِ البلادِ وعَرْضِها جيشٌ جَرَّار مِن مُتَخَرِّجي المدارس ، علىٰ رأْسه قُوَّاد مُتَلَمِّضون يَصرخون بصوتِ الحاقدِ الملذوع : يا بُؤَساء ؛

اتّحدوا ، لَن يَسعَدَ بعدَ اليومِ قَوْمٌ بشقاءِ آخرين .

ـ وربَّما يظفرون بشَيْخِ سَوءٍ يُحرِّفُ الكَلِمَ عَن مواضعهِ ، فيزيدُ في الطِّينِ بلَّةً ، يقول إغواءً لِلْقَوْمِ واسْتِهواءً : إيه أَيُّها الأَبْطالُ ؛ لا تَهِنُوا ولا تَحزَنوا ، إنَّ لكم مِنَ اللهِ ظَهيراً ، وإنَّ لكم في كتابهِ مُعْتَصَماً ، ثم يتلو قولَه جلَّتْ حِكمتُهُ : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

ـ ولربَّما يأْتيهم قِسِّيسُ سَوْءٍ فَيَزيدُ ضِغْثاً علىٰ إِبَّالةٍ ، ويَشْفَعُ صَوْتَ الشَّيخِ بِأَنْكَرَ مِنهُ تَلْفيقاً وسُوءَ تأْويلٍ ، فيقول : مَرْحىٰ أَيُّها الأَعِزَّاء ؛ أَنْتُم جُنْدُ اللهِ على الأَغنياءِ ، اللهُ يُبارِكُكُمْ ، وهذا الإِنْجيلُ الشَّريفُ يقول لكم : (الغَنِيُّ لا يَدْخُلُ مَلَكوت السَّماء) .

ـ ثُمَّ يَهْرَعُ أَبالسَةٌ مِن هُنا وهُناك ، فَيَنْفُخون في مَناخِرِ كلِّ مُفْلِسٍ ، ويَسْتَفِزُّونَ أَعْصابَ هذا ، ويَعْبَثون بلُبِّ ذاك ، ومَنْ أَعْوَزَهُ العَيْشُ ثُمَّ أَعْيَتْهُ الحِيلَةُ . تَشَبَّثَ بِلُعابِ الشَّمْسِ وخُيوطِ القَمَرِ .

ـ فإذا البلادُ مُضْطَرِبةٌ بأَفلاذِها ، وإذا الشَّعْبُ قَدْ فَسَدَتْ فِطْرَتُهُ وهُوَ مِنْ أَمْرِ دينهِ ودُنياه علىٰ خَطَرٍ عَظيم .

ـ خَيْرُ ما في البلادِ مدارسُها ، وأَفْظَعُ الشَّرِّ ما جاءَ مِن وِجْهَةِ الخَيْرِ ، فلَئِن اخْتَرَمَتِ البَلْشَفَةُ بَلداً بأَظفارِ مُتَعَلِّميهِ . فإنَّ شرَّ ما فيهِ مَدارِسُهُ .

ـ لا يُؤْمَنُ خَطَرُ البَلْشَفَةِ علىٰ بَلَدٍ إذا لَمْ تُفتَحْ أَمامَهُ أَبوابُ الارْتزاق .

ـ وأَفْضَلُ خِدمةٍ له وأَمْضىٰ سِلاحٍ يَدْرأُ بِهِ خَطَرَ البَلْشَفَةِ عَنْهُ : تعاونُ الحكومة والأَهلينَ للعنايةِ بشأْنِ الزِّراعةِ والصِّناعةِ ، وتَنْشيطُ العاملِ البائسِ ، والمتعلِّمِ المُفْلِسِ ، والفلاحِ المِسْكين ، (ولعلَّ الشَّعْبَ وحكومَتَه إذا أَعارا بَحْثي هذا نَظْرَةَ مُدَقِّقٍ مُنْصِفٍ أَنْ يُفكِّرا في المآل ، ولا يَجْعلا حَظَّهُ الإِهمال ، وفي مُقَدِّمَة الجميع وزارتا المعارف والاقتصاد إن شاء الله .

الاستقلال

ـ (الاسْتِقْلالُ) مِن جَوامعِ الكلِمِ ، ولا يتمتَّعُ بخيراتهِ إلاَّ الَّذين يَفْقَهون مَعْناه .

ـ اسْتِقلالُ الأُمَّةِ يَعني استقلالَ الفَرْدِ ، مِنْ غَيْرِ عكس ، (فلْيفطنْ لذلك الأَفرادُ ، وعلى القادةِ أَنْ يَشْحَذوا الأَذهانَ لذلك ويُوقِظوا الأَفْكار) .

ـ لكلِّ شيءٍ ثَمَنٌ ، وثَمَنُ الاستِقلالِ الدِّماء .

ـ كلمتان مُترادِفَتان : (الحياةُ والاستِقْلال) ، ومِن خَطيئاتِ القواميس غَفْلَتُها عَنِ التَّصْريح بذلك ، (قُلْ ولا تُبالِ : الاستِقْلالُ هو الحياةُ ، والحياةُ هي الاستِقْلال) .

ـ إذا فَقَدَتِ الأُمَّةُ استقلالها . . فَقَدْ فَقَدَتْ مَجْدَها .

ـ بَيْنَ الحيوانِ المُسَخَّر والإنسانِ المُخَيَّرِ حَدٌّ فاصِلٌ هو (الاستِقلال) .

ـ ما قرأْتُ قَولَه عزَّتْ كلمته : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ إلاَّ تذكَّرْتُ الأُممَ المحكومةَ فقُلْتُ في نفسي : (غفرانَك ، اللَّهم غُفْرانك ، ما بالُ مَنْ خَلَقْتَ إنساناً رَضِيَ أَنْ يَعيشَ حَيواناً ؟!) .

ـ عزَّةُ النَّفْسِ ، شَرَفُ العاطفةِ ، عُلُوُّ الهمة ، رَغَدُ العَيْش ، لذَّةُ الحياة ، إنماءُ الثَّروة ، انتشارُ العِلْم ، صِدْقُ اللَّهجة ، حريَّةُ الفِكْر ، نزاهةُ الضَّمير ، حِفْظُ الكِيان ، صَوْنُ التَّقاليد ، مَجْدُ التَّاريخ ، الاحتِفاظ باللُّغة ، الصَّراحةُ في القول ، الجُرْأَةُ على العمل ، الشَّجاعةُ الأَدبية ، التَّأَنُّقُ في الحضارة ، التَّبَسُّطُ في العُمران ، الاستِكْثارُ منَ الخَيْر ، التَّمتُّعُ بخيراتِ البلاد ، (كلُّ هاتيكَ المميِّزات مِن طبائعِ الاستِقلال) ، (فقلْ لِلأُمَّةِ غَيْرِ المُسْتَقلَّةِ : إنَّكِ فاقدةٌ لِكلِّ هاتيكَ المُمَيِّزات) .

ـ لأَنْ أَكُونَ مُسْتَقِلاً في كُوخٍ صُعْلوك خيرٌ مِنْ أَنْ أَكون مَحكوماً في قُصورِ الملوك .

ـ يَسْتَقِلُّ الذِّئبُ في وِجارِه ، والظَّبْيُ في كِناسِه ، والحيَّةُ في غارها ، ولا يَسْتقلُّ الإِنسانُ في بلادهِ ، لماذا ؟!

ـ لأَن أَخاهُ الإِنسانَ قَدْ حَرَمَهُ لذة ذاكَ النَّعيم .

ـ (عارٌ عليك أَيُّها الإِنسانُ ، عارٌ وشَنار ظالماً كُنْتَ أَوْ مَظْلوماً) .

ـ لو ذاقَتِ الأُمَمُ المحكومةُ طَعْمَ الاستِقلال . . لتَسلَّقَتْ إِلىٰ حدائقه جُدْرانَ المَوْتِ ، (ولكنْ فَقْدُها لَذَّةَ الحِسِّ أَفْقَدَهَا حِسَّ اللَّذةِ ، فنالَتْ حِرْماناً علىٰ حِرمانٍ) .

ـ عنوانُ شَرفِ الأُمَّةِ استقلالُها .

ـ وللشَّرفِ القَوْميِّ مظهرٌ لا يتمُّ الشَّرفُ الشَّخصيُّ بدونه ، (فَلْينتبِهْ لهذا مَنْ يَعُدُّ نَفْسَهُ مِنَ الأَشْراف) .

ـ مَنْ عَرَفَ معنَى الشَّرَفِ . . لا يَرضَىٰ إِلاَّ أَنْ تكون أُمَّتُه مُسْتَقِلَّةً .

ـ الاسْتعمارُ طَوْقُ حديدٍ ، والاِسْتِقلالُ زخرفٌ وَهَّاجٌ يَصْلُحُ للطِّلاءِ ، (ولطالما خُدِعَ بِذلكَ البُسَطاءُ) .

ـ مَا أَظْلَمَ عَصْرَ النُّور ! جَعَلَ الاستِقلالَ باقةَ زُهور مُخْتَلِفَةَ الأَلوانِ والأَريج ، (فاحذَرْ يا شَرْقِيُّ أَنْ يَخْدَعَكَ أَحْمَرُ قانٍ مِنْ غَيْرِ عَرْفٍ شَذِيٍّ) .

ـ إِذا أُصِيبَتْ أُمَّةٌ في استقلالِ بلادِها . . فقد أُصِيبَتْ في مَعاشِها ومعادِها ، (فقُلْ لِمَنْ خَسِرَ الدُّنيا والآخرةَ : ذلكَ هُوَ الخُسْرَانُ المبين) .

ـ الثَّوْرَةُ مِنْ غَيْرِ ثَرْوةٍ ، والعَلَم مِنْ غَيْرِ عِلْم لا يَحْصلان مِن الاستقلالِ السِّياسيِّ علَىٰ أَكثرَ مِنْ لَفْظٍ أَجْوف .

ـ إِذا جازَ للفَرْعِ أَنْ يَسبقَ أَصلَه . . جازَ للاستقلالِ السِّياسيِّ أَنْ يكونَ وَليدَ

نَفْسهِ [ما] لم يتقدَّمْه إصلاح اجتماعي يؤهل الأُمة لذياك المستوى الرَّفيع .

ـ الاستقلالُ سُلَّمٌ مُؤَلَّفٌ مِن دَرَجٍ ، آخِرُها الاستقلالُ السِّياسيُّ ، وأَوَّلُها الثَّورة الفِكْريةُ ، وبينَ الأَول والآخر بَقيةُ ضُروبِ الاستقلال ، ثم الطَّفْرَةُ أُخْتُ المُحال .

ـ لَعَلَّ القضيةَ دَوْريةٌ ، فمن قائل : (يَجِبُ أَنْ نستقلَّ لِنَحيا) ، ومن قائل : (يجبُ أَنْ نحيا لنستقلَّ) ، (وكلاهما مُصيبٌ) .

ـ إنَّ للاستقلالِ شُروطاً ، أَكبَرُها استعدادُ الأُمَّةِ لأَخذهِ بما قَدْ أَصابَتْ مِن مُقَدِّماتِ الحياةِ ، وبهذا يَنْدَفِعُ الدَّوْر .

الحرية

ـ الحرية أَنْ ينتهي حقُّك حيثُ يَبْدأُ حقُّ غَيْرِك ، (وهذا أَحَدُ قيودها ، فأَينَ الحُرية ؟!) .

ـ عَمَدْتُ إِلىٰ نِبْراسِ الحقيقةِ أَهْتَدِي بضوئهِ إِلىٰ هَيْكَلِ الحُريةِ فما وَجَدْتُهُ إِلاَّ في زاويةِ العَدَمِ .

ـ حَسْبُكَ مِن فقدان الحُرِّيةِ كَوْنُكَ أَسيرَ هواها .

ـ إنَّ الَّذين نسمِّيهم أَحراراً هُم عُشَّاقُ الحريَّة ، (وأُولئك أَهْلُ الشَّهامةِ ، وأُولئك هم الأَبطال) .

ـ يُولدُ الإِنسانُ حُرّاً ، حتَّىٰ إذا لَمَسَتْهُ يَدُ أَخيهِ الإِنسانِ . . ذاقَ طَعْمَ الأَسْرِ ، (وما هي إلا لَمْحَةُ بَصَر) .

ـ تَشْخَصُ بِبَصَرِكَ إِلى السَّماءِ تجدُ نَفْسَكَ بَيْنَ وَعْدٍ وَوعيد .

ـ تُصافحُ سُكانَ الأَرضِ يُحيُّونك بأَوامر وزواجر وعاداتٍ وتقاليد .

ـ تَقْبَعُ بَيْنَ أَهْلِكَ في عُقْرِ دارك يَمُتُّ إِليك كلٌّ بِسَبَبٍ ، (ثُمَّ بعدَ هذا كلِّهِ تُسمِّي نَفْسَكَ حرّاً ، مِسْكينٌ وغِرٌّ أَنْتَ أَيُّها الإِنسانُ) .

ـ الحريةُ والسَّعادةُ تَوْأَمَان ، وهما إِكْسِيرُ لَذَّةِ الحياةِ ، (ولكن شدَّ ما ضاقت عنهما مشيمةُ هذا الوجود) .

ـ إِنَّ الَّذين يُريدونَ أَنْ يَعيشُوا أَحْراراً إِنَّما يُحطِّمون بَعْضَ السَّلاسِلِ ، ولا يُحَطِّمُ الحديدَ إِلا الحديدُ ، ولا يُسْقَىٰ ذاكَ الزَّرْعُ إِلا بالدِّماء .

ـ مِنْ أَجْلِ الحُرِّيةِ تقتتل الأُمَم ، وبهذا الزُّخْرف الوَهَّاج طالما خدعت الشُّعوب .

العدل والظُّلم

ـ خيرُ مظاهرِ الحياةِ العدل ، وشرُّها الظُّلم ، هما رأس كلِّ سعادة وشقاء ، (فعلَىٰ قُطْبِهما تَدورُ رَحى الأَعمال ، وإِلىٰ مَبْدَئِهما تَنْتَهِي تَكيُّفاتُ الحَياة) .

ـ لَيْسَتِ الحياةُ غَيْرَ حقوقٍ طبيعيةٍ ، وتكاليفَ وضعيةٍ ، وشَرْطٌ للثَّانيةِ أَنْ لا تُخالِفَ نواميسَ الأُولَىٰ ، فما جاءَ مُنْطَبِقاً علىٰ تلك الرُّوح . . كان عَدْلاً ، وما تجاوزَ حدودَها . . نُسمِّيهِ ظُلْماً .

ـ العدلُ والظُّلْمُ مُتَسَرِّبان في أَعمال البشر كافَّةً ، يَسيرانِ مَعَهُ سَيْرَ دَمِهِ في العُروقِ ، شَعَرَ بذلكَ أَمْ لَمْ يَشْعُر ، حتَّىٰ إِنَّهُ لَوْ تَخَلَّىٰ وَنَفْسَه . . لما خلا عَنْهُما ، فإِنَّ لنفسهِ عليهِ حقّاً ، إِنْ أَدَّاهُ . . عَدَل ، وإِلاَّ . . كانَ لها ظالماً .

ـ أَقدسُ ما في الحياةِ : الأَديانُ والحكوماتُ ، (وهَدَفُ كِلَيْهِما : العَدْلُ والظُّلْمُ) .

ـ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يحكُمَ بَشراً مِثْلَهُ لولا عَدْلٌ يَرْجُوه ، وظُلْمٌ يَخْشاه ، (وإِلاَّ . . كانَ وَثنِياً يَعْبُدُ ما صَنَعَتْ يَداه) .

ـ وإِذا أَصْغَيْتَ إِلىٰ صَوْتِ السَّماءِ تَسْمَعُ الوحي يقول : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ ، ويقول : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ ، ويقول : ﴿ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

ـ مَنْ ضاقَ بهِ العَدْلُ . . كان الظُّلْمُ بهِ أَوْلَىٰ ، وَجَدِيرٌ بِمَنْ لا يَعْدِلُ أَنْ يَلْقَىٰ ظُلماً .

ـ وَجْهُ العَدْلِ أَبْيَضُ ، وَوَجْهُ الظُّلْمِ أَسْوَدُ ، فإذا خَلَّطوا عَلَيْكَ . . فقد حَسِبوكَ أَعْمىٰ .

ـ ما أَفْسَدَهُ الظُّلْمُ لا يُصْلِحُهُ إلاَّ العَدْلُ ، (فَلْيَنْتَبِهْ لذلكَ مَنْ يريدُ الإصلاح) .

ـ مرارةُ العَدْلِ خَيْرٌ مِنْ حَلاوَةِ الظُّلْمِ (إذا كانَ الذَّوْقُ سَليماً) .

ـ ما قَوَّضَ بُنْيانَ الظُّلْمِ مِثْلُ مِعْوَلِ العَدْلِ ، (فإن جاوَزْتَ . . فلا تأْمَنْ أَنْ تعودَ الكرَّةُ عليك) ، وتَدَبَّرْ قولَهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ : ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ .

العدل

ـ العَدْلُ شَقيقُ الحُرِّية ، (أَسْمَعُ بهِ وَلَمْ أَرَهُ) .

فَلْيُحَدِّثْ عَنْهُ مَنْ رآهُ ، ومعذرةً إليكم مَعاشِرَ الأَعِزَّاء .

ـ العَدْلُ ضالَّةٌ طالما نَشَدْناها فما وَجَدْناها حتَّىٰ ولا في مَحْكَمةِ (لاهاي) ، أَو بَهْوِ (عُصْبَةِ الأُمَمِ) ، وما إخالُ نَجِدُها إلا عِنْدَ تَصْفيةِ الحساب بَيْنَ يَدَيْ فاطِرِ الأَرضِ والسَّماء ، (فإلى المحكمةِ الكُبرى يا مُرِيدِي العَدْلِ إلى المحكمةِ الكُبْرىٰ) .

ـ لولا وَهمٌ تَنْسُجُهُ عَناكِبُ السِّياسةِ علىٰ أَدْمِغَةِ البُسَطاءِ . . لأَجْمَعَتِ الآراءُ علىٰ رَفْعِ كلمةِ (العَدْلِ) مِن مَعاجِمِ اللُّغَةِ وقواميسها .

ـ إذا سَمِعْتَ بحادثةِ عدْلٍ . . فإنَّما هي صُدْفَةٌ مُصادَفَةٌ .

ـ نَظَرتُ إلى الأَدْيانِ فإذا هِي تأمرُ بالعَدْلِ والإحسان ، فَلَجأْتُ إلىٰ أَبْنائِها فإذا مُعْظَمُهُمْ جالِسٌ تَحْتَ قولِ الشَّاعِرِ :

لا يَشْـــرَبُ القَهْــوَةَ فــي فِضَّـــةٍ   وَيَشْـــرَبُ الفِضَّـــةَ إِنْ نـــالَهـــا

ـ نظرتُ إلى الدَّساتير فإذا هي تَرى العَدْلَ أساسَ المُلْكِ ، وتَعْتَبِرُهُ حقاً للبشرِ طَبيعياً ، (ولكن سُرعانَ ما رأيتُ العُروشَ قائمةً على دَعائِمِ الظُّلْم ، والتِّيجانَ مخضوبةً بدماءِ الأَبْرِياء ، وربَّما كانَ أكبرُهُنَّ خرَزاً أشدَّهُنَّ ظُلْماً) .

ـ طالما كَمَنَ الظُّلْمُ في العَدْلِ كُمونَ النَّارِ في الزِّنادِ .

ـ إنَّ مِنَ العَدْلِ ما يُخَيَّلُ إلينا أنَّهُ ظُلْمٌ ، وإنَّ مِنَ الظُّلْمِ ما نَراهُ عَدْلاً ، (ولطالما أَنَّتِ البَشَرِيَّةُ تَحتَ كابوسِ هذهِ الأَوْهام ، ومِن وراءِ سِتارِ هَذِهِ الخُزعْبلاتِ) .

الظُّلم

ـ استَثْنِ السَّماء ومُدَّ يَدَكَ حَيْثُ شِئْتَ فلا تَقَعُ إلا على شَيْءٍ يُسَمّى (ظُلْماً) ، وربما كانَتِ السَّماءُ غَيْرَ جَديرةٍ بهذا الاستثناء ، فأَوَّلُ جُرْمٍ في السَّماء أَتَوْا بِهِ تَكَبَّرَ فيها واحِدٌ وغَوَى الثَّاني[1] .

ـ كلُّنا ظالِمٌ ، وكلُّنا مَظْلوم ، (إنَّ أَيْسَرَ ما يَتَناولُهُ المَرْءُ مِن الظُّلْمِ أَنْ يكونَ ظَالِمَ نَفْسِهِ) ، وكُلُّنا ذلكَ الرَّجلُ ، فاتْلُ قولَهُ جَلَّتْ أسماؤه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

ـ الظُّلمُ للإنسانِ كالإحراقِ للنَّار ، فمَنْ لامَ ظالماً على ظُلْمِهِ . فقد كلَّف الطَّبيعةَ ضِدَّ مَفْعولها .

والظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفوسِ فإنْ تَجِدْ   ذا عِفَّـــةٍ فَلِعِلَّـــةٍ لا يَظْلِـــمُ[2]

---

(١) يريد بالأول : قوله عزت كلمته : ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴾ فذا التكبر ، وبالثاني : قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ .

(٢) للشاعر أبي الطيب المتنبي من قصيدة له ، مطلعها :

لهــوى النفــوس ســريــرة لا تعلــم   عــرضـا نظرت وخلـت أنـي أسلـم

ـ إِنَّ خيراً مِنْ عَذْلِ الظَّالِمِ الْتماسُ العِلَّةِ الَّتي تكُفُّهُ عَنِ الظُّلْمِ ، (وهذهِ وظيفةُ المَظلوم ، فإنْ قَعَدَ عنها . . فقد قصَّر بواجبهِ ، ثم ظلمَ نفسَه) ، (وأَيُّ عُذْرٍ لمن قعدَ عن القيامِ بالواجبِ ؟) .

كُنْ مِنَ الَّذينَ يُبْغِضونَ الظَّالم ولا يَعْذُلُونَهُ ، ثم يَتَأَلمون للمظلوم ولا يَعْذِرونه[1] .

ـ ليسَتْ وقاحةُ الظَّالِمِ بأَبْعَثَ له على الظُّلْم مِن احتمالِ المظلومِ إِيَّاه ، (فقُلْ إنْ شِئْتَ : إِنَّه شريكُه فيه ، وقُل كذلك : إِنَّ هذا أَحَدُ مظاهرِ ظُلْمِ المَرءِ نفسَه) .

ـ لو عَلِمَ الظَّالمُ أَنَّ بَيْنَ جوانح المَظْلوم عاطفةً تدفعهُ إِلى الاستماتةِ دونَ هَضْمِ حقِّهِ . . لَتحاماه .

ـ ولو عَلِمَ المظلومُ أنه بالاستماتة دونَ حقِّهِ أَجْدَرُ مِنَ الظَّالمِ بالجُرْأَةِ على ارتكابِ جريمة الظُّلْم ، وأَنْ لا حياةَ إلا للمُسْتَميت . . لَتَمَلَّصَ مِن أُحْبولةِ ظالمِهِ ، فلا أَغْضَىٰ على القَذَىٰ ، ولا نامَ بَيْنَ أَنْيابِ الضَّيْم ومَخالبِ الهَوانِ .

ـ يقول صاحب الشَّريعة الإسلامية : « انْصُرْ أَخاكَ ظالماً أَو مظلوماً » ، فلما قيل له : (فكيف ننصره ظالماً ؟) . . قال : « ذلك أَنْ تكفَّهُ عَنِ الظُّلْم » .

فعدَّ كفَّ الظَّالمِ عَن ظُلْمه نُصْرةً لَهُ ، ولم يَبْرَحْ يُسمِّيه (أَخاً) ، ثم يَجِيءُ

---

(١) يقول المؤلف : هذا رأيي في (الظالم ومظلوميه) ، وإنه لرأي اجتماعيّ في أهم قضية اجتماعية تتكرر على الإنسان ما كرّ عليه الجديدان ، وقد أشرت إليه قبل تسعة عشر عاماً بقولي من قصيدة اجتماعية :

لعلمـي بـالإنسـان أعـذر جـائـراً ولستُ أرىٰ عذراً لمن يحملُ الجورا

فمتىٰ علم المظلوم أنه غير معذور في حمل الظلم . . فإنه لا يلبث إذا ما لحقه حيف أن يجد في نفسه باعثاً قوياً للاستماتة في سبيل دفع ما لحقه ، ومتىٰ تمّ هذا . . تخضدت شوكة الظلم طبعاً ، واضطر الظالم أن يكبح من جماحه ، ويخفف من غلوائه .

أَبطالُ نَشْرة حقوقِ البشر بَعْدَ اثْنَيْ عَشَرَ قَرناً فيعبِّرون عن مَنْع الظُّلم بالمقاومةِ له ، فهل أَتَوْا بجديد ؟ أَمْ حوَّروا قديماً فأَفْسَدُوا مَبْناهُ ومعناه ؟ إِني أَدَعُ الحكمَ في ذلك لمنْ يُميِّزُ بينَ الغثِّ والسَّمين مِن أَبناءِ القَرْنِ العِشرين .

الشَّرق والغرب

ـ الأَرضُ ميراثُ آدمَ لِبَنيهِ ، والوارثُ الشَّرقُ والغَرْبُ ، (ولطالما بَغىٰ أَخٌ علىٰ أَخيهِ ؛ لِيَهْضِم حقَّه مِن ميراثِ أَبيهِ) .

ـ الشَّرْقُ والغَرْبُ كفَّتا مِيزان ، إِذا ارْتَفَعَتْ إِحداهما . . انخَفَضَتِ الأُخرىٰ ، وتمامُ السَّعادةِ للبشرِ في استِوائهما ، (فلْيتحرَّوا للميزان قِسْطاساً مُستقيماً) .

ـ الشَّرْقُ شَرْقٌ ، والغَرْبُ غَرْبٌ ، لكلٍّ منهما طبائعُ ومواهبُ خصَّته بِها القوَّةُ الفاطِرةُ ، إِذا تعدَّاها . . شَوَّه وَجْهَ الطَّبيعةِ ، وأَفْسدَ نظامَ حياتهِ ، (إِذا جاز أَن تتَّحِدَ منهما الصُّوَرُ . . جاز أَن لا تَخْتَلِفَ السِّيَرُ) .

ـ في الغَرْبِ من العاداتِ والتَّقاليدِ ما طابَ وما خَبُثَ ، (فياوَيْحَ الشَّرقِ إِذا لم يُحْسِنِ التَّقليد) .

ـ رُبَّ عاداتٍ يشكو منها الغَرْبيُّ نفسُه وقد شَغِفَ بها الشَّرْقيُّ شَغَفَ الفَراشِ بالنَّار ، (كذلك زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهواتِ ، وبئسما يفعلُ الجاهلون) .

ـ مشَى الغربُ مِن وراءِ الشَّرقِ في طريقِ الفضيلةِ فرَقَى إِلى السَّماء .

ـ ويَمْشي الشَّرقُ مِن وراءِ الغربِ في طريقِ الرَّذيلةِ ، فإِلىٰ أَيْنَ المصيرُ ؟!

ـ (إِنَّهُ يُقَلِّدُهُ في كثيرٍ مما خَبُثَ ، ولا يُقَلِّدُهُ في كلِّ ما طابَ) .

ـ كانَ للشَّرقِ على الغربِ فضلُ الأُستاذِ على التِّلميذِ ، ولكن دونَ ضَرْبٍ مُؤْلِمٍ .

ـ وسيكونُ للغربِ على الشَّرق الفضلُ نفسُه ، ولكن بَعْدَ ضَرْبٍ مُبَرِّحٍ .

- إذا الغَرْبُ لم يُنْصِف أَخاه الشَّرْق . . أَساءَ إِلىٰ نَفْسهِ ، (فَلْيَحْذَر عامِلٌ سُوءَ مغبَّة عمله) .

- لو جمع الإنسانُ بينَ سَذاجةِ أَخلاقِ الشَّرْقيِّ ، وبدائعِ فَنِّ الغربيِّ . . لأَوْجَدَ مدينةً يَحْمَدُهُ عليها سُكَّانُ السَّماءِ .

- يُريدُ الشَّرْقيُّ أَنْ يَفْلُتَ مِن حِبالةِ الغَرْبِيِّ ، فهل فكَّر فيما يُوصِله إلىٰ ما يُريد ؟ (إِنَّ مَنْ يُريدُ أَمراً فَلْيَلْتَمِسْهُ مِن طريقهِ ، وإلاَّ . . فهوَ جاهِلٌ أَو طائِش أَو أَحْمق) .

- إذا أَرادَ الشَّرقُ أَن يتحرَّرَ من أَسرِ أَخيهِ الغَربِ . . فلْيفعلْ مِثْلَه ؛ (يَسْتَخْدِم الطَّبيعةَ تحتَ إِشارةِ العِلْم والفنِّ ، ويأْتِ بمثلِ ما أَتَىٰ مِنَ المعجزات) ، (إِنَّ ذاكَ الطَّوْقَ لا يُكْسَرُ إِلاَّ بِمِطْرَقَةٍ مِن جنسه) .

- هل يَسْتَوِي الجَمَلُ والقِطار ، والفارِسُ والطَّيار ، والسَّيارةُ والحِمار ، والجُرابُ علىٰ سطح النَّهر والغواصةُ في قَعْرِ البحار ، إذا استبَقَ الشَّقيقان في المضمار ؟!

- (فلينظرِ الشَّرقُ أَولاً إِلىٰ مواقعِ خَطْوه إذا أَرادَ السِّباق) .

- ما دامَ موقِفُ الشَّرْقِ مِنَ الغَرْبِ مَوقفَ الأَعْزَلِ مِنْ شاكي السِّلاح . . فَلَنْ تَبْرَحَ الأَطواقُ في الأَعناقِ .

- ما كانَ للمَقامعِ أَنْ تكمَّ أَفواهَ المدافع ، ولا للسُّيوفِ أَنْ تُطْفِىء لَهَبَ النَّارِ بماءِ فِرِنْدِها ، وما كانَ للرُّمْحِ أَنْ يَتَناوَشَ الطَّيَّارةَ ، ولا للخنجرِ أَن يُحطِّمَ السَّيَّارةَ ، فَلْيَعْرِفِ الشَّرْقُ كيفَ يُنازِلُ قِرْنَه .

- الملك عقيم ، وليس للسِّياسة قلب ، فَلْيَعْرِفِ الشَّرْقُ مَوقِفَهُ تجاه أَخيهِ الغَربِ .

- (إنا لَنَجِدُ الأَخَ إذا كانَ أَقْوَىٰ مِن أَخيهِ . . يطمعُ في سَهْمِهِ مِن ميراثِ أَبيه وهما من صلبٍ واحدٍ ، ورَحِمٍ واحدةٍ .

ـ فأيُّ عُذْرٍ للشَّرْقِ إذا التمسَ حقوقَه من بَيْنِ ثنايا الرَّحمةِ والإنصاف ؟

ـ وقد رثَّتْ لُحمةُ النَّسَبِ بينه وبين أَخيهِ الغَرْبِ مُنْذُ أَجيال .

ـ يقولون : (فَحْلانِ يُحَرِّكانِ العالم : الخوفُ ، والمصلحةُ) ، والحقُّ : أَنَّهُ فَحْلٌ واحد هو « القُوَّة » .

ـ فللشَّرق تجاه الغرب الخيار أَنْ يكونَ ذكراً أَو أُنثىٰ ، (أما المسلمُ . . فإنَّما فَقَدَ القُوَّةَ مُذْ جَهِلَ تعاليمَ دينهِ في قرآنهِ المجيدِ : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ .

ـ بئسما وَسْوَسَتْ للمُسْلِمِ نفسُه ، لو نظرَ إِلىٰ تعاليمِ دينهِ بنظرٍ حديدٍ . . لما فاتَهُ الرَّمْزُ الإلهي في سورة الحديد[1] ، ولهداه التَّدبُّرُ إِلىٰ حُسْنِ التَّدْبير ،

---

(١) يريد قوله جلّت حكمته : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ ، إن من يتدبر هذه الآية يجد فيها كل ما تحتاج الشعوب من دنيا ودين ، ومن صلاح فيها وإصلاح .

فإرسال الرسل بالبينات يحملهم على الإيمان بالحجة والبرهان .

وإنزال الكتاب والميزان ينقذهم من مهاوي الفوضىٰ إلىٰ حظائر التشريع والنظام ، وإقامة الأحكام .

ثم بالحديد وبأسه الشديد نحمي الشرائع من تمرد الأشرار ، وتتحاجز الشعوب والجماهير ، فيتقي بعضها شر بعض في ساحة التكالب وتنازع البقاء . . . وهكذا اشتملت الآية الكريمة على القوى الثلاث للحكومات : (التشريعية ، والقضائية ، والتنفيذية) .

واشتملت على حقوق البشر الطبيعية ؛ لأن القسط ـ أي : العدل ـ أساس كلّ شيء ، ثم حاطت كل ذلك بـ(الحديد) الذي تصنع منه السَّيارات والطيارات ، كما تصنع منه المدافع والحراب ، وهكذا كان فيه بأس شديد ومنافع للناس .

فليت شعري ماذا أصاب من بأسه ومنافعه الشرقيون عامةً ، والمسلمون خاصةً ، ثم العرب بوجه أخصّ ؟! وبلغة هؤلاء ولأجل أولئك نزل الكتاب ، (إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب) .

فأَرْشَدَ الشَّرقَ ، ونصحَ للغربِ بلسانِ بشيرٍ ونذير .

ـ أَوَّلُ مظاهرِ القُوَّةِ للضَّعيفِ : أَنْ يَتَّخِذَ مِن اتِّحادِ إخوانهِ الضُّعفاءِ حِصْناً يَصُدُّ بهِ هَجَمَاتِ الأَقْوياءِ ، ويأْمَنُ بهِ كيدَ الماكرين ، (ولكنْ أَنَّىٰ يَتَسنَّىٰ هذا للشَّرقِ وقد عَجَزَتْ شعوبُه أَن يتَّخِذَ كلٌّ منها لنفسه مِثْلَ هذا الحِصْنِ المنيع ؟ فَلْيَهْدَأْ رَوْعُ الغرْبِ مما يُسمِّيهِ « الاتِّحاد الشَّرقي » رِجالٌ من الفريقين مَكْراً أَوْ هَوَساً ، وكلٌّ يُغَنِّي علىٰ لَيْلاه) .

ـ أَفضلُ خدمةٍ يُؤديها للشَّرْقِ والغَرْبِ أَبناؤهما : رَفْعُ الحواجزِ بينهما ، ومَنْعُ التَّكالُبِ ، ثُمَّ جمعُ الأَخَوَيْنِ على الخِطَّةِ المُثْلىٰ ، (ولكن أَنَّىٰ للبشريةِ أَنْ تَسْعَدَ بمثْلِ هذا الطَّالعِ ومِنْ غرائِزِها تنازُعُ البَقاءِ ؟! فلَها من صَفْحة شُؤْمِهِ أَنْحَسُ نَجْم) .

ـ لو كنتُ مِمَّنْ يَتلذذون بالأَحلام ، ويَأْبهونَ بالخيال . . لرأَيْتُ أَمْثَلَ مَبدأٍ للشَّرقِ والغَرْب (الجامعةَ البشريَّةَ) ، ولَقُلْتُ مَعَ مَنْ قال :

أُمَّتِـــــي كُـــــلُّ الـــــورىٰ وَطَنِـــــي وَجْـــــهُ ثَـــــراهـــــا

ـ ولكنْ أَضْغاثُ الأَحلامِ لا تَقْبَلُ التَّأْويلَ ، وما أَصابَ قَطُّ فيها المُفسِّرونَ .

ـ إذا خَلَتِ الدَّعوةُ إلى (الجامعةِ البشريَّةِ) مِنَ الخداعِ . . فرُبَّما كسَرَتْ من سَورةِ أَحياناً ، وخَفَّفَتْ من عَناءٍ ، فلَيْسَ على القائمين بها في الشَّرْقِ والغَرْبِ مِنْ بَأْسٍ ، (أَصْلَحنا اللهُ والنَّاس ، وطهَّرَ القُلوبَ مِنَ الأَدْناس) .

الشَّرق

ـ الشَّرقُ مَطلعُ الشَّمْسِ ويَعيشُ في ظلام .

ـ (ولكن لابدَّ مِن تبلجِ ضوءِ الصُّبحِ مهما طالَ دُجى اللَّيل) .

ـ للشَّرقِ مُميِّزاتٌ كانَتْ سَبَبَ سَعادتهِ وشَقائهِ ؛ غَرَّهُ فَرْطُ ذكائه فخانَهُ

الكَذح ، وهذَّبَتْ حواشيهِ الأَديانُ فأَساءَ استعمالَ ذلكَ التَّهذيب .

كان عليه أَن يعبدَ اللهَ وحدَه ، فلمَّا اعتادَتْ نفسُه الخضوعَ للخالق . . أَصبحَ لا يُبالي أَن يُظْهِرَ مِثْلَهُ إِزاءَ مخلوقٍ مِثْلِه ، (لَبِئْسَ الجُمودُ هذا ، ولبئسما جرَّ إِليه هذا الجمودُ) .

ـ قل للَّذي ماتت منه عاطفة الشمم والإِباء ، فعصى اللهَ بالذلِّ لمن سواه ، قل له ونور الإِيمان يسطع في نبرات صوتك :

حَــرامٌ سُجــودُ المــرءِ إِلاَّ لِــرَبِّــهِ وقَــدٌّ حَنـاهُ الـذُّلُّ أَولَـىٰ بِـهِ القَـدُّ[1]

ـ لو مُنِيَ الشَّرقُ بمثلِ ما مُنِيَ بهِ الغرب مِنْ ظُلماتِ الباسْتيل ، وصُكوكِ الغُفران ، ومجازِرِ التَّفْتيش . . لَنجا مِنَ الجمودِ نجاةَ شقيقه ، ولَوَجَدَ أَلفَ (لُوثَر) من أَبنائه الأَحْرار ، يا حبَّذا التَّضييقُ يكونُ مِن ورائهِ الانْفِجارُ ، ومَرْحباً بالبُؤْسِ العاجلِ يُؤْذِن بالنَّعيمِ الآجِلِ .

ـ لقـد تـوالَـتْ علـى الشَّـرْقِ أَمـراضٌ شتَّـىٰ ، أَفْقَـدَتْ أَعصـابَـهُ الحِـسَّ والحركةَ .

ـ فلا عَجَبَ إِذا رأَيناهُ جامِداً تحتَ المِبْضَعِ يُقَطِّعُهُ أَوصالاً ، ولا يَشْعُرُ بِعَمليَّتهِ الكُبْرىٰ ، ولا يُحِسُّ بشديدِ الآلامِ .

ـ رُبَّما كانَ مِن أَشدِّ الأَدْواءِ الَّتي شَلَّتْ أَعصابَ الشَّرقِ : اتخاذُ الأَديانِ آلَةً لأَهواءِ السِّياسةِ فيهِ ، استبدَّ الأُمراءُ ، وقبعَ رجالُ العِلمِ ، وساءَتْ بجهلِ المرأةِ تربيةُ البيتِ ، فإِذا الشَّرقُ مَلْعَبُ أَهواءٍ ، وزاويةُ خُمُولٍ ، ومَعْدِنُ جَهالةٍ ، (وربَّما كان كلُّ ذلك مِن وَراءِ سِتارِ الدِّينِ ، واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الدِّينَ مِن كلِّهِ لَبراء) .

---

(١) من قصيدة للمؤلف ، عنوانها : (آمال وآلام) ، ينظر ديوانه « ذكرىٰ حبيب » (ص٥٦) .

ـ ما كانَ أَجْدَرَ الشَّرْقَ أَن لا يكونَ اختلافُ الأَديانِ فيه داعيةَ خلافٍ بينَ بَنيهِ ، (ولطالما نَسَجَ لهُ خُصَماؤهُ مِن ذاكَ الغَزْلِ شِباكاً) .

ـ الشَّرْقُ مَخدوعٌ بأَبنائهِ ، وأَبناؤُه بِخُصمائهِ ، (ولا دواءَ لهذا الدَّاءِ غَيْرُ توحيدِ التَّربيةِ ، ونشرِ العِلْمِ علىٰ خطَّة مُثْلىٰ) .

ـ داءُ الشَّرْقِ مِن زُعَمائهِ ، (فإِلَىٰ مَتَىٰ يَسْعدونَ بِشقاءِ الأَغِرَّةِ مِنْ أَبنائه ؟) .

ـ الشَّرقُ إِلىٰ ملك عادِلٍ أَحْوَجُ مِنْهُ إِلىٰ ديمقراطيةٍ جَوْفاءَ (حتَّىٰ ينالَ قِسْطَهُ مِنَ العِلْمِ) .

ـ داءُ الشَّرْقِ وَليدُ قُرونٍ ، (فلا يَرْجُوَنَّ شفاءَهُ بِسُنَيْهاتٍ ، وإِنَّما يَلْزَمُهُ الصَّبْرُ والثَّبات) .

ـ كانَ الشَّرْقُ راقداً ، فلما استيقظَ . . وَقَعَ في فَوْضَى الأَفكارِ ، (فما صنع شيئاً سِوىٰ أَن انتقلَ مِن قبرٍ إِلىٰ قَبْرٍ) .

ـ إِذا اختلفَ الرَّكْبُ في شأنِ الطَّريقِ . . تعطَّلَ السَّيرُ ، أَوْ جَمَحَ كُلٌّ بعِنان ، وكِلا الأَمْرَينِ نَذيرُ شُؤْمٍ ، ذلكَ مَثَلُ الشَّرْقِ اليومَ في مناهجِ الحياةِ ومَثَلُ موقفهِ العَصيب .

ـ لا بَأْسَ على الشَّرْقِ مِن خَبْطِ عَشْوائهِ إِذا أَصابَ نِبراساً يَهْتدي بضِيائه .

ـ لقد أَصبحَ في كلِّ شَعْبٍ شَرْقيٍّ ضجَّةُ خلافٍ بينَ فِئَةٍ مُتَجددةٍ وأُخرىٰ محافظةٍ ، وقَلَّ في كِلْتَيهما المُعْتَدِلون ، (ويا حبذا هِزَّةُ الانْتِباهِ إِذا اصطلحَ ربَّانُ السَّفينةِ ورُكَّابُها قبلَ أَنْ تَصْطَدِمَ بصَخْرةٍ صَمَّاء ، يَسْتحيلُ معها جَمعُ الشَّتاتِ) .

ـ إِذا أَرادَ الشَّرْقُ أَن يتمرَّدَ علىٰ عَنْعَنَاتِهِ ، ويتجرَّدَ من كلِّ تقاليدِهِ . . فَقَدْ رضيَ بالمَسْخِ ، فلا هُوَ نَفْسُه ، ولا هُوَ غَيْره ، (ولا معنىٰ لهذا غيرُ مَحْوِ الوُجودِ مِن خريطةِ الوُجود) .

ـ إِذا طغَى الماء . . فلابُدَّ مِنَ الزَّبدِ والغُثاء ، كذلك دَوْرُ الانقلابِ لا بدَّ فيه من الشُّذوذِ ، أَلاَ وإِنَّ الشَّرْقَ في دَوْرِ انقلابٍ عَظيمٍ ، (فلا يُغالِ المُغالُون) .

ـ في كلٍّ من القَديمِ والجديدِ حَسَنٌ وقبيحٌ ، ونافعٌ وضارٌّ .

ـ فلو اصْطلحَ عُشَّاقُ الجديدِ وأَنْصارُ القديم علىٰ قاعدة : (خُذْ ما صفا ودَعْ ما كَدَر) . . لعادَ الماءُ إِلىٰ صَيْهودِه وهو سَلْسَلٌ فُرات .

ـ (أَمَّا الخلافُ على القُشور دُونَ اللُّباب ورُكوبُ الهُراءِ في سبيلِ الأَزْياء . . فإِنا ندعُ الحُكْمَ في مثلِ ذلكَ لِذَوِي الأَلْباب)[1] .

---

(١) يقول المؤلف رحمه الله : سألني سائل في القاهرة : هل للأزياء دخل في الدين ؟ (وذلك علىٰ أثر ضجة في شأن القبعة بين غواة التجدد ، وغلاة التعصب) ، فقلت للسائل : وهل للأزياء دخل في المدنية ؟ هذا (محمد علي) ، وهذا تمثاله شاخصٌ أمام الأبصار ، انظر إلىٰ عمامته المكورة ، ولحيته الكثة ، وسرابيله العريضة ، وحزامه الأعرض ، فهل منعه زيّه هذا من أن يكون بطل الوادي ، ومؤسس الحكومة المصرية ؟ ثم هذا حفيده الملك (فؤاد الأول) ، هذا طربوشه الأحمر ، وهذه بزته الأوربية ، فهل منعه زيّه الجديد من أن تعيث بملكه يدُ الاستعمار ؟

ثم قال : هل للأزياء دخل في المدنيّة ؟

قلت : جرى العرف ـ السنين الطوال في بلاد الهلال ـ أنْ لا يلبس (القبعة) من كان مسلماً ، فكانت (القبعة) شعاراً سلبياً للمسلم ؛ بحيث لو مرت قافلةٌ بميّت علىٰ قارعة الطريق في رأسه قبعة . . لا يشكون في أنه غير مسلم ، فلا يصلون عليه ، ولا يجهزونه ، ويكون شعارُه سبباً لحرمانه من هاتيك الشعائر ، وبهذا تعرف أن مثل هذا الحرمان هو علة التحريم بحسب العرف ، وأنه هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : « من تشبه بقوم . . فهو منهم » ، وإنه يزول بزوال ذلك العرف .

فالقضية إذن قضية شعار وإسلام مما يتعلق بأعمال الجوارح ، لا قضية كفر وإيمان من أعمال القلوب ، (فالفرق ظاهر ، وليخفف من غلوائهما الفريقان) .

الغرب

ـ لقد بَرَعَ الغَرْبُ حتَّى استَخْدَمَ الطَّبيعةَ تحتَ إشارةِ العِلْم والفنِّ ، وجاءَ بالمعجزاتِ ، ولكن أَطْغَتْهُ النِّعمةُ ، ولَجَّ في الطُّغيان .

ـ من الشَّرقِ استعارَ الغَرْبُ مَدَنيَّتَهُ ، وحقُّ العاريةِ أَن تُسْتَرَدَّ ولو بَعْدَ حين ، (فليخفِّفِ الغَرْبُ مِن غُلُوائهِ) .

ـ لقد وَلَغَ الغَرْبُ في دماءٍ سَوفَ يَقيءُ أَضْعافَها حتىٰ يَغْرَقَ في بَحْرٍ مِن دمٍ ، (وكُلُّ آتٍ قريبٌ) .

ـ جديرٌ بالغَرْبِ أَنْ يكونَ مُرْشِداً لَوْ نَصَحَ في إرشادِهِ .

ـ في الغَرْبِ لَجاجةٌ وغُرورٌ يُخشَىٰ عليهِ مِنْ عُقْباها .

ـ يَوْمَ لا يجدُ الغَرْبُ ما يأكلهُ سيأكلُ بعضُه بَعْضاً ، (فَلْيَسْتَبِقِ على الشَّرْقِ ، أَو علىٰ نفسهِ إنْ شاء) .

ـ إذا فَخَرَتِ البشريةُ اليومَ . . فإنَّما تَفْخَرُ بالغَربِ ، (ويومَ تُصيبُ الإنسانيةُ كذلك قِسْطَها من ذلكَ الفخر) . . فيا هناءَ الإنسان يومَئذٍ ، وما أَجْدَرَهُ أَن يَفْخَرَ علىٰ كثيرٍ مِنَ الأَكْوان .

ـ شعائِرُ الحياةِ : الإيجادُ والتَّجديدُ ، وعلىٰ ناصيةِ كليهما قد قَبَضَ الغَرْبُ ، فكيفَ لا يكونُ مثالَ الحياة ووسامَ الفَخْرِ في صَدْرِ الكائنات ؟!

إنَّ الحيــاةَ ومــا هنــالِـكَ ثــالِـثٌ   لمُجَــدِّدٌ أَو مُــوجِــدٌ كَفِـلاهــا

ـ طُوبَىٰ للغَرْبِ ، نَقَّبَ على الآثارِ فجدَّدَ وشَيَّدَ ، وسَمَتْ منه الأَفكارُ فأَسَّسَ وَأَوْجَدَ ، وإنَّ سَيْرَهُ لحثيثٌ ، ثُمَّ إنَّهُ ما يَنْفَكُّ سائِراً لا يَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ .

= ثم قال رحمه الله في تعليق له طويل : ألا وإن الأديان أرفع مقاماً من أن تجعل الكفر والإيمان من أذناب الأزياء .

ـ يقول الغربيُّ : أَينَ نَحنُ مِنَ الرُّقِيِّ ؟ إِنّنا لَمْ نُصافحْ بعدُ سُكّانَ المرِّيخِ .

ـ فانظروا إِلىٰ هذا الطُّموح كيف لا يكونُ مِن نتائجهِ هاتيكَ المُعْجزات ؟ !

ـ أَمَّا الشَّرْقيُّ . . فإِذا عَبقَتْ كفُّهُ بمصافحةِ غَرْبيٍّ . . نَسيَ كونهُ شَرْقياً .

ـ فكيفَ لا يَهْبطُ بهِ هذا الصَّغارُ إِلىٰ ما صارَ إِليهِ مِن أَسْفَلِ الدَّرَكات ؟ !

ـ ومِنَ الكلماتِ الخالدةِ : الفِكْرَةُ تكوِّنُ الرَّجُلَ ، والمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نفسَه .

ـ لقد قطَعَ الغربُ في ميدانِ المادَّةِ أَشواطاً تركتْ مِن ورائهِ حَلبةَ العُصورِ الخاليةِ في غيرِ مِضمار ، فهل لَهُ أَنْ يجرِّبَ نفسَه فيما وراءَ المادةِ ويأْتي بما يُزيحُ السِّتارَ عن هيكلِ الإِيمانِ والسِّرِّ المصونِ ، فيُريحُ المجتمعَ الإِنسانيَّ مِن عناءٍ كبير ؟

ـ كانَ القرنُ الثَّامنَ عشرَ للغرْبِ قَرْنَ التَّمرُّدِ والجُحودِ ، (والسَّلْبُ لا يتطلبُ فطنةً وعِرفاناً) .

فهل للقرن العشرين بعد ما أَعقبَتْ تلك الشِّرَّةَ فَتْرةٌ أَن يُثبتَ حِذْقَه فيما يتعلَّقُ بالرُّوحانيات مِن طريقِ الإِيجاب ، فيخوضَ غِمارَ البَحْثِ حتىٰ يَلْمَسَ الحقيقةَ بيدِ البُرْهان ؟

العَرَب

ـ العَرَبُ أُعجوبةُ الحياةِ بكلِّ مظاهرِها .

ـ صَعِدُوا فكانوا فَوقَ ما يُسمَّىٰ أَوْجاً .

ـ ثُمَّ هبطوا فكانوا دونَ ما يُسمَّىٰ حَضِيضاً ، (وكلا الحالين بِغَمْضَةِ عَيْن) .

ـ لَوْ لَمْ أَكنْ عربياً . . لتَمَنَّيْتُ أَنْ أَكون ؛ (لِيَتَسَنَّىٰ لي الفَخْرُ بِسابقٍ كانَ خَيْرَ لاحقٍ ، وبِلاحقٍ سَيكونُ خَيْرَ سابقٍ) .

ـ بِقَدرِ ما يقَرِّبُ العربُ مِنَ الضَّحايا ، ويُوقِدون من البُخور ، يَسْتعيدون مِن

مَجدِهم الَّذي ضَحْوُهُ علىٰ مذابحِ الأهواءِ ، (ولكن لابد لهم من خَيْمَةِ اجتماع).

ـ أَرادَ العربُ أَنْ يكونوا كلُّهم رؤوساً فكانوا كلُّهم أَذْناباً ، (وعلىٰ هذه المخالب تَمَزَّقَ مِنهم الأَديم) .

ـ يقولون : (اتَّفقَ العربُ علىٰ أَنْ لا يتَّفِقُوا) .

ـ فهَل اتَّفقُوا كذلك علىٰ أَن لا يُفيقوا ؟! (فقَدْ طالَ عَهدُهم بالسُّبات) .

ـ إِذا سَمِعْتَ بأُمَّةٍ كُتِبَ عليها المَوْتُ بحياةِ زُعَمائِها . . فقُلْ : هِيَ الأُمَّةُ العَرَبيَّةُ ، (فحبَّذا الفِدْيَةُ ، ولا حبَّذا المُفدَّىٰ) .

ـ مُنْتَهى الجَهْلِ والغباوةِ أَنْ تَشْقَىٰ أُمَّةٌ لِيَسْعَدَ أَفرادٌ ، ذلكَ مَثَلُ الأُمَّةِ العربيةِ ومَثَلُ زُعمائِها ، يَسْعَدُ (عَمرو) بِشَقاءِ أَلْفِ عامرٍ ، وتَشْقَىٰ بِلادٌ لِيَسْعَدَ رَجُلٌ واحِد .

ـ تِلْكَ إِسرائيلُ ، أَصابَتْ رُشْدَها بَعْدَ التِّيهِ ، فَنَهَضَتْ مِنْ كَبْوَتِها ، ودخلتْ أَرضَ الميعادِ بعدَ حينٍ .

ـ والعرب ما زالوا تائِهين ، لا لَدَيْهِم يُوشَعُ يَهْدِيهم ، ولا هُمْ يَهْتَدون ، وإذا قَيَّضَ اللهُ لَهُمْ موسىٰ . . قالوا : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ .

ـ انبعث أَحدُ (الأَشْقَيَيْنِ) فعقَرَ (ناقةَ صالح) ، وتآمر ثانيهما فقتل (أَتْقاها) ، ووفَّىٰ بالعَهْدِ رَفيقاه ، فجابَ كُلٌّ مِنْهُما المفاوِزَ إِلىٰ قُطْرٍ شاسِعٍ يُريدُ قَتْلَ أَميرِهِ القابِضِ علَى الصَّوْلجانِ في بُحْبوحةِ سُلطانه ، وبَيْنَ جُنْدِهِ وأَعْوانِهِ ، فيقتل أَحدُهما (خارجةَ) ؛ إِذ لم يُرِدِ اللهُ (عَمْراً) ، ويُمنعُ (معاويةُ) مِنْ سَيْفِ الآخرِ ، ثُمَّ لَمْ يُبالِ كلٌّ مِنَ الثَّلاثةِ المتآمرينَ أَنْ يَجْهَرَ بما قدْ فَعَلَ وَأَرادَ بِقَلْبِ أَسدٍ ولسانِ جبَّار[1] .

---

(١) يشير إلىٰ تآمر الثلاثة من الخوارج ؛ إذ تعاهدوا في بيت الله الحرام علىٰ قتل الإمام علي في =

كذلك كان العربيُّ أبيَّ الضَّيْم ، غَليظَ الكَبِدِ ، ماضِيَ العَزيمةِ ، بعيدَ مَناطِ الهِمَّةِ ، لا يُبالي إذا غَضِبَ أَنْ يقتلَ الأُمراءَ والملوكَ وَهُوَ صُعْلوك .

ـ أَمَّا اليَوْمَ . . فَيَدٌ مَشْلولَةٌ ، وقَلْبٌ وَاجفٌ ، وَوَجْهٌ يُلْطَم ، وَقَفاً يُصْفَع ، يُقادُ بزِمامِ الذُّلِّ ، ويُساقُ بِسَوْطِ الهَوان ، ثُمَّ يُباعُ ويُشرىٰ علىٰ حساب السَّائقِ والقائدِ ، ولا نَصيبَ لَهُ مِن ثمنِ رقبتهِ غيرُ الحسراتِ ، أَعجزُ من أَرْمَلةٍ ، وأَضْيَعُ مِن يَتيم .

الاتحاد العربي

ـ لا حياةَ مِنْ غيرِ قُوَّةٍ ، ولا قوةَ مِن غيرِ اتِّحاد ، ثُمَّ لا حقَّ للضَّعيفِ في الحياة ، (لَنْ يبرحَ العربُ أمواتاً ما داموا ضُعَفاء ، ولن يَبْرحوا مُسْتَضْعفين ما داموا أَشْتاتاً مُتفرِّقين ، فهل يُرْجىٰ لهذا المَيْتِ مِنْ نُشور ؟ ومتَىٰ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ في القُبور ؟)

ـ لا بُدَّ للسِّياسةِ مِن ستار تَلْعَبُ مِن ورائهِ ، ومِن حَبْلٍ تَسْتَمْسِكُ بِعُراه .

ـ فإذا ما تَهَلْهَلَ ستارٌ . . عَمَدَتْ إلىٰ آخر ، وإذا ما رَثَّ حَبْلٌ . . اعتصمَتْ بجديد .

ـ والجوامِعُ ثلاثٌ : دِينيَّةٌ ، أَوْ وَطنيَّةٌ ، أَو جِنْسيَّةٌ .

ـ فحتَّىٰ متَىٰ يَضِلُّ العَرَبُ مناهجَ الحياةِ ويشذُّون مِن بينِ الأُمَمِ شُذوذاً ؟!

= الكوفة ، وعمرو بن العاصي في مصر ، ومعاوية في الشام في فجر يوم واحد ، هو السابع عشر من رمضان ، وسار كل إلىٰ غريمه ، فأما (عمرو) . . فلم يخرج لصلاة الفجر في ذلك اليوم ، وأناب عنه (خارجة) ليصلي بالناس ، فكان فداءَه تحت ستار الغلس ، ولما علم الخارجي بذلك . . جهر بقوله : (أردت عمراً وأراد الله خارجة) ، وأما (معاوية) . . فأصابته الضربة في غير مقتله ، وأما (علي) . . فقد تمكن منه غريمه (ابن ملجم) ، فخضب لحيته بدم رأسهِ وهو في طريقه إلى المسجد رضي الله عنه وكرم الله وجهه .

ـ لا تنجعُ معهم وَسيلةٌ ، ولا تَنْفَعُ مَعَهم حيلة .

ـ لقدْ أَفضَتِ النَّوْبةُ بالسِّياسةِ إلىٰ تمثيلِ دَوْرِ الجنسيَّاتِ ، ولقد كانَ العربُ أَحقَّ الأُمَمِ أَنْ يكونوا أَبطالَ الرِّوايةِ في تمثيلِ هذا الدَّوْرِ ؛ لِفَرْطِ عنايتهِم مِن بينِ الأُمَمِ بِحِفظِ الأَنْساب ، وامتلاءِ جوانحهم فيما ورثوه من تقاليدِ البداوةِ بعاطفةِ العصبيَّةِ ، فإذا ما فَشِلوا علىٰ مسرحِ السِّياسةِ في تمثيلِ دَوْرِها هذا . . فأَيَّ نجاحٍ بعدَ ذلكَ يَرْجُونَ ؟! وأَيَّ حياةٍ يُؤَمِّلون ؟! ثُمَّ أَيَّةُ جامعةٍ تَجمعُهم بعد هذا ؟! وبأَيَّةِ رايةٍ وارفةٍ يَسْتَظِلُّون ؟!

ـ ثَكِلَتِ العربيَّ أُمُّهُ ؛ يُعاني الموتَ وفي كَفَّيهِ أَسبابُ الحياة .

ـ بئسما يفعلُ العربيُّ ، يخْشَى الموتَ ويبحثُ عنه بِظِلْفِه .

ـ ساءَ حظُّ العربيِّ ، وساءَ هُوَهْ ، حملَ لواءَ الاتِّحادِ بَدَوِيّاً ، ونَكَصَ عنهُ مَدَنياً ، (فاضحَكْ يا دَهْرُ ، أَوْ فَابْكِ يا أَبا العَجائب ، وأَنْتَ أَيُّها التَّاريخُ أَلْقِ مِن دروسِ عِبَرِكَ ما تَشاء) .

ـ لولا أَنْ تكونَ الطَّعْنةُ نجلاءَ . . لَقُلْتُ : إِنَّ العربَ أُمَّةٌ مَمْسوخَةٌ ، (ولكن ماذا يُفيدُ العربي كَفّي عَنْ وجهِهِ ومِن ورائهِ التَّاريخُ يَطْعَنُهُ بينَ كَتِفَيْهِ بما سجَّلَ بَيْنَ دَفَّتيْهِ مِنْ عارٍ في الحاضرِ ، وفَخارٍ في الغابرِ) .

ـ يُريدُ العربُ أَنْ يأْكلَ بعضُهم بَعْضاً ، فإذا القاتِلُ والمقتولُ فَريسةُ أَسدٍ ، أَو طُعْمَةُ جبَّار .

ـ لن يبرحَ العربُ ضحايا الأَهواءِ حتَّىٰ يُحِسُّوا بوَحدةِ الدَّمِ الجاري في العروق ، ويكشفوا مِن الاستِئْثارِ بـ(الضَّاد) سِرّاً مَصُوناً ، فلا عراقيَّ يومئذٍ ولا سوريَّ ، ولا حجازيَّ ولا يمنيَّ ، وإنَّما هُنالك (عَيْنٌ ، وراءٌ ، وباء) ، بل ربَّما ذابَ في بَوْتقةِ (الضَّاد) مَن لم يَرْضَعْ مَعَ اللَّبَنِ سِواه .

ـ ظلَّتْ أَصنامٌ تَخْشىٰ مِنَ الاتِّحادِ العربيِّ أَنْ تتحطَّمَ تحتَ لوائهِ الخفَّاقِ ، وهيكلِ عزَّتهِ القَعْساء .

ـ إنَّ الاتِّحادَ العربيَّ لا يُحَطِّمُ هاتيكَ الأَصنامَ الجَوْفاء ، إنَّما ينفخُ فيهم رُوحاً ، فإذا هُم في عِدادِ البَشَرِ ، وإذَا هُم أَحرار ، وإذا هُمْ منَ الأَحياء .

ـ ما أَشْبَهَ العَرَبَ بمائدةٍ لم يُصِبْ منها أَهلوها غيْرَ الفُتات ، (فلا حبذا القناعةُ ، ولَبِئْسَ الآكِلُ والمأْكولُ) .

ـ لَئِنْ خَافَ الزُّعماءُ مِنَ الوَحْدَةِ العَربيَّةِ علىٰ ما أَصابوا مِن فُتات . . فما عسىٰ أن يخافوا منَ الاتِّحادِ العربي إذا جمعَ الشَّمْلَ ولمَّ الشَّتات ؟ (لبئس زعماءُ الأُمَّةِ ظالموها ، ولاحبذا الطَّمعُ إذا استحالَ حِرْصاً) .

ـ لا يخافَنَّ زعيمٌ علىٰ فُتاتهِ ، فإنَّ ما تَسْتَدْعيه الوحدةُ العربيةُ مِن النُّضوجِ لا يَبْلُغُ نِصابَهُ بأَقلَّ مِن حُقْب ، (ويَوْمَئِذٍ فليَخَفْ لَعَناتِ الأَخلافِ تَنْهالُ علىٰ رُفاتِهِ) .

ـ مَن عَرَفَ النَّفْسَ العربيةَ ثُمَّ يَطْمَعُ في الوَحْدَةِ العربيَّةِ . . فإنَّهُ غِرٌّ ، أَمَّا الاتِّحادُ العربيُّ . . فالضَّالَّةُ الَّتي يَجدُها حينَ يَنْشُدُها بِمصباحِ العِلْمِ بَعْدَ زَمَنٍ غيرِ يسير ، وكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطوها مُنذُ الآنَ في تلكَ السَّبيلِ تُقرِّبُهُ مِن مُناه وإنِ استَدْعَتْ خَلْقَ العَقَبَاتِ وإيجادَ العَراقيل[1] .

السِّياسة ـ والسِّياسيُّون

ـ إذا ذُكِرَتِ السِّياسةُ . . فاستعذْ باللهِ ، (فربما حَضَرَتْ علىٰ ذِكْرِها أَرواحُ العَفاريتِ) .

ـ السِّياسي إثباتُه نَفْيٌ ، ونفيُهُ إثباتٌ ، (فافهمْ لغتَهُ إنِ استَطَعْتَ) .

---

(١) لقد وضع المؤلف رحمه الله منذ سنة (١٩٢٧م) نشيداً للاتحاد العربي والوحدة العربية ، إجابة لاقتراح لفيف من الشبيبة العربية ، ومطلعه :

لـو رقـىٰ قـوم إلـى السبـع الطبـاق ... رقـت العـرب علـى الجـرد العتـاق

ينظر ديوانه « ذكرىٰ حبيب » (ص١٠٧) .

ـ السِّياسيُّ لا تُعْييه الحِيلَةُ ما دامَ القاموسُ بيدِهِ يَضَعُ مِنَ الألفاظِ ما يشاء ، وإمَّا أُرْتِجَ عليهِ . . فإن كلمة (سُوءِ التَّفاهُم) يَجِدُها في الصَّفحةِ الأُولىٰ بالقَلَمِ العريضِ .

ـ رُبَّما سَجَّلَ شقاءً ، وأَسالَ دِماءً ، ثم ختمَ الرِّواية بكلمةٍ واحدةٍ هي : (سُوءُ التَّفاهُم) ، (فيا وَيْحَ الأَغْبياءِ مِنَ الأذْكياء) .

ـ لَيْتَ شِعْرِي إذا كانَ أَبطالُ التَّجارِبِ وأَبالِسَةُ الفراسَةِ يَضِلُّونَ سبيلَ التَّفاهُمِ بَعْدَ بَحْثٍ رُبَّما استغرقَ الزَّمَنَ الطَّويلَ ، فماذا عسىٰ أَنْ تكونَ حالُ الأَغْبياء ؟ ورحمَ اللهُ القائل :

لَيْسَ الغَبِيُّ بِسَيِّدٍ في قومِهِ   لكنَّ سَيِّدَ قومِهِ المُتَغابي

ـ كُلُّ كلمةٍ حَواها مُعجمُ السِّياسةِ هيَ كنايةٌ عَنِ (المصلحةِ) ، ولكنْ مِن دونِ قرينةٍ ما أَمْكَنَ .

ـ (المصلحةُ) عندَ السِّياسيِّ قبلَ كلِّ شيءٍ ، وبَعْدَ كُلِّ شيءٍ ، ومِنْ دونِها لا شيءَ .

ـ كُلُّ لفظٍ تَجِدُهُ في قاموسِ السِّياسةِ إلا الرَّحمةَ والإنصافَ ، وأَهمُّ هاتيكَ الفُصولِ قَلْبُ الحقائقِ ، واستعمالُ مجازاتٍ لا حقائقَ لها .

ـ علىٰ ظَهْرِ الجماعاتِ يَعْبُرُ السِّياسيُّ بَحْرَ الحياةِ ، (فَتَثَبَّتْ يا جِسْرُ مِن وَقْعِ الأَقدامِ) .

ـ إذا غَمَزْتَ صاحبَكَ بكلمةٍ . . عَدَّكَ السِّياسيُّ مُجْرِماً حَسْبَ القانون ، أَمَّا حَضْرَتُهُ . . فَبِكَلمةٍ واحدةٍ يَقْتُلُ أُمَّةً بأَسْرِها ، ثُمَّ يقولُ : (مَجِّدوني علىٰ ما قُلْتُ ، وقَدِّسُوني عَلىٰ ما فَعَلْتُ) ، فَنَقْبَلُ منهُ ذلكَ ، ثم نُصافِحُ منه كَفَّ بَرِيءٍ (وكَفُّهُ تَقْطُرُ دَماً) ، وربَّما كان هذا أَيْضاً حَسْبَ القانونِ .

وهذا ما جعلَ السِّياسيَّ يحتقِرُ مَنْ عَداه ، فينظر إلىٰ كثيرٍ من الرِّجالِ نَظْرَهُ

إلىٰ صِغارِ الأَطْفال ، (ومهما كانَتِ الحالُ . . فلا بدَّ لأَسْلاكِ كهرباءِ الحياةِ مِنْ هذهِ الأَزْرار) .

ـ إنَّ الشَّعبَ المغلوبَ علىٰ أَمْرِهِ مُدافِعٌ ، وأَبناؤه مُجاهِدون لا سياسيُّون ، وهذا الجِهادُ فَرْضُ عَيْنٍ علىٰ كُلٍّ مِنْهُم حَسْبَ وُجْدِه ، وطاقَتِهِ في علمهِ أَو مالِهِ أَو بَدَنِهِ .

فَمَنْ صَرَفَ شَعْباً مَحْكوماً عَنْ مِثْلِ وِجْهَتِهِ هذهِ . . فَقَدْ أَرادَ المَكْرَ بهِ ، (أَلاَ فَلْتَنْتَبِهِ الشُّعوبُ المظلومةُ لِغَيِّ مُخادعيها) .

الوظيفة ـ والموظفون

ـ الوظيفةُ أَمانةٌ ، وتوليةُ العاجزِ ضربٌ مِنَ الخيانةِ .

ـ حقُّ العبادِ أَنْ لا يُعْبَدَ أَصنامٌ على الكراسيِّ تُسمَّىٰ بـ(المُوظَّفين) .

ـ حقٌّ على الأُمَّةِ أَنْ تَحْتَرِمَ مَنْ يَخدُمها مِن أَهْلِ الوظائفِ بإِخْلاصٍ .

ـ رُبَّ كُرْسِيٍّ لَوْ نَطَقَ . . لَشَكا إلى اللهِ مِمَّن فوقَه .

ـ لولا عُشاقُ الكراسيِّ . . لما رَسَخَتْ قَدَمُ الاستعمارِ في كثيرٍ من الأَقطارِ .

ـ (فَهَلِ انتبهَ العربُ لهذا الدَّاءِ فالتمسوا له الدَّواء ؟) .

ـ ربَّما تفتخرُ القُرونُ الحديثةُ بتَسْميةِ الموظَّفِ أَجيراً ، تنويهاً بشأْنِ سيادةِ الأُمَّةِ .

ـ ربَّما يُخَيَّلُ إلى الغَرْبِيِّ أَنَّ هذا مِنْ أَبكار قَريحتهِ الحُرَّةِ حتَّىٰ أَفاضَ على الشَّرْقيِّ يقظةً وانتِباهاً ، (فذكِّرْ هذا المغرورَ بقولِ شيخِ المعرَّةِ منذُ بضعةِ قرون :

ظلَموا الرَّعيَّة واستجازوا كيدها   وعَدَوْا مصالِحَها وَهُمْ أُجَرَاؤها)

إذا قلَّت المعارف . . كثر عُشاق الوظائف ، (وكلا الأمرين من طبائع الاستبداد) .

ـ في الأُمم الاتكالية يكثر عشاق الوظائف ، (وأَنجع دواء لهذا الدَّاء الإِكثارُ من مدارس الزِّراعة والصِّناعة ، والعناية بشأن المهن الحرة) .

ـ لعلَّ من وجائب المعلمين في الأُمم الجاهلة تلقينَ التِّلميذ ما للمساعي الحُرَّة من حسن العقبىٰ ، وطمأْنينة النَّفس ، وراحة الضَّمير ، (وإِن لفظة مأْمور مثل مأْسور وزناً وقافية ومعنىً) .

الصَّحافة والصَّحافيون

ـ سل عَنْ أُمَّةٍ صحافتُها : اجتلِ تلك الصُّورة في هذه المرآة .

ـ الصَّحافَةُ في الأُمَمِ مِن أَكبرِ عواملِ الفَوْزِ أَوِ الفَشَلِ ، والسَّعادةِ أَوِ الشَّقاء ، (فليتَّقِ الله الصَّحافِيُّون) .

ـ الصَّحافةُ تَرجمانٌ بليغٌ بين الحكومةِ والشَّعْب ، (وحبَّذا التَّرْجُمانُ هِيَهْ إِذا كان أَميناً) .

ـ الصَّحافيُّ يَطْرُقُ كُلَّ باب ، ويَهيمُ في كلِّ وادٍ ، فلْيذكر الحقَّ حِينَ يَهِيمُ ، وليتحرَّ الحقيقةَ حينَ يطرقُ الأَبواب ، (وإِلاَّ . . كان الإِرشادُ ضَلالاً) .

ـ الصَّحافةُ عكاظٌ لا يَسْتَغْنِي عنهُ شُيوخُ السِّياسةِ ، (وحَسْبُكَ عدُّها القوةَ الرَّابعةَ للحكومات) .

ـ مُنذُ وُجِدَتِ السِّياسةُ وُجِدَتِ الصَّحافة ، كانت قصائدَ فصارتْ جرائد ، وكانَتْ خطابةً فصارَتْ كتابةً .

ـ ما بَرْهَنَتْ أُمَّةٌ علىٰ حَصافَتِها بِمِثْلِ صَحافَتِها ، (فلتُصافِحْها باليمين ، ولا تَضُنَّ على البُرهانِ بمقدِّماتِ اليَقين) .

ـ يقال : (رُبَّ حَرْبٍ جُنيتْ مِن لَفْظَةٍ) ، فما ظنُّك بما يَعْدُو مراتبَ العدِّ مِن الأَلفاظ ترنُّ في الآذانِ عندَ كلِّ صباحٍ ومساء ؟

ـ الصَّحافةُ صوتُ بشيرٍ ونذير ، فربَّما حملَتْ على النُّور فعادَ ضراماً ، وربَّما خاضَتِ النّارَ فكانت بَرْداً وسلاماً .

ـ قَدْ يفعلُ الصَّحافيُّ بقلمه ما لا يَفْعَلُهُ الطَّيَّارُ بقذائفِهِ ، والمِدْفَعُ بقنابِلِهِ ، (فَلْيُعْرَفْ للصَّحافيِّ مِقْدارُه) .

ـ مظلومٌ الصَّحافيُّ في الشَّرقِ ، وربَّما كان ظالماً ، (ولو أَنَّ القوسَ لا يُعْطَىٰ غيرَ باريها . . لآض فيهم الظُّلْم عَدْلاً ، فلا ظالم ولا مظلوم) .

ـ السُّؤدد في السَّواد ، وزمام الدَّهماء العواطف ، وبيد الصَّحافي هذا الزِّمام ، (فَلْيَتَدَبَّرْ أَيَّ زند يقدح ، وأَيَّ عاطفةٍ يثير ، ثم إِلىٰ أَيِّ وادٍ يقود ؟) .

ـ كُلُّ مُتَكَلِّمٍ يختص مخاطَباً بعينه ، أَما الصَّحافيُّ . . فيودُّ أَن يبلغ صوتهُ كلَّ ذي سمع ، (فليعرفْ مَوقِفَهُ ثُمَّ يتكلَّم) .

ـ قَلَمُ الصَّحافيِّ : لسانُ المَلِكِ في قَصْرِهِ ، والصُّعلوكُ في كوخِهِ ، والسِّياسيُّ في دَسْتِهِ ، والتِّلميذُ في مدرستهِ ، والعالِمُ في تحقيقهِ ، والأَديبُ في تدقيقهِ ، والواعِظ في حلقَتِهِ ، والخَطيبُ علىٰ مِنبرِهِ ، والمرأَةُ في وَكْرِها ، والأَطفالُ في حجور أُمَّهاتِهم ، ثُمَّ لسانُ التَّاجرِ في حانوتِهِ ، والصَّانعُ في مهنتِهِ ، والفلاَّحُ في حَقْلِهِ ، والعامِلُ في كَدِّهِ ، والبَطَّالُ في شِقْوتِهِ ، والمريضُ في آلامهِ ، والمسكينُ في ذِلَّتِهِ ، والبائِسُ في مِحْنَتِهِ ، والمَظْلُومُ في ظُلامتِهِ ، والمغرورُ في فِتْنَتِهِ .

ـ فإِذا استطاعَ أَنْ يتقمَّصَ كُلَّ هذهِ الأَرواحِ بإِيمانٍ راسخ وقَلْبٍ من فُولاذٍ . . أَفاضَ نورَ الحياةِ ، وكانَ وَحْيه السِّحرَ الحلالَ ، (وإِذا أَمَدَّتْهُ الأُمَّةُ بإِكْسيرِ أَنْظارِها . . استطَاعَ أَنْ يكونَ كما تُريد) .

ـ زَكِّ الحَقْلَ ، وأَعْطِ الصَّحافَةَ مِحْراثَ حُرِّيتِها تَظْفَرْ بِرَوْضٍ نَضير ، وتَجْنِ ثَمَراً يانِعاً .

الجمود

- يَفْتَرِقُ الجمادُ عَنْ أَخَوَيْهِ النَّباتِ والحيوانِ بكونه غير نامٍ ، فمن وَقَفَ مِنْ مَعارجِ الحياةِ عندَ حَدٍّ . . فقد رَضِيَ أَنْ يكونَ جماداً ، (ومن السَّفَهِ أَنْ يَهْبطَ الأَفْضَلُ إلىٰ دَرَكَةِ المَفْضول) .

- الزَّمانُ : قافلةٌ لا تَقِفُ عَنْ سَيْرِها الحثيثِ غَمْشَةَ عَيْنٍ ، (وأَحرَىٰ بالمنبَتِّ أَنْ يَضِلَّ الطَّريقَ ، وأُولئكَ هُم الجامِدون) .

- إذا خانَت المَلَكَةُ رَبَّها ، فَقَصَّرَ في الاسْتنباط ، وقَصَرَ ذهنَه علىٰ ما استَقَرَّ فيه ، وحواسَّهُ علىٰ ما وَقَعَتْ عليهِ . . فذلك ما يَدْعُونَه بـ(الجُمود) ، ويَدْعُونَ صاحِبَهُ جامِداً .

- لقد أَصابَنا مِنَ الجُمود ما خاسَتْ معه كُلُّ نواةٍ لنا في حُقولِ الحياة ، فإذا نحن في قَفْرةٍ تَيْهاء ، لا عُشْب فيها ولا ماء .

جمودنا في الكائنات

جهدنا في الكائنات فأَخطأْنا من الأَرض كنوزَها .

- نَشْكو الفَقْر وتَحْتَ أَقدامِنا الذَّهَبُ الوَهَّاجُ .

- ثمَّ نَشكُو الذُّلَّ مشفوعاً بِصُنوفِ المضارِّ وبينَ أَيدينا الحديد ، فاتتنا منافعه وما أَصَبْنا بَأْسَه الشَّديد ، (وحَسْبُنا الذَّهَبُ الأَسْودُ - النِّفْطُ - لولا الطَّالِعُ الأَسْوَدُ ، وَأَحقُّ مَنْ يَعي هذه الكلمةَ أَبناءُ العِراق) .

جمدنا في مُبْدعِ الكائنات :

- فجعلنا بيننا وبينَهُ حاجِزاً وهوَ أَقْرَبُ إلينا مِن حَبْلِ الوريد .

- والْتَمَسْنا شُفَعاءَ عِنْدَهُ مِن دونِ إِذْنِهِ ولا ممَّنِ ارْتَضَىٰ مِن رَسولٍ .

ـ ثُمَّ عَمَدْنا إلىٰ كتابهِ فهَجَرْناهُ ، فإذا تَناوَلْنَاهُ . . تَأَوَّلْناهُ ، وإذا تَلَوْناهُ . . تَجاهَلْنَاهُ ، حتَّىٰ كَأَنَّهُ في غيرنا نَزَلَ ، وحتَّىٰ عادَ كأَنَّهُ أنباءٌ لا مستقرَّ لها ، أَوْ أَلغازٌ لا تَقْبَلُ الحَلَّ ، وهو الَّذي يَسَّرَهُ اللهُ للذِّكْرِ بِلسانٍ عَرَبِيٍّ مبينٍ ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟

ثُمَّ لَمْ يكفِنا كلُّ ذلك حتَّىٰ هَمَّنا التَّأْويلُ حَيْثُ لا حاجةَ لنا به ، وأَهْملناهُ حَيْثُ لا مَنْدوحَةَ عَنْهُ .

إنَّ كُلَّ ما وَرَدَ في كتابِ اللهِ عَنِ النَّشأَةَ الأُخرىٰ يَجبُ أَنْ تكونَ دلالةُ مَبانيهِ علىٰ معانيهِ غَيْرَ وَضْعِيَّةٍ ، وإنَّما هي علىٰ وَجْهِ التَّقْرِيبِ ، وَقَدْ أَشارَ القرآنُ إلىٰ هَذا في غيرِ مَوْضعٍ .

وهذه الحقيقةُ يَجِبُ أَنْ يَنْتَبِهَ لها كلُّ جاحدٍ وكلُّ جامِدٍ ، فإنَّها تنقذُهما من مشاكلَ مختلفةٍ ، وغوائلَ شتَّىٰ ، (فَلْيَتَّقِ اللهَ الجاحِدون والجامِدون) .

جَمَدْنا في الأَخلاق وفي نَتائج الأَخلاق :

طَبَعَتْنا عُصورُ التَّقَهْقُرِ والجَهالَةِ بطابَعٍ لا صَاغَتْهُ يَدُ (الدِّين) ، ولا نَقَشَتْهُ أَنامِلُ (العِلْم) ، فأَخْطأْنا الفَضيلةَ مِن طَرِيقَيْها ، ثُمَّ أَوْغَلْنا في تَيْهاءَ مُضِلَّةٍ انتهَتْ بِنا إلىٰ ضَياعِ مَجْدٍ عَظيم ، ومُعاناةِ شَقاءٍ أَليم ، وقد اسْتَولَىٰ علينا مِنَ الجُمودِ ما حالَ بيننا وبينَ استِبدالِ ذلك الطَّابَع المشؤوم ، ثُمَّ أَفْقَدَنا مِنَ الحِسِّ ما نَشْعُرُ بهِ بأَنَّ الشَّقاءَ الَّذي نُعانيه هو نَتيجةُ المَجْدِ الَّذي أَضَعْناه ، وإنَّ كِلَيْهِما نتيجةُ الطَّابَعِ الَّذي ارتَضيْناهُ ، ثُمَّ ما زِلنا نَتَسَكَّعُ في دَياجيرِ جُمودِنا حتَّى اسْتَيقَظَتِ الشَّاةُ وهِي تَحْتَ أَقْدامِ القَصَّابِ ، لا تَنالُها رَحْمَتُه ، ولا يُنْجيها الثُّغاءُ والاضْطِراب .

جَمَدْنا في الأَديان وفي أَهْلِ الأَديان :

فَمَشَيْنا وَراءَ العاطفةِ دونَ البُرهان ، وسَبَحْنا في تَيَّارِ الأَهواءِ ، وأَخطأْنا الغايةَ من هَديِ اللهِ وهَدِيَّةِ السَّماء ، فأَبْرَمْنا مِن غَزْلِ السَّعادةِ حبائلَ شَقاءٍ .

ـ نضيّق واسعاً ، ونوسّعُ ضيّقاً .

ـ نعرف الحقَّ بالرِّجال ، ولا نعرف الرِّجال بالحقِّ .

ـ نوالي الظَّالمين ، ونتولّىٰ عن أَهل الذِّكر المتقين .

ـ ثم ما أَسْرَعنا إِلى التَّكفير ، وأَبْطأَنا عَنِ التَّفكير (تَنطُّعاً أَوْ غُلُوّاً) ، كأَنَّ اللهَ أَنْزَلَ الأَديانَ لأَجْلِهِ لا لأَجْلِنا ، (واللهُ غَنيٌّ عَنِ العالمين) .

ـ ولو أَنَّ كُلَّ ذِي دِينٍ استَضاءَ بنورِ السَّماءِ مِن غيرِ أَهْواء ، ثم انتبذَ الجُمودَ ظِهْرِيّاً ، فأَلَّفَ بَيْنَ المَعْقولِ والمَنْقول ، وَلَجأَ إِلى الحِكْمَةِ ، وحَطَّمَ أَوْثانَ الأَهواءِ بِمِعْولِ العَقْلِ السليم ، ثُمَّ أَعْطىٰ صَفْحَتَهُ الملكية قِسْطَها من مكارِمِ الأَخلاقِ غُرَّةِ جبينِ الأَديان . . لَفَازَ بِلَذَّةِ العَيْشِ في ظلالِ ما طابَ مِن مُعْجزاتِ المدنيةِ الحديثة ، ونجا مِن مخالبِ ما خَبُثَ مِن مُزْعِجاتِها نَجاةَ السَّليمةِ مِنَ الجرباء .

جَمَدْنا في الحكوماتِ وفي الشُّعوب :

فما بَرِحَ أَنْقاضُ الاستِبْدادِ من الفريقين في ضَلالهما القديم .

وما بَرِحَتِ الوثنيَّةُ بينهما سائِدة .

فمستكبرٌ يَعْطِسُ بأَنفِ وَثَنٍ شامخٍ ، ومستضعَفٌ يشمِّتُهُ بلسانِ وثنيٍّ خائر ، (يتربَّصُ بهِ الدَّوائر) ، (ثُمَّ لا يَلْبَثُ أَنْ يعودَ المُشَمَّتُ شامِتاً ، بل وشاتِماً) .

(يا وَيْحَ الفَريقينِ مِن هذا التَّناكُرِ في زَمَنٍ يُنذرُهما بالموتِ ، ولا يُنْجيهما مِن مخالبهِ غَيْرُ التَّآزُر) .

ـ لَقَدْ سَلَكْنا كلَّ سبيلٍ إِلى الغايةِ فما بَلَغْناها ، وَلَنْ نبلغَها حتَّىٰ نجدِّدَ دعوةَ النبيِّ العربيِّ ، فنخلصَ العبادةَ للهِ ، لا يَتَّخِذُ بعضُنا بعضاً أَرباباً من دونهِ ، ولا نَتَّخِذَ منَ الهوَىٰ إِلهاً مَعْبوداً .

ـ لَنْ نبلغَ الغايةَ إِلا مِنْ طريقِ مَعْرِفَةِ الواجبِ والقيامِ بهِ ، ولَنْ نَهْتَدِي إِلىٰ

هذه الطَّريقِ إلا بنبراسِ دُسْتورٍ واحدٍ ، نَعَضُّ عليه بالنَّواجذ ، ثُمَّ نَمْشي علىٰ ضَوْئه في مجاهلِ الحياة ، وذلك الدُّستور : أَنَّ كُلَّ مَن قصَّرَ بواجبهِ غيرُ جديرٍ بالاحْترام ، (فإذا احترمناهُ . . كان وَثَناً ، وكانَ مُحْتَرِمُهُ وَثنِيّاً) ، (وجديرٌ بالوَثنِ أَنْ يُحَطَّم ، وبالوثنيِّ أَنْ يُسْتتابَ ، ثُمَّ دَواءُ المعانِدِ السَّيْفُ) .

فـإلـى التَّـوبـةِ يـا قَـوْمِـي عَسَـىٰ   يَقْبَـــلُ اللهُ غَـــداً تَـــوْبَـتَـنَـــا
حَطِّمُــونـــي إنْ تَــرونِـــي وَثَنــاً   وَاقْتُلُــونــي إنْ عَبَـدْتُ الـوَثَنـا[1]

ـ واجبُ الحكوماتِ العَدْلُ ، وواجِبُ الشُّعوبِ الطَّاعةُ ، ولا نجاحَ لهما إلاَّ بتآزُرِهما وأَداءِ واجبِهما ، وهذا ما أَدْعو إليه وأَتمَنَّاهُ لِقَوْمِي العربِ خاصةً ، ولإِخواني المسلمينَ عامةً ، ثم لبني نوعي البَشرِ كافَّةً بِوَجْهٍ أَعَمَّ .

واللهُ وليُّ التَّوفيق ، بِيدهِ مَقاليدُ الأُمور ، وهو أَحكم الحاكمين .

أَنا والطَّيرُ

اللَّيل سكن لأُناسٍ ، شجن لآخرين .

إِنَّه مثارُ غُبارِ الهُموم ، ومُعْتَرَكُ أَبكارِ الأَفْكار .

وحسبُ الأَديب ما بين (اللَّيل ـ والويل) مما يُسميه جناساً .

وكم شكا منه وإِليه يسامِرُ نجومَه ، ويَسْتَمْطِرُ غُيومَهُ ؛ لِيُصيبَ سَلْواه ، أَو يكشف غمومه .

وإِلى الله المشتكىٰ إِذا خيَّم اللَّيلُ علىٰ مثله ، فمثَّل ظلماً وظلاماً .

وقد أَرِقْتُ ذات ليلةٍ من ربيع سنة ١٣٤٢هـ [١٩٢٤م] ، وأَقضَّ مَضْجَعِي

---

(١) من قصيدة للمؤلف ، عنوانها : (العرب وعبادة الأوثان) ، ومطلعها :

فتـــن الضـــاد بمـــن قـــد فتنـــا   فعســـى الله يقيـــه الفتنـــا

ينظر ديوانه « ذكرىٰ حبيب » (ص١٨٠) .
=

ما يُسْتَعْذَبُ لديها الموتُ ، وتَجْمُد لهَا الدِّماءُ في العروق ، ماضٍ لا يدرك ، وآتٍ لا يُرجىٰ ، وبرزخ بَيْنهما شَبَحُ ظُلْم ، وطَوْدُ ظلام ، وخيبةُ آمالٍ ، وضيعة أعمال ، وما حالُ قَلْبٍ تَغَشَّتْهُ غمراتُ الأَسىٰ والأَسف ، تَمُدُّه بهما حدود وجوده الثَّلاثة في خضمِّ الحياة ؟

فيا نَسَمَاتِ الرَّبيع إنكُنَّ مخالبُ ، ويا عَرْفَ أَزهارِهِ الشَذيِّ ؛ عَطِّرْ غَيْرَ هذه الخياشيم ، وما أَنتِ أَيَّتُها الخيامُ إلاَّ أَقْفَاصُ عَنادِلَ ، أَو محابِسُ غُول .

خلالَ ذاكَ الطُّوفانِ ، ومن بين ثنايا سنة وأُخرىٰ يُلمُّ بنا طَيْفُ الخيال ، أَخَذَ يَمْتَزِجُ بِحَفِيفِ الشَّجَرِ وخَريرِ الماءِ هديرُ الحَمَامِ ، وَزَقْزَقَةُ العُصْفورِ ، يُوَقِّعانِ بِريشةِ نُطْقٍ أَعْجَمِيٍّ عَلَىٰ وَتَرِ صَمْتٍ عَمِيق .

هناك شُفِعَتْ رِيشَةُ المِنقار بريشةِ اليَراع ، فإذا الهَديرُ قد عاد صريراً ، وإذا بصدر الفضاء الرحب ـ حيث تصعد الأَصوات ، وتتجاوب الأَصداء ـ يضمُّ إلىٰ ما حلا ومرَّ من مختلف التَّواقيع وشتى الأَلحان أُنشودة : (أَنا والطَّير) .

أَنـــا والطَّيْـــرُ كـــلانـــا شـــاعِـــرٌ　　أَنـــا والطَّيـــرُ كِـــلانـــا مُغْـــرمُ

ومنها :

يـــا رَعَـــى اللهُ حمـــامـــاتِ الحِمـــىٰ　　هَـــلْ يُحلِّقْـــنَ بِجَـــوٍّ شَيِّـــقِ
ضـــلَّ مَـــنْ يعبـــدُ يَـــوْمـــاً صَنَمـــاً　　ويُقَضِّـــي لَيْلَـــهُ فـــي أَرَقِ

خطرات أَم قطرات أَو دموع الأَحرار

ـ رُبَّ خطرات تؤذن بقطرات ، فإذا ضن جفن الحر بمائه . . آض شعوره شعراً ، واستحال الدَّمع قوافي محكمات .

ودمـــع الحُـــرِّ مـــن دُرِّ القـــوافـــي　　ودمـــع ســـواه مـــن مـــاءِ العيـــون[1]

(١) من قصيدة للمؤلف بعنوان : (أمتي أمتي) ، نشر بعضها في جريدة (المؤيد) المصرية =

كذلك كنت ذات عشية ، قد ضاق بي الفضاء ، واكفهرَّ أَمامي الأُفق ، ولم تزدهما - في نظري - أَزهار الرَّبيع ونسائمه إلاَّ رداءة وتقطيباً ، ففزعت من مضارب خيامي إلىٰ سَفْحٍ تفيَّأْتُ ظلاله ، وتبوَّأْتُ من بساطه السندسي مضجع وحدة ، وقصرت أَشعة بصري على الماء والخضراء .

فأَما (دجلة) . . فكان يذكرني (سَيْلَ العَرِمِ) ، وما كان خريره في أُذنيَّ إلا أَنيناً ، وأَما الخمائل المطرَّزة من صنوف الأَزهار بالعسجد واللُّجين ، والمرصَّعة منها باللآلي واليواقيت . . فكانت تذكرني (البلابلَ) إذا حُبِسَتْ في الأَقْفاص ، فانقَلَبَ تَغرِيدُها نُواحاً تَنْدُبُ حُرِّيتَها ، وتَحِنُّ إلى الورْدِ حَنيناً .

- فرجعتُ إلىٰ نفسي أَلْتَمِسُ في جوانبها ما عَسَىٰ أَنْ يُعِينَ عَلى الأَسَىٰ ، يُخَفِّفُ من أَزيز القلب ، ويكشف من ذلك الدُّخان ، وهل للمرء غيرُ نفسه من معوان ؟! فظفرت من غادة فكري بأَفضلِ نجيٍّ ، وخير سمير ، وكانت نتيجة هاتيك المناجاة هذه الأَبيات[1] :

رجـــوت للشَّـــرق خيـــراً والشَّـــرق ثلثـــاه شـــرُّ

ومنها :

حتَّـــامَ يـــا شـــرق تبقـــىٰ جنـــاتُ عـــدنـــك قفـــرا ؟

ومنها :

مـــا زلـــت يـــا شـــرق عبـــدا ومـــا بـــرحنـــا عبيـــداً

= العدد (٦٩١٦) في (١٩١٣/١٢/٢٤) ، وسنختم ببعض أبياتها هذا الحقل ، فألتمس عندها مسك الختام .

ينظر ديوانه « ذكرىٰ حبيب » (ص١٧٣) .

(١) القصيدة بعنوان : (مناجاة نفس) ، تقع في خمسة مقاطع ، كل ثمانية أبيات منها مبنية علىٰ قافية ، ينظر ديوانه « ذكرىٰ حبيب » (ص٢٢٠) .

ومنها :

الشَّـــرق خيمـــة مجـــد عمـــادهـــا المسلمـــونـــا

ومنها :

هـــل يُصلـــح العلمـــاءُ مـــا أفســـد الأُمـــراءُ ؟

زهرة الوادي

- ابتسم ثغر الرَّبيع ووجه الدَّهر عابس ، وفؤاد الحُرِّ في غشاء من نبال ، ولي من نفسي شاغل ، وقد تكسَّرت النِّصالُ على النِّصال .

فاخترت العزلة غربيَّ دجلة ، في صحراء سندسية ، وخيام مضروبة ، وقصر مَشيد ، فمكثت زهاء ثلاثين يوماً شقيّاً بثوب سعيد ، أَو سعيداً لا ينبض فيه عرق غير الشَّقاء ، وذلك من منتصف شوال حتى النِّصف من ذي القعدة سنة ١٣٤٦هـ .

وفيما كتبتُ في زهرة الوادي إِجمالٌ لكلِّ تفصيل ، أَو تفصيل لكلِّ إِجمال ، وهل الحياة إِلاَّ أَسرار وأَلغاز ، ربما استوىٰ فيها الإِطنابُ والإِيجاز ، وإِلى الله المشتكىٰ من قلب وثَّاب ، ونفس نزوع ، وماضٍ زرعته أَيدي الجهل حنظلاً ، فأَدركتُ أَشباح العلم زمن الحصاد ، ثم رحم الله القائل[1] :

وعنـوانُ مـا بـي مـا أَبثُّـكَ بَعْضَـه ومـا تَحْتَـهُ إِظهـارُه فَـوْقَ قُـدْرَتـي

- كنتُ صبيحةَ كلِّ يومٍ بعد أَداء المكتوبة ، وتلاوة ما تيسر من كتاب الله ، ثم تناول شيء من الغذاء . . أَنسابُ انسيابَ الأَفعىٰ في الصَّحراء ، تَصْعَدُ بي هِضاب ، وتَهْبِط بي وِهاد ؛ ترويضاً للبدن ، وتَرْويحاً للنَّفسِ من عناءِ الرَّاحة ،

(١) هو ابن الفارض رحمه الله تعالىٰ ، من قصيدته المسماة : (التائية الكبرىٰ) ، ومطلعها :

سقتنـي حميَّـا الحـب راحـةُ مقلتـي وكأسي محيًا من عن الحسن جلَّت

حتَّىٰ إذا ما جئت وادياً بعيداً عن المارَّة ، مختفياً عن الأَنظار ، مزدهياً بصنوف الأَزهار ، وقد أَحْسَسْتُ بعرق النَّصَب على الجبين أَلقيت العصا ، واتخذت من صخور الوادي كرسي استغراق ، وانتقيت زهرةً من شقائق النُّعمان ، أَستنزل الوحي من سماءِ إلهامها الصَّافية ، فإذا أَنا أَمام صحيفة من سِفْر الكائنات تفيض جمالاً وجلالاً ، وتتدفَّق آلاماً وآمالاً .

وها إنِي أَضَعُ أَمامَ عَيْنَيكَ ما أَصابَتْ ريشَةُ المُصوِّرِ مِن زَهْرَةِ الوادي وذيَّاكَ التِّمثالِ البديع بَيْنَ معاطفِ الطَّبيعةِ وثَنايا الربيع[1] .

زهرة الوادي ـ وسفر الحياة :

سـلامـاً زهـرة الـوادي سـلامـاً ورب تحيــةٍ بلَّــت أُوامـــا

جَلَسْت إليكِ في الوادي خليَّ الـ فـؤاد وقمـت صبّـاً مستهـامـا

زهرة الوادي ـ وحياة الشَّرقي :

تصـــوَّر زهـــرةً نبتـــت بقفـــرٍ وهيهـات القفـارُ مـن الـزُّهـور

زهرة الوادي ـ وأنا :

مـا لتغـريـديَ قـد عـاد نـواحـا وسلوا بالله قلبي كيف طاحا ؟

زهرة الوادي ـ وطرائق الحياة :

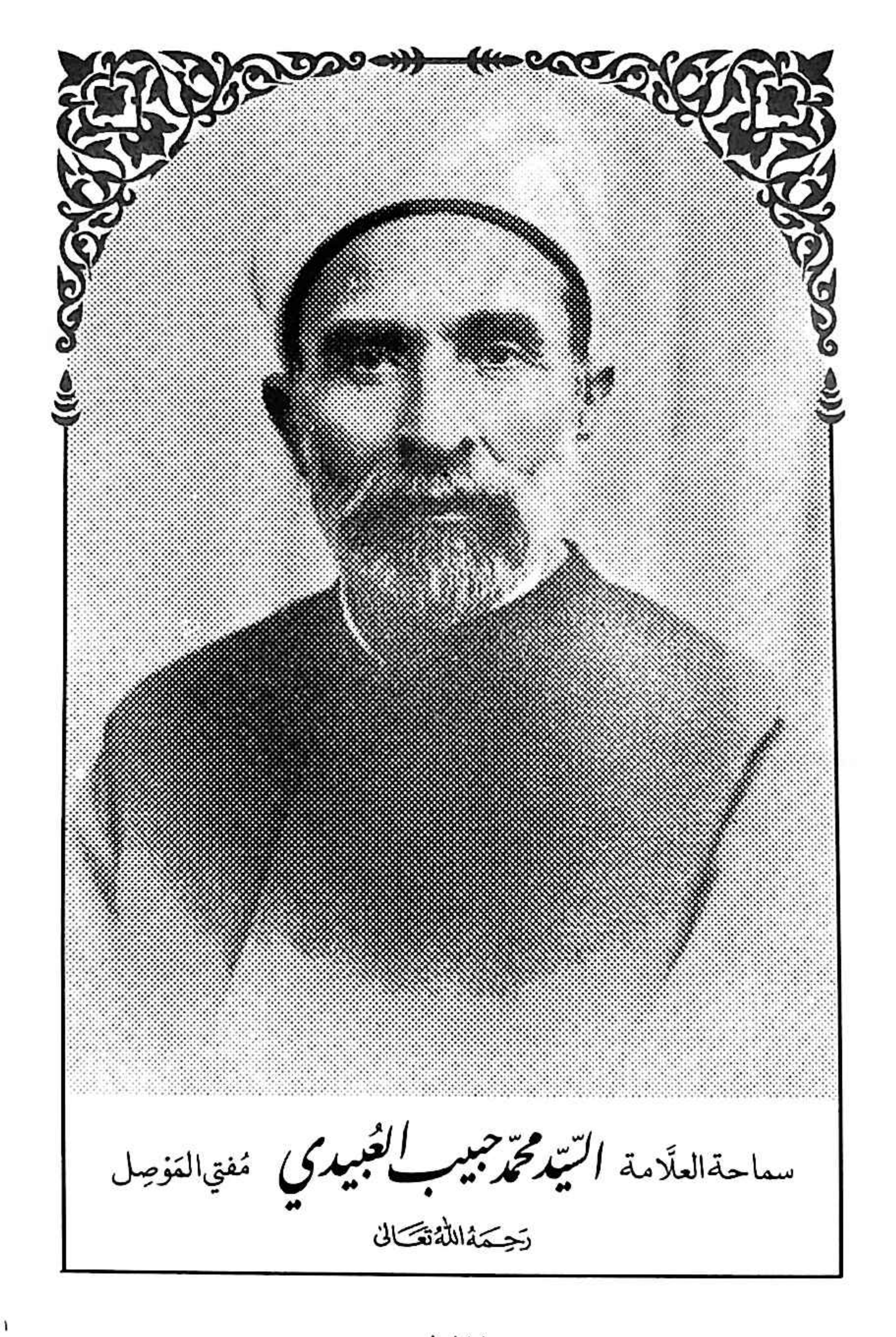
شغلتنـي عنـك ذكـراك صبـاحـاً فسماحاً زهرة الوادي سماحا

زهرة الوادي ـ وآلام الوداع :

أرى العيـش افتـراقـاً واجتمـاعـا وداعــاً زهــرة الــوادي وداعــا

---

(١) وكتب خمس مقطوعات مقترنة أسماؤهن بـ(زهرة الوادي) ، هي : (سفر الحياة ، حياة الشرقي ، وأنا ، وطرائق الحياة ، وآلام الوداع) ، ينظر ديوانه « ذكرىٰ حبيب » (ص٢٢٣) .



سماحة العلاّمة **السيّد محمّد حبيب العُبيدي** مُفتي المَوصِل

رحمه الله تعالى

مسك الختام

أمتي . . أمتي[1] :

أَقُـولُ الشِّعْـرَ لا للشِّعـرِ لكِـنْ ... عَسـاهُ أَنْ يُخَفِّـفَ مِـن شُجُـونِـي

بَكَيْـتُ ومـا دُمـوعـي غَيْـر شِعْـرِ ... ولَيْسَـت عَبْـرَتـي غَيْـرَ الحَنيـنِ

ودَمْـعُ الحُـرِّ مِـن دُرِّ القَـوافـي ... ودَمْـعُ سِـواهُ مِـن مـاءِ العُيـونِ

أَأَبِّـنُ أُمَّـةً عَبَـدَتْ هَـواهـا ... فـأَسْلَمَهـا إِلـىٰ هَـوْلٍ مُهِيـنِ

رَضِيـتُ أُدَوِّنُ الأَشْعـارَ فيهـا ... ولـولاهـا رَأَيْـتُ الشِّعْـرَ دونـي

أُحَلِّـي جيـدَهـا وعلـىٰ سِـواهـا ... حـرامٌ نَظْـمُ ذا الـدُّرِّ الثَّميـنِ

عـداني المجـد أَن أَبخـل بـروحـي ... لِسـؤدد أُمتـي ولعـزِّ دِينـي

جُنِنْـت بحـب أَوطـانـي ومـاذا ... علـى العقـلاء لـو جُنُّـوا جنونـي ؟

فـلا حفِظَـتْ لـي الأَيـام عهـداً ... إِذا لـم أُعطهـا كـفَّ اليميـن

ولا عـرفـت لـي الأَحقـاب ذكـراً ... إِذا لـم أَكسُهـا ثـوب اليقيـن

شمـائـل فـي بنـي عـدنـان قِـدمـاً ... ووارثهـنَّ وضَّـاء الجبيـن

متـىٰ تصحـو بـلاد مـن خمـار ... أَطـال صداعهـا حينـاً لِحَيـن ؟

على المجد المضاع يطولُ حزني ... ومـا حـزنـي علـىٰ مـاءٍ وطيـن

أَقـول وفـي العـراق رجـالُ حـزمٍ ... متىٰ تشفي الظَّمـا أَسدُ العريـن ؟

ومـا بَـرَدَىٰ بـأَبْـرَدَ مِـنْ دُجَيْـلٍ ... ودِجْلَـةُ ذي المـآثـرِ والشُّـؤون

تَجَمَّـلْ بـالعـراقِ وسـاكِنيـهِ ... ونَـوِّهْ بـالمَكـانِ وبـالمَكيـنِ

لَقَـدْ كُنَّـا ابتسـامـةَ سِـنِّ دَهْـرٍ ... أَضَعْنـاهُ عَلـىٰ مَـرِّ السِّنيـنِ

---

(١) هذه أبيات هي بعض من نونيته الكبرى التي أشرت إليها في مقدمة الكتاب ، وأكرر الأسف علىٰ ضياع تمامها ؛ إذ لم يكن بيني وبينها إلا ذراع قبل أن تلتهمها أمواج الضياع .

فَلَوْ نَطَقَتْ بنا الأَيَّامُ ضاءَتْ ... لَيالِيهِنَّ عَنْ صُبْحٍ مُبينِ
رُوَيْدَكَ يا عِراقُ إلامَ تَشقَىٰ ... وَقَدْ كُنْتَ السَّعيدَ مَدَى القُرونِ
أَغَنَّ الرَّوْضِ بَسَّامَ الأَقاحي ... بَعيدَ الغَوْرِ ميَّاسَ الغُصونِ ؟
أَلَمْ تَكُ صاحبَ الرَّاياتِ فيها ... ولَيْسَ جَوادُ عَزْمِكَ بالحَرونِ ؟
سَقَتْ عَهْدَ الرَّشيدِ عِهادُ مُزْنٍ ... حكاها في السُّهولِ وفي الحزُونِ
سَلامُ مُوَدِّعٍ وحَنينُ داعٍ ... على المأْمونِ مِنْ بَعْدِ الأَمينِ
أرىٰ جَوَّ السِّياسةِ مُكْفَهِرّاً ... لِيُمْطِرَ أَرْضَنا رَيْبَ المَنونِ
وما الآراءُ إلاَّ مُثْقَلاتٌ ... تَمَخَّضُ بالعَجيبِ مِنَ الشُّؤونِ
وما الشَّرْقُ الكئيبُ سِوَىٰ ثِفالٍ ... تَدورُ رَحاهُ في حَرْبٍ طَحونِ
ولَيسَ المُسلِمونَ سِوىٰ مَريضٍ ... أَحَسَّ هُناكَ بالدَّاءِ الدَّفينِ
كأَنِّي بالبَواتِرِ مُرعِفاتٍ ... تُلَطِّخُ أَوْجُهاً بِدَمٍ مَشينِ
تَخُطُّ عَلىٰ جَبينِ الدَّهْرِ سَطْراً ... يلوحُ سوادُه فوقَ الجَبينِ
وفي هذي الحروبِ لنا بلاغٌ ... وفيما قَبْلُ مِن ماضي القُرونِ
فهلْ أَعْدَدْتَ يا شَرْقيُّ عَضْباً ... تُناطِحُ فيهِ عَنْ عِرْضٍ مَصونِ ؟
ويا عربيُّ مالَكَ مُنْتَهاناً ... ولم تَكُ قبلَ يومِكَ بالمَهينِ ؟
أَصِخْ للمُنْذِراتِ مِنَ اللَّيالي ... فَقَدْ جاءَتْكَ بالخبرِ اليقينِ
لقد فَغَرَتْ لكَ الأَطماعُ فاها ... أَتَذْهَبُ طعمةَ الجَشَعِ اللَّعينِ ؟
أَلَمْ تَرَ كُلَّ يَوْم حَرْبَ قَوْمٍ ... تَشُبُّ النَّارُ في حُصْنٍ حَصينِ ؟
فَأَغْراضٌ تُمَزِّقُها عُلوجٌ ... تُفَتِّشُ في البُطونِ على الجَنينِ
وَأَوْدَاجٌ تُقَطِّعُها ذُكورٌ ... تَحُزُّ مِنَ الوَريدِ إلى الوَتينِ
وإنْ سارَتْ ظُعونٌ خَوْفَ موْتٍ ... يَسيرُ الموتُ مِن خلفِ الظُّعونِ
وما أَسَفي على القَتْلَىٰ ولكنْ ... عَلَىٰ شَرَفٍ وَأَوْطانٍ ودِينِ
أَتَنْهَضُ حِينَ لا يُجْدِي نُهوضٌ ... وقَدْ قَصَفَ الحِراكُ يَدَ السُّكونِ ؟

أَنَصْرُخُ يَوْمَ يَشْكُو الدَّهْرُ وَقْراً ... فلا يُصْغِي إِلى الصَّوْتِ الحَزِينِ ؟
أَنَبْكِي يومَ لا يُغْنِي بُكاءٌ ... ولا يُجْدِي الأَنينُ أَخَا الأَنِينِ ؟
وَقَدْ بَلَغَ الزُّبَىٰ سَيْلُ العَوادِي ... وكانَ السَّيْلُ مِنْ ماءٍ مَعِينِ
فَهَلْ مِنْ يَقْظَةٍ رُحماكَ ربي ... لِوَسْنانٍ غَفَا مِلْءَ الجُفونِ ؟
خُلِقْنا نَجْهَلُ الأَشْياءَ حتَّىٰ ... نَرىٰ نُصُباً لها نُصْبَ العُيونِ

تَمَّ الكتابُ بعَوْنِهِ تعالىٰ والحَمْدُ للهِ .

* * *

محتوى الكتاب

الحقل الأول

الكائنات ـ ومبدع الكائنات

الحقل الثَّاني
الأَخلاق ، ونتائج الأَخلاق

الحقل الثالث
الأَديان ـ وأَهل الأَديان

الحقل الرَّابع
الحكومات ـ والشُّعوب

النَّوَاةُ

فِي حُقُولِ الحَيَاةِ

هذا الكتاب من الكنوز الأدبية ، التي ضمت فقه الحكماء ، وفكر النبلاء ، وحصافة أهل التقى ، وإلهام أولي الزهد ، وتوجيهات المصلحين .

إن هذه النعوت مجتمعة لتتراءى أضواؤها في جمله وَكَلِمِه بذلك الأسلوب المعرق في البيان ، المستمد من بنت عدنان ، المتدفق من نهر الفصاحة ، الضارب بجذوره في تخوم البلاغة ، المُمتزج بفكر الحكيم ، وخيال الشاعر ، وحكمة الفيلسوف .

إنها مواضيع شتى ، وعناوين متعددة ، ينقش صورها بريشة الإبداع ، غايتها صلاح الأمة وعزتها ، وتلمُّس أدوائها وآلامها ، وإيجاد الدواء الناجع لحسم آلامها ؛ لتتناغم مع الطفرة الحضارية المعاصرة ، وترتدي زيّ العزة ، وحلية الكرمة في سماء المجد .